

أُفول أهل السُنَّة

التهجير الطائفي وميليشيات الموت وحياة المنفى بعد الغزو الأمريكي للعراق



ديبورا آموس

تقديم: د. رضوان السيد



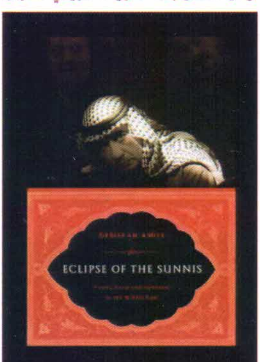
الشبكة العربية للأبحاث والنشر

ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

هذا الكتاب

أُفول أهل السُنَّة

التهجير الطائفي وميليشيات الموت وحياة المنفى بعد الغزو الأمريكي للعراق



كتاب آموس الذي أقدم له يعالج أحداث وتطورات حدثت في العراق والمنطقة المحيطة به بين (٢٠٠٣ ـ ٢٠١٠) ولا تزال ظواهرها مستمرة منذ بدأت مع الاحتلال الأمريكي والتدخّل الإيراني وإقبال النخب العراقية الجديدة الآتية من إيران وسوريا والمَهَاجر على الاستيلاء والتقاسم والتصارع والقتل في ظل غياب رؤية أو مشروع وطني جامع.

سمّت المؤلفة كتابها **أفول أهل السّنة**، حيث ركزت على عمليات انتقال السلطة من النخب المدينية السنيّة، وعمليات تفكك المجتمع، ثم التهجير السكاني الواسع الذي شمل مليوني سُنّي من العراق بين عامي (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦) ـ مع أن الهجرة لم تقتصر عليهم بل تناولت المسيحيين والشيعة الذين اعتُبروا من أتباع النظام السابق ـ، وعمليات القتل المستهدف من جانب المسلحين الميليشياويين والاستخبارات الإيرانية، وكان المقصود ابتداءً بهذا النوع من الاستهداف القاتل تصفية النخب العراقية الدولية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم صار القتل عشوائياً بعد العام ٢٠٠٥ من أجل النهب والسلب والدفع إلى الهجرة وتكوين مناطق طائفية صافية.

كتاب آموس مُفزِع. قرأته أول مرة في عام ٢٠١١، وكتبت عدة مقالات عنه. والمؤلفة صحافية متمرسة ذات نزوع أدبي وشعري، وقد استندت في مشاهداتها إلى زيارات ميدانية طويلة في العراق وسوريا والأردن ولبنان والمنطقة الكردية. ورغم الأهوال التي تحدثت عن حدوثها في العراق، ربما لم يكن بوسعها التنبؤ بأهوال جديدة حدثت بعد ذلك في سوريا أيضاً.

د. رضوان السيد

الثمن: ٩ دولارات

أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-052-6



الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ القاهرة ـ الدار البيضاء ـ الرياض

المكتب الرئيسي ـ بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ ـ ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabiyanetwork.com

أُفول اهل السُنَّة

أُفول أهل السُنَّة

التهجير الطائفي وميليشيات الموت
وحياة المنفى بعد الغزو الأمريكي للعراق

ديبورا آموس

ترجمة: محمد فاضل

تقديم: د. رضوان السيد



الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
آموس، ديبورا
أفول أهل السُّنَّة: التهجير الطائفي وميليشيات الموت وحياة المنفى بعد الغزو الأمريكي للعراق/ديبورا آموس؛ ترجمة محمد فاضل؛ تقديم رضوان السيد.
٢٣٩ ص.
ISBN 978-614-431-052-6
١. السنة والشيعة - الأحوال الاجتماعية. ٢. الحرب الأمريكية - العراقية (٢٠٠٣). ٣. اللاجئون. أ. فاضل، محمد (مترجم). ب. السيد، رضوان (مقدم). ج. العنوان.
956

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

Eclipse of the Sunnis

Power, Exile, and Upheaval

in the Middle East

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - المكتب الرئيسي: رأس بيروت - المنارة - شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail:info@arabiyanetwork.com
القاهرة - مكتبة: وسط البلد - ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥ محمول: ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail:info@arab-network.org
الدار البيضاء - مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ محمول: ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org
الرياض - مكتبة: حي الفلاح - شارع الأمير سعود بن محمد بن مقرن
جنوب جامعة الإمام، مقابل بوابة رقم ٣
هاتف: ٠٠٩٦٦٥٥٢١٦١١٦٦
E-mail: info-ksa@arabiyanetwork.com

إنكم لا بد مفارقون أشد ما تحبون

فذاك أول ما قوس النفي به ترميكم

ولسوف تخبرون مرارة خبز الآخرين،

وتدركون كم هو لاذع؛ ولسوف تعرفون

كم هو شاق أن يترجل المرء درج غيره

صعوداً وهبوطاً

دانتي

على المرء أن يضع كل إيمانه وثقته في وطنه، وأهله، وماله؛ وعندما لا يكون بمقدور المرء أن يذود عن أي من هذه، يصبح أفضل بدائله أن يرتحل إلى موطن آمن.

أحمد القوصي

لاجئ عراقي في دمشق

المحتويات

شكر وتقدير

عندما وصلت إلى بغداد في أيار/مايو عام ٢٠٠٣م، لم يكن لدي أدنى فكرة أن العراق سيصبح أطول مهمة كلفت بها في حياتي العملية. وأنا أدين بالكثير من الإفضال للذين ساعدوني على رؤية هذا البلد وباقي المنطقة ـ ليس كما أتمنى رؤيتها وإنما كما هي في الحقيقة ـ فإن أدركت حقيقتها بشكل صحيح فقد كان هذا بسببهم، وإن أخطأت في هذه الرؤية وأسأت الحكم، أو وقعت في زلل في هذا العمل فأنا الوحيدة المسؤولة عنه.

الكثير من الناس شاركوني أوقاتهم ورؤاهم، وقد قمت بعمل قائمة بهم ورتبتها هجائياً؛ لأنه لا مجال لترتيبهم حسب مساهماتهم:

سمير عطية، ريم علاف، وليد أرشد، أوليفر أوجست، علي بدر، بوب باير، جورج بغدادي، هنري باركي، محمد بزي، آنيا سيزادلو، حيدر دفار، بورزو داراجاحي، عديد داويشا، روثي ابشتاين، اندرو اكسوم، علي فاضل، إسراء عبد الهادي، إبراهيم حميدي، بيتر هارلينج، جوست هيلترمان، عزة حمادي، فيصل الاسترابادي، أهلان الجبوري، كيرك جونسون، برايان كاتوليس، مايكل كوخر، ليث كبة، جوش لانديس، سها معايه، منى محمود، نزار مهاوي، عبد الله مزياد، رولا نصر الله، جورجن نيلسن، سام باركر، فانيسا بارا، فولكر بيرثيس، دميان كوين، خالد صفوري، لينا سعيدي، عمر صالح، أحمد سالكيني، نديم شهادي، ليز سلي، ويندل ستيفنسون، أندرو تابلر، سمير التقي، إميليا تيمبلتون، نبيل التكريتي، ميليسا وينكلر، فريد ياسين، كريستل يونس، ومحمد جويد.

أنا مدينة بالمزيد من الامتنان «لقرائي» والذين امتلكوا ردود فعل وتعليقات ساعدتني طول الطريق على جعل الكتاب أغنى وهم: ريك دافيز،

كارول ساكويان، أنا هوسارسكا، جون فيلتون، بيتر برينجل، كارين دايونج، مادلين سيجال ـ ماركس، جوليا ريدباث بايلي، وآلي جوردن.

وأود أيضاً أن أشكر الأصدقاء وزملاء العمل الذين أيدوا عملي دون أن يذكروا غيابي الطويل، والذين غالباً ما كانوا يستمعون لقصصي وهم: فريد كابلن وبروك جلادستون، إليانور راندولف، روبن لوستيج وروث كيلسي، لوري جاريت، بيل مويرز، جوان ليفين، مادهوليكا سيكا، ولعائلتي، جيني آموس، دوروثي آموس، جون آموس، ووالدي، جون، والذي استمع لما يمكن أن يتذكره.

شكراً لروبرت روزينثال وكريستا سكافنبرج من مركز تقارير التحقيقات.

شكراً للورين جينكنز لدفعها لي دون قصد لهذه الرحلة عندما أرسلتني لبغداد في عام ٢٠٠٣م لأسد خانة وبعدها قامت بدعم التغطية المستمرة للمنفى العراقي، ولدوج روبرت، المحرر الخاص بي في الإذاعة العامة الوطنية، والذي حرص على التأكد من تنسيق النصوص وسلامة اللغة العربية.

شكراً للاري وايزمان، والذي أدرك قبلي أنه يمكنني عمل هذا الكتاب، وللأشخاص في الشؤون العامة: سوزان واينبرج، وبيتر أوسنوس، وتيسا شانكس، وميليسا رايموند، وبصفة خاصة لكلايف برايدل، والذي كان محرراً كريماً بشكل يفوق الوصف، رجل المرح والحكمة الذي جعلني أضحك بجانب أنه جعلني أفكر.

ملاحظة المؤلفة

الهويات المتغيرة

لقد تم تغيير أسماء بعض الشخصيات العراقية الواردة في هذا الكتاب، كما تم تغيير تفاصيل حياتهم لحماية هوياتهم. وهذا لا يقلل من حقيقة قصصهم، وإنما يحميهم فقط من العقاب الذي كان في كثير من الحالات، سبباً في مغادرتهم لبغداد.

في التقديم والفهم

د. رضوان السيد

شهد العراق عمليات تجريف سكاني وسياسي امتدت على ثلاث مراحل: **مرحلة الثمانينيات** التي تعاصرت مع الحرب العراقية ـ الإيرانية، والتي انصبت على الشيعة والأكراد، فضربت مقومات بقاء العراق موحّداً، سكاناً وشعباً. **ومرحلة التسعينيات** بعد حرب الكويت، والتي أعقبها حصارٌ دوليٌّ هائلٌ ضرب مقومات الدولة بعد أن ضُربت في الثمانينيات مقومات المجتمع. **ومرحلة الاحتلال الأمريكي وسقوط الدولة العراقية** وما تبقى من المقومات الاجتماعية والإنسانية.

وكتاب آموس الذي أقدّم له يعالج أحداث وتطورات المرحلة الثالثة هذه (٢٠٠٣ ـ ٢٠١٠). وإذا كانت المرحلتان السابقتان وما جرى فيهما على العراق تتعدد عواملهما في ما بين الحروب وعسف السلطة واستهداف البلاد وحدةً ودولةً وسكاناً؛ فإن المرحلة الثالثة التي لا تزال ظواهرها مستمرة تبدّت في أحداثها وأسبابها ثلاثة عوامل رئيسة: الاحتلال الأمريكي، والتدخل الإيراني، وإقبال النخب الجديدة الآتية مع الاحتلال من إيران وسوريا والمَهَاجر على الاستيلاء والتقاسم والتصارع والقتل في ظل غياب رؤية أو مشروع وطني جامع.

سمّت المؤلفة كتابها **أفول أهل السنة**، وبذلك فقد ركزت على عمليات انتقال السلطة (من وجهة نظرها) من النخب المدينية السنية (من الجيل الرابع من أجيال بناء الدولة العراقية الحديثة التي أعلنت عام ١٩٢٠). وقد راقبت المؤلفة عمليات تفكّك المجتمع وانتقال السلطة هذه عبر ثلاثة مداخل:

مدخل التهجير السكاني الشامل، هجرة وتهجير مليونيْ سُنّي من العراق بين عامي ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦، مع أن الهجرة لم تقتصر عليهم بل تناولت المسيحيين والشيعة الذين اعتُبروا من أتباع النظام السابق.

مدخل القتل المستهدف، من جانب المسلحين الميليشياويين والاستخبارات الإيرانية، وكان المقصود بهذا النوع من الاستهداف القاتل تصفية النخب العراقية الدولية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ثم صار القتل عشوائياً بعد العام ٢٠٠٥ من أجل النهب والسلب والدفع إلى الهجرة وتكوين مناطق طائفية صافية.

مدخل تكوين أجهزة عسكرية وشرطية وأمنية شبه طائفية أو طائفية بحتة، لعزل السُنة عن إمكانيات المشاركة، ودفعهم باتجاه التهميش، أو اليأس والخروج من البلاد.

كان مشروع إنهاء الدولة العراقية مشروعاً أمريكياً في الأساس. وهذا معنى قرارات بول بريمر بعد الاحتلال مباشرةً بحلّ الجيش العراقي وأجهزة الشرطة والأمن، وسائر الوزارات والإدارات، وإن قالوا إنهم استثنوا وزارتَي النفط والمالية. ثم تلا ذلك قانون «اجتثاث البعث» والذي أكمل مهمة إنهاء الدولة وضرب المجتمع، ليس لأن البعثيين كانوا كثيرين إلى هذا الحد، بل لأنه استُغلّ ـ ولا يزال ـ لضرب كل المفاصل والهيئات باسم التطهير. بيد أن الضربة القاضية للعراق مجتمعاً وانتماءً جاءت بعد نشوب «الحرب الأهلية» (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٨) والتي عُرفت تحت اسم الصراع الشيعي السني أو السني الشيعي، بحسب اتجاهات الباحثين في التحليل والتأريخ. من بدأ الصراع الطائفي أو القتل على الهوية؟ الميليشيات الشيعية أو الميليشيات السنية التي صار أبو مصعب الزرقاوي الأردني الأصل رمزاً مهولاً لها (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦).

وفي كل الأحوال فإن أحداً لم يبقَ خارج الغوص في الدم العراقي: **الإيرانيون** من خلال ميليشيات الصدر والميليشيات الأخرى التي كوّنوها أو بالمباشر. **وأصوليو القاعدة** الذين استخدمهم الجميع وعلى رأسهم النظام السوري. **والأمريكيون والبريطانيون** الذين اعتبروا لفترة (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦) كتائب الموت الشيعية وسيلة «مفيدة» في الاستخدام بمواجهة «التمرد» أو المقاومة السنية للاحتلال!

لم تستطع الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينيات أن تحيي الصراع بين السنة والشيعة، رغم الجهود المبذولة من جانب الطرفين المتقاتلين. لكن النزاعات في العراق بعد الاحتلال تمكنت من ذلك. وهكذا يمكن القول إن الصراع الناشب بين السنة والشيعة حتى اليوم، والذي تتواجه فيه التنظيمات التي شكلتها الدولة الإيرانية في البلاد العربية، مع الموجة الثانية من موجات الجهادية السنية هو من بين أهم تداعيات الاحتلال الأمريكي للعراق. وقد قسم بلداناً ومجتمعات في المشرق العربي والخليج، ولا تزال مآلاته غير واضحة المصائر أو النهايات أو النتائج.

أما التداعي الآخر فهو تغير العراق العربي تغيراً جذرياً، ليس بمعنى الأفول السني الذي تقصده المؤلفة، بل بمعنى الاختلال شبه الكامل في البنية السكانية والاجتماعية والوطنية.

ولا ندري أيضاً حتى اليوم ما ستؤول إليه الأمور، ما دام السنة حتى الآن، ورغم احتجاجاتهم الحاشدة وبعد عشر سنوات على احتلال العراق، ما استطاعوا الخلاص من قانوني اجتثاث البعث ومكافحة الإرهاب.

والتداعي الآخر أو الثالث، وهو من عقابيل الاحتلال الأمريكي أيضاً وأيضاً، هو التغير في البنية الاستراتيجية للمنطقة العربية، كما رست عليه بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو آخر الحرب العالمية الأولى.

فالأمريكيون خرج عسكرهم من العراق، لكنهم لا يزالون فاعلين رئيسيين بالطبع. ويبدو أنه على العرب أن يكافحوا طويلاً للجلوس على الطاولة لجهة القرار في مستقبل منطقة المشرق العربي أو الشرق الأوسط الجديد التي يصرُّ لاعبوها الإقليميون والدوليون على حقهم في تحويل دولنا إلى مناطق نفوذ لهم فيها شيعة وسنة وعلويون ومسيحيون، لكن ليس فيها عرب ولا سكان ناطقون بالعربية!

إذاً، تتبع المؤلفة المشهد العراقي أو المحنة العراقية بعد الاحتلال الأمريكي من المداخل التي ذكرناها. وقد شاءت أن تعطي كتابها عنوان: **أفول أهل السنة**. ولا أرى أن العنوان دقيق، لكنها اختارته لسببين: أن التهجير والقتل نالا أكثر ما نالا من الأقلية السنية (ثمانية ملايين فقط)!، ولأنهم زالوا من السلطة المركزية زوالاً شبه كامل!

لكنها لو عادت إلى تأمل مشهد المشرق العربي الآن، لوجدت أن الأكثرية السنية الساحقة في سورية ما نفعتها كثرتها (٨٠ في المئة)، فقد تهجر منها حتى الآن ثلاثة ملايين بالخارج، وستة ملايين بالداخل، وقتل منها زُهاء المئة والخمسين ألفاً، ويقبع ربع مليون في المعتقلات.

فالمسألة ليست مسألة شيعة وسنة، وإنما هو التغوُّل الإقليمي والدولي على العرب في حاضرهم منذ فلسطين وإلى العراق وسوريا وليبيا والسودان واليمن ولا أدري أين وأين أيضاً.

كتاب آموس مفزع. وقد قرأته عام ٢٠١١، وكتبتُ مقالات عنه. والسيدة صحافية متمرسة ذات نزوع أدبي وشعري. لكنها تستند في قصصها إلى زيارات ميدانية طويلة إلى العراق وإلى سوريا والأردن والمنطقة الكردية. ورغم الأهوال التي تحدثت عنها، فما كان بوسعها التنبؤ بالأهوال السورية والأخرى الليبية والتي تكاد تماثل ما حدث في العراق كما تفوقه أحياناً. وقد قرأتُ قبل أيامٍ تصريحاً لوزير خارجية العراق هوشيار زيباري قال فيه إنه إذا ظلَّ الوضع في سوريا على ما هو عليه، فستصبح سوريا مثل أفغانستان أو الصومال! ولو كان الرجل صادقاً مع نفسه ومستمعيه لقال إن سوريا توشك أن تصبح مثل العراق. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

بيروت

في ٢٠/١١/٢٠١٣

مقدمة

عندما شاهدنا الرئيس الأمريكي باراك حسين أوباما يعتلي المنصة في جامعة القاهرة يوم الرابع من يونيو/حزيران ٢٠٠٩م، كان من السهل أن يصدق المرء أننا على مشارف حقبة جديدة بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول الشرق الأوسط؛ وما كان اختيار حرم جامعة القاهرة لاحتضان ذلك الحدث إلا لرمزية بالغة الأهمية؛ فالجامعة التي تأسست عام ١٩٠٨م لتكون مركزاً للتعليم المدني أصبحت تلعب دوراً بارزاً في التقريب بين الشرق والغرب؛ ومن ناحية أخرى، فقد كان الحرم الجامعي ذاته يغلي بالمشاعر المعادية للولايات المتحدة الأمريكية إبان غزو العراق الذي تزعمته أمريكا؛ ولكن ذلك اليوم شهد حماسةً شديدةً من الحاضرين الذين كانوا ينتظرون أن يخرج عليهم أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ليلقي عليهم خطاباً يتوسمون فيه أن يكون خطاباً تاريخياً إلى العالم الإسلامي.

كان لاسم الرئيس في حد ذاته رنين خاص: وقد وصل الأمر ببعض صحف القاهرة إلى افتراض أن أوباما أول رئيس أمريكي مسلم، تمشياً مع العرف السائد في العالم العربي الذي يقتضي وراثة الأبناء لديانة آبائهم؛ أما في أمريكا فالأمر لا شك مختلف، إذ يتسم مفهوم الهوية بمزيد من المرونة، فنحن نتقمص هويتنا بلا تعمق، ونضيف إليها أو نأخذ منها بسهولة بما يتناسب مع ظروفنا؛ لذا بدا الأمر على هذه الصورة: رئيس أمريكي من أصل مسلم يتناول مشكلة الهوية وهي أكثر المشكلات صعوبة وعمقاً في منطقة من أكثر المناطق التي تصطبغ فيها السياسة بصبغة الهوية؛ وقد أوصى الرئيس أوباما في كلمته للحضور «بضرورة رأب الصدع بين المسلمين» وبخاصة بين الشيعة والسُّنَّة، وهو صدع تاريخي راكد في أغلب الأوقات، أظهرته على

السطح مجدداً الحرب على العراق بقيادة الولايات المتحدة؛ ولم يكن هذا الانقسام الذي تسلل إلى النسيج الاجتماعي بالمنطقة في الأساس انقساماً دينياً، بل هو انقسام حول السلطة والفراغ الذي خلفه إقصاء الجيش الأمريكي لطاغية ينتمي للسُّنَّة؛ وقد أحسن شيعة العراق استغلال تلك الفرصة؛ فمنذ إخفاق مساعي إدارة الرئيس جورج بوش الأب لدعم تمرد الشيعة على صدام عام ١٩٩١م، أدرك الأمريكيون إمكانية التحالف مع الأغلبية الشيعية ضد صدام؛ إلا أن الولايات المتحدة ـ قبل شن الحرب على العراق عام ٢٠٠٣م ـ لم تفكر فيما سيحدثه إقصاء صدام من تبعات على المجتمعات السُّنِّيَّة في الشرق الأوسط، وهو ما سنتناوله في هذا الكتاب.

يجب أن يبدأ رأب الصدع بين الشيعة والسُّنَّة في العراق، ونادراً ما أتى أوباما على ذكر العراق بوصفه أكثر أماكن الانقسام السُّنِّي الشيعي حدةً؛ في هذه الأثناء كانت بعض العلامات قد أخذت تتصاعد في أماكن أخرى بالمنطقة: فقد تأثر حزب الله سلباً بتصويت الشعب اللبناني في انتخابات البرلمان لصالح ائتلاف سياسي يعلن تأييده لسياسات الولايات المتحدة؛ كما خرج ملايين الإيرانيين بشجاعة إلى الشوارع لتحدي الجمود الذي يمثله انتخاب رئيس أصولي، كما احتفلت سوريا بإعلان عودة السفير الأمريكي بعد غياب دام أربعة سنوات، في دلالة مادية تبرهن على أن أمريكا تبسط يدها بسخاء للخصوم؛ غير أن هذا التحسن لم يكن قد شمل العراقيين بعد، ورغم الانخفاض العام في مستوى العنف بالعراق، لا تزال واحدة من الإحصائيات تثير القلق وخاصة مع عدم حدوث أية تغييرات كبيرة بها؛ فحتى عام ٢٠٠٩م لم يعد إلى العراق سوى خمسة في المائة من إجمالي مليوني عراقي فروا من البلاد، وذلك لعدم وضع حلول للمشكلات الأساسية التي تذكي جذوة التمرد والحرب الأهلية، كما يعلم جميع المنفيين ذلك جيداً.

تقدر نسبة العرب السُّنَّة بستين في المائة من اللاجئين، والنصارى بنسبة خمسة عشر في المائة، وقد عانت نسب أقل من الشيعة العلمانيين والصابئة واليزيديين والأكراد من حرب أهلية وحشية وضعت السلطة في أيدي القوميين الشيعة؛ ومع ذلك فقد تم تجاهل الطبيعة الطائفية للأزمة إلى حد كبير؛ ويمثل هذا التحول السكاني خسارة كبيرة للعراق، ومشكلة أكبر للحكومات المجاورة، ومأساة جماعية لمن يتجرعون معاناة الهجرة واللجوء، ومؤشراً

هاماً من مؤشرات عدم استقرار العراق والشرق الأوسط. وقد أصبح فاقدو المواطنة حديثاً أهم مؤشر للمرحلة المقبلة من تاريخ المنطقة؛ إذ نجد في القصص التي يحكيها كل منهم تحديات دينية وقبلية وطائفية وصراعات ينبغي تسويتها بكافة السبل لوضع حد لهذا العنف.

في الوقت الذي غادر أو أُجبر فيه خمسة ملايين عراقي على مغادرة البلاد طوال ثلاثة عقود من حكم صدام، كان هذا النزوح يأتي على شكل تدفق بطيء للمعارضين السياسيين، ومع احتلال الولايات المتحدة للعراق، وما أعقب ذلك من انهيار دولة العراق، والصراع العنيف على السلطة، تشرد تقريباً العدد نفسه في أقل من خمس سنوات داخل وخارج البلاد. وقد بدأت الهجرة بنسب قليلة عام ٢٠٠٤م، عندما كانت القوة الدافعة هي العصابات التي تقوم بعمليات الاختطاف وتشكل هجمات المسلحين السُّنَّة. وازدادت وتيرة الهجرة عام ٢٠٠٦م مع تفجير القاعدة لمسجد القبة الذهبية في سامراء العراق وهو أحد مواقع الشيعة المقدسة، الأمر الذي أشعل موجة من الهجمات الانتقامية الشيعية ضد السُّنَّة في جميع أنحاء البلاد. وتصاعدت عمليات التشريد مجدداً عام ٢٠٠٧م في نوبة أخيرة من التطهير الطائفي حتى مع نشر قوات إضافية قوامها ثلاثون ألفاً من القوات الأمريكية بالعراق.

تعتبر التفاصيل اليومية هي السبيل الوحيد لإظهار حجم الكارثة والتهديدات الخاصة التي أشعلت سياسة التشريد، وهذه التفاصيل يسرت فهم الصورة الكبرى لما يدور في العراق. وقد بدأتُ رحلة لتوثيق النزوح الجماعي تنقلت فيها بين دمشق وعمان وبيروت لمقابلة الأعداد المتزايدة من المنفيين.

لا يوجد في موجة النفي الأخيرة هذه أي مخيمات من أي نوع، فقد استقرت الأعداد الأكبر بهدوء في الضواحي الفقيرة المحيطة بالعواصم العربية. وقد شهدتُ في مطار بغداد أحضان الوداع الباكية، حيث كانت عائلات حسنة المظهر تجاهد في حمل الأمتعة التي أصبحت تمثل الآن ملخص حياتها. بينما تقود عائلات أخرى سياراتها خارج العاصمة إلى جهة الغرب على طول الطريق الصحراوي لخمسمائة ميل موحشة حتى الحدود الأردنية. وعندما أغلقَت الأردن حدودها أمام المد البشري، توجه النازحون

شمالاً بالسيارات لأربع عشرة ساعة حتى الوصول إلى سوريا. وقد أخذ العراقيون معهم النقود أو الذهب أو اعتمدوا على أقاربهم هناك لتجاوز ما اعتقد الجميع أنها إقامة قصيرة إلى أن تنتهي عاصفة العنف التي حلت بالوطن ولكن انتظارهم طال إلى أن نفدت أموالهم.

كان هذا النزوح للطبقة المهنية ـ الأطباء والعلماء والشعراء وأساتذة الجامعات والممثلين والحرفيين ـ التي تشكل أفضل أمل لجعل العراق رمزاً لأكثر الأحلام الأمريكية المبكرة طموحاً في الديمقراطية والازدهار. وقد أدت هجرة غير مسبوقة للعقول المشتغلة في صناعة النفط إلى عجز في الخبرات عندما فر أكثر من نصف المدراء المائة الأفضل، مما جعل وزراء الحكومة العراقية يجهرون بالشكوى من قلة العاملين القادرين على كتابة العقود. وقد غادر العلماء البلاد مفضلين البطالة في المنفى على الجمع بين البطالة والخوف في الوطن. وقد شمل النزوح جميع رتب الطبقة الوسطى أيضاً، بما في ذلك العاملين في المصالح الحكومية البيروقراطية المختلفة. وبحلول عام ٢٠٠٧م كانت الغالبية العظمى من النازحين ـ بنسبة تتجاوز سبعين في المائة ـ تتشكل من مهنيي وخبراء بغداد ممن أدى رحيلهم إلى إصابة حكومة العراق بالشلل.

وقد قال لي محمد يحيى ـ الذي يتحدث الإنجليزية بعد تخرجه من الجامعة طبيباً بيطرياً ورضي بالعمل لدى مقاول أمريكي في عام ٢٠٠٣م ـ: «لأكن صريحاً معك، لم أكن أرغب في أن أصبح جثة في كيس بلاستيكي وفضلت البقاء على قيد الحياة». وقد عمل محمد في «المنطقة الخضراء» ببغداد في وزارة المالية العراقية لثمانية عشر شهراً. ثم رأى ـ بعد تعرض بعض زملائه العراقيين للتهديد ثم القتل ـ أن العمل في وظيفة مترجم لصالح مؤسسة صحفية بريطانية ربما يكون أكثر أمناً. وبحلول صيف ٢٠٠٧م بعد سلسلة من التهديدات، تأكدت لدى محمد ضرورة مغادرة البلاد إذا أراد الحفاظ على حياته.

بقي نزار حسين ـ وهو مخرج يبلغ من العمر ٢٧ عاماً ـ في بغداد وقتاً أطول من معظم أصدقائه. ومع زيادة عدد القوات الأمريكية في بغداد إلى حدها الأقصى، عبَر الحدود السورية في النهاية بسبب المعارك الضارية في

حي الكرادة الذي يقيم فيه بوسط بغداد. وقد نشر على الإنترنت قبل رحيله روايته المخيفة لكيفية اضطراره لحمل السلاح في نهاية الأمر من أجل البقاء على قيد الحياة:

«الساعة الآن الثالثة صباحاً، تدوي حولي أصوات مدافع الهاون وصواريخ الكاتيوشا، والأمر المؤكد لدي هو أن المسلحين يجوبون المدينة ويقتلون بلا رحمة، وبجواري الآن وأنا أكتب بندقيتي روسية الصنع الجاهزة للإطلاق. وتنتظر في حقيبة الكاميرا أعداد كبيرة من الرصاصات؛ وأتمنى ألا أضطر إلى استخدامها. الفوضى منتشرة بالخارج؛ وتجري الكثير من عمليات القتل ـ الكثير جداً. وأعداد القتلى كبيرة والأحياء ينتظرون دورهم، وقد كان الأمر أشبه بمشهد سينمائي يبحث كل فرد فيه عن دور يلعبه».

لم يشعر نزار حسين بالراحة وهو يلعب دور اللاجئ بعدما اضطر إلى مغادرة البلاد، ورفض التسجيل بمكتب الأمم المتحدة في دمشق، فقد كان يخطط للعودة في النهاية.

أصبح سدس العراقيين تقريباً لاجئين أو مشردين، وهو العدد الذي يعادل ـ بالنسبة لتعداد السكان في الولايات المتحدة ـ خمسين مليوناً من الرجال والنساء والأطفال.

كان غياب هذا العدد يعيد تشكيل وجه العراق ويغير سياسات البلدان التي انتقلوا إليها. وأعتقد أن معرفة سبب رحيلهم وسبب استهدافهم سيؤدي لفهم ما يلزم لإعادتهم. وقد استمعت في الأماكن الآمنة نسبياً ـ في المقاهي وعلى الحصير في غرف مستأجرة خالية من الأثاث، وفي الملاهي الليلية ـ لشهادات تروي ما حدث لهم. وقد حصلت على مئات القصص، إذ إن الجميع لديهم روايات عن الخطف والتعذيب والابتزاز والاغتصاب والتهديد بالقتل مما دفعهم للهرب إنقاذاً لحياتهم. وقد سجل مدون عراقي آلام الرحيل عندما كتب: «هذا هو سبب مغادرتي للعراق، لا لجرم ارتكبته ولكن لأني سني. . . . وقد دأب صديق لي على توبيخي وعلى تذكيري بما يجبُ عليّ من حب لهذا البلد، بلد آبائي حيث نشأت وترعرعت؛ وقد دأب على تذكيري بواجب الامتنان لهذا الوطن الذي منحني كل شيء. ودائماً ما كنت أقول له الجملة ذاتها: العراق الذي نعرفه أنا وأنت لم يعد موجوداً، وما تبقى منه لا أريده».

يدور أحد الأسئلة التي يطرحها هذا الكتاب حول مدى تحول هذا «التصحيح للأوضاع» إلى أمر ممكن أو حتى مرغوب فيه لدى الحكومة في بغداد. ومع تطلع المنفيين لبادرة تعكس اهتمام الحكومة بمحنتهم، لم يكن التسجيل لدى وزارة المهجرين كافياً لطمأنتهم. وقد أنفقت الوزارة التي تعاني من نقص في التمويل والموظفين موازنتها لإعادة توطين النازحين داخلياً في صيف ٢٠٠٩م. وقد تم تعليق برنامج الحكومة لعودة المنفيين على نطاق واسع.

يطرح اللاجئون أسئلة أساسية حول هوية العراق، وهو ما يجعل عودة المنفيين أكثر من إجراء رمزي للمصالحة: فهي ستمثل قراراً جوهرياً حول هوية العراق إقليمياً. فإذا عاد المنفيون وازدهروا، عندها يمكن لدولة علمانية حديثة تأكيد نفسها كبديل للفصائل الطائفية المتحاربة، وكي يحدث ذلك، ينبغي إنهاء التراجع السُّنِّي.

في تلك الأثناء، تتحمل دول الجوار العراقي الأكثر فقراً ما خلفته حرباً يعارضونها، وبينما لا تستطيع سوريا إجراء إحصاء دقيق لأعداد اللاجئين العراقيين الذين تعج بهم المدارس والمستشفيات والذين تسببوا في إرهاق النسيج الاجتماعي للبلاد، تُقدر الدوائر الحكومية التكلفة السنوية الإضافية اللازمة لدعم اللاجئين العراقيين بمليار دولار. والعراقيون بعبورهم الحدود السورية قد تخلصوا من جحيم حياتهم السابقة، ليكتشفوا سريعاً جحيماً من نوع آخر. فالسلطات السورية عند الحدود تختم جوازات سفرهم بعبارة «ممنوع العمل» بالعربية والإنجليزية. وحتى لو سمحت السلطات السورية بالعمل بشكل قانوني، فليس هناك سوى القليل من الوظائف لأن معدلات البطالة في سوريا تصل إلى ٢٥ في المائة.

أنحى الأردنيون باللائمة على الوافدين الجدد في ارتفاع الأسعار وازدحام المدارس وتضخم سوق الإسكان، فلم يعد أصحاب الطبقة الوسطى في الأردن يجدون شققاً معقولة الأسعار، كما ضاعف هؤلاء الوافدون الجدد من أزمة المياه التي تخنق البلاد كل صيف، في بلد لا تكاد مياهه تكفي أصحاب البلد أنفسهم.

كان الأردن على الدوام ملاذاً للعراقيين طوال حكم صدام، وأثناء

حرب الخليج عام ١٩٩١م عَبَرَ الحدود الأردنية أكثر من مليون لاجئ ما بين عمال مصريين وفلسطينيين، بالإضافة إلى الناجين من محاولة الثورة على صدام، تلك المحاولة التي استجاب فيها بعض العراقيين لدعوة الرئيس الأمريكي للثورة على صدام، وقد قام الحرس الجمهوري ـ وهو قوة لم يدمرها الجيش الأمريكي عندما انسحب من العراق ـ بتصفية المشاركين في هذه المحاولة وتعقب الفارين منهم.

أحب الأردنيون صدام ـ لذا فضّل اللاجئون العراقيون البقاء بعيداً عن الأنظار ـ وكان صدام يتصدر استطلاعات الرأي حتى بعد موته متفوقاً على أسامة بن لادن. وكان يغدق على الصحفيين المحليين بالأموال والسيارات ليضمن لنفسه تغطية متميزة في الصحف الأردنية. وفي المجمل كانت علاقات صدام بالأردن جيدة، والأردن بلد غالبية سكانه من السُّنَّة. وفي التسعينيات قام صدام بضخ نفط مجاني لإنعاش الاقتصاد الأردني، وهو ما خفف من أعباء دعم اللاجئين العراقيين آنذاك. والآن لم يعد صدام موجوداً والأردن ليس لديها ما تدعم به الموجة الجديدة من اللاجئين الذين ينتمي أغلبهم للسُّنَّة والفارين من البلد المجاور الذي سيطر عليه لأول مرة في التاريخ شيعة العراق العرب.

لم يكن النزوح الجديد هو السرد الذي أرادت إدارة بوش عرضه أو الاعتراف به، وقد بقي مجهولاً لمعظم بلدان العالم. وقد كانت الخطة الأمنية الأمريكية المعروفة بزيادة القوات قصة نجاح أمريكية، لكنها لم تكن بنفس الأهمية لأولئك الذين أجبروا على الخروج من منازلهم وأحيائهم في صراع على السلطة جعل من التشريد والنفي أحد أسلحته في تصفية خصومه. وقد غادر من العراقيين في عام ٢٠٠٧م عدد أكبر ممن غادروا في ٢٠٠٦م، العام الذي جرت فيه زيادة القوات. وكانت المنظمة الدولية للهجرة وهي إحدى الوكالات العاملة في العراق والتابعة للأمم المتحدة تتتبع عمليات التشريد التي جرت على نطاق واسع في عام ٢٠٠٧م؛ ووجدت أن التنقل داخل البلاد قد زاد بمعامل مقداره ٢٠ درجة. ولم تستطع القوات الأمريكية الإضافية ـ البالغ عددها ثلاثين ألفاً والتي تم نشرها في بغداد ـ الإسهام في إعادة المنفيين خاصة مع وصول المصالحة السياسية التي كانت على أعلى مستويات الحكومة العراقية إلى طريق مسدود؛ واستمرار العنف الدموي في أرض الواقع نتيجة للانقسام السُّنِّي الشيعي.

كان الوحيدون الذين يعودون إلى البلاد بشكل منتظم هم المقاتلون السُّنَّة أو رجال الميليشيات الشيعة. وكانوا يعبرون الحدود بحرية للراحة والاستجمام. وقد قابلت عدداً منهم في دمشق وكانوا يتسمون بالصلابة ويثيرون الريبة ويعرِّفون أنفسهم كقوميين أو إسلاميين أو كلا الوصفين. وهم أيضاً عملانيون، فقد أرادوا إعادة توطين الزوجات والأطفال في مكان آمن يوفر تعليماً يمكن الاعتماد عليه. وقد قابلت رجلين عراقيين في دمشق، أحدهما مزارع كان يمتلك قطعة كبيرة من الأرض الزراعية على أطراف بغداد، والآخر مهندس حكومي سابق لدى وزارة الصناعة، وهما صديقان منذ زمن بعيد وانضموا معاً لمجموعات المقاومة السُّنِّيَّة عندما تقدمت الدبابات الأمريكية نحو بغداد عام ٢٠٠٣م، وعندما قابلتهم كانوا يمضون بضعة أسابيع في سوريا للراحة. وقد أخبرني المهندس قائلاً: «لقد أتينا إلى هنا للابتعاد عن الضغط»، كما أخبرني أنه سرعان ما سيعود ليواصل القتال.

كانت دمشق كذلك ملاذاً لرجال الميليشيات الشيعة، وقد افتتح المرجع الشيعي الأصولي مقتدى الصدر الذي يتزعم أكبر ميلشيا في العراق مكتباً فرعياً في دمشق فأصبحت المدينة تعج في أغلب الأوقات برجال الميلشيات الشيعة الذين يصلون وبحوزتهم بعض الأموال لقضاء عطلة الصيف في عدة أسابيع. لدى دمشق الكثير لتقدمه للشباب المسلح الذي أرهقته المعارك. كان الشباب يصلون على الحافلات الكبيرة نفسها ـ فضية اللون ـ التي تقل المسافرين العراقيين المرهقين بحقائبهم المكتظة بالملابس إلى ضواحي دمشق. وقد كان اللاجئون الدائمون يخشون هؤلاء الشباب الذين ينتقلون ذهاباً وإياباً بأمتعة خفيفة وثقة ذاتية تميزهم عن الآخرين.

يسكن العديد من العراقيين في الضواحي النائية عن العاصمة السورية، الأمر الذي جعل من الصعب التمييز بين هذه الضواحي وضواحي بغداد. وقد أصبح الطرف الجنوبي من دمشق يعرف باسم «بغداد الصغرى» حيث تجتمع أعداد من الرجال في مطاعم بديلة تتألف من قاعة واحدة لتناول أطباق ممتلئة بالأرز ولحم الضأن. وتحمل هذه المحال أسماءً ترتبط بالحياة التي تركوها خلفهم، فنجد إحدى اللافتات باسم «الفلوجة» في إشارة إلى المدينة السُّنِّيَّة الواقعة في غرب العراق، والتي تشتهر أيضاً بتقديم أفضل أنواع الكباب المصنوع من لحم الضأن في العراق. ويُعِدُّ الطباخون الطعام

وفقاً للطريقة العراقية مع إضافة كميات من الدهون البيضاء اللامعة لقطع اللحم قبل تقليب المزيج فوق فرن طيني. ومع أن الزبائن كانوا يتحدثون بصوت منخفض، لكن أذني لم تكن لتخطئ اللهجة العراقية القوية التي كانوا يتحدثون بها.

يقع على مسافة أبعد جهة الجنوب من دمشق حي عراقي آخر نشأ حول ضريح السيدة زينب، حفيدة النبي محمد. فمنذ أربعة عشر قرناً قُتل الإمام الحسين شقيق السيدة زينب في كربلاء - التي تقع الآن في جنوب العراق - على يد جيش أتى من الكوفة وسط العراق بأمرٍ من الخليفة القوي الذي اتخذ من دمشق مقرًّا له. وتعتبر المعركة - واستشهاد الحسين فيها - من معالم الخلاف التاريخي بين السُّنَّة والشيعة. كما ترتبط هذه المعركة بطقوس متوارثة عبر الزمن تستعيد أجواء الحزن والندم والتحسر على خذلان الحسين. وتشكل هذه الطقوس أساس التقاليد الدينية الشيعية. وقد أصبح ضريح السيدة زينب وجهة للزوار الشيعة لعدة قرون.

يقع مرقد السيدة زينب داخل الضريح في غرفة واسعة مفروشة بالسجاد تتخللها أعمدة رخامية، ويُعتقد أن رفاتها في صندوق مزخرف كبير مصنوع من الفضة. وعندما زرت الضريح كان الزوار الشيعة يصلون بخشوع فرادى وجماعات، أو يجلسون لساعات في الغرفة المكيفة المفروشة بالسجاد. وكانت النساء تتعاقب على الاقتراب من الصندوق الفضي والبكاء عنده، مرددين الصلوات في تناغم غنائي حزناً على معاناة السيدة زينب ومعاناتهم.

لسنوات عديدة كانت حركة السياحة الدينية تأتي في المقام الأول من شيعة إيران، لكن ذلك قد تغير الآن مع هيمنة شيعة العراق على المواكب الدينية والاحتفالات في المنطقة المحيطة بالضريح والتي تعج شوارعها بالحافلات العراقية - ذات لوحات الترخيص الحمراء المميزة -، كما تباع الأعلام العراقية في المحلات الواقعة على جوانب الطرقات المؤدية إلى الضريح، وقد استغل بعض الصبية العراقيين هذه الأعلام في عمليات التسول.

يفتقد الكثير من المنفيين العراقيين المهارات التي تبقيهم على قيد الحياة، فقد كانوا معلمين وموظفين بالمصالح الحكومية في بغداد ولم

يعتادوا على أعمال يدوية من جنس تبييض الجدران، وليس لديهم القدرة على تحمل العمل في المصانع لمدة اثنتي عشرة ساعة. أما الأطفال فقد توفرت لهم فرص أفضل للعمل في الاقتصاد الخفي بعد التسرب من التعليم، وكانت أعمالهم تتركز في بيع بطاقات الهواتف أو خدمة مدخني النرجيلة في المطاعم المنتشرة بالشوارع.

مع ذلك كانت العائلات التي لديها أطفال تمر بأوقات عصيبة وذلك لأنها كانت تحتاج لشقق أكبر تكلفها أموالاً أكثر فضلاً عن المعاناة التي تتكبدها من أجل التعليم. فالقبول بالمدارس السورية يتطلب قدراً من الصبر، حيث يتم الحصول على التصاريح المطلوبة من ثلاث وزارات على الأقل، الأمر الذي يستغرق عدة أيام من الانتظار في طوابير للحصول على التصريح اللازم، فضلاً عما يتكبده الآباء من مصروفات إضافية لشراء الزي المدرسي والكتب الدراسية عند إلحاق الأطفال بنظام التعليم السوري. ورغم ذلك قد لا تتمكن الأسرة من إلحاق أبنائها بالمدارس السورية في حالة تجاهلها إحضار الشهادات الدراسية عند حزم أمتعتها على عجل لمغادرة البلاد. وقد حمل معظم العراقيين حياتهم الماضية في أكياس بلاستيكية وضعوا فيها صكوك ملكية المنازل والشهادات الدراسية وشهادات الخبرة وشهادات الميلاد والصور الفوتوغرافية.

كانت الحياة صعبة تقريباً على كافة المنفيين في دمشق، لكنها كانت أصعب على النساء اللاتي لديهن أطفال وليس لديهن أزواج. من هؤلاء النسوة أم نور التي غادرت العراق بعد أن هجرها زوجها وقامت الميلشيات الشيعية ـ التي سيطرت على الحي الذي كانت تسكن فيه ـ بحرقها بمادة حمضية. وما جعلها هدفاً للتطهير الطائفي هو أنها كانت سنية متزوجة من شيعي. ولم تكن الزيجات المختلطة بين السُّنَّة والشيعة مستغربة بين أبناء الطبقة المثقفة التي كانت تسكن المناطق الحضرية من بغداد أثناء حكم صدام. وفي واقع الأمر، لم يستخدم مصطلح **الزيجات المختلطة** إلا بعد عام ٢٠٠٣م، عندما تبنى العراقيون الهويات الطائفية بشكل كبير، وهذا النزوع إلى تبني الهويات الطائفية أدى غالباً إلى تمزيق العائلات، وكانت العواقب أصعب بالنسبة للنساء. وانهارت الأعراف والتقاليد الحاكمة للثقافة عندما قوبلت الزوجات والأرامل في الزيجات المختلطة بالرفض من

عائلاتهن وأقارب أزواجهن لأنهن تزوجن من طائفة أخرى. الأمر الذي أجبر النساء ـ بعد هجرهن وظلم النظام الاجتماعي لهن ـ على القيام وحدهن بحماية أنفسهن ورعاية أطفالهن.

عندما وصلت أم نور أول مرة إلى دمشق مع طفليها، عثرت سريعاً على وظيفة في صالون للتجميل مع مصففة شعر عراقية افتتحت محلاً للعراقيين المنفيين. وكان صالون التجميل عبارة عن غطاء لنشاط الدعارة، فقد كانت الدعارة هي الحل الأخير للنساء اللاتي ليس لديهن شيء آخر ليقدمنه. وكان من السهل التخلي عن الأعراف الاجتماعية السائدة في بغداد في ظل الفقر وعدم معرفة أحد بها في دمشق. وعندما وصلت أم نور إلى دمشق أول مرة، كانت ممارسة الجنس تعرض عليها بطريقة فجة في الشوارع، ثم انتهى بها الأمر إلى العمل في الملاهي الليلية التي تعمل حتى أوقات متأخرة.

كانت ابنة أم نور لا تزال في المدرسة بفضل ما تكسبه أمها من عملها الليلي. وتعلق على ذلك أم نور قائلة: «ابنتي، لا أدعها تختلط بالزبائن، وأخبرها أن هذا العمل سيئ، وهي لا تعلم أني أعمل بالملاهي الليلية».

رأيت أثناء خروجي من شقة أم نور صورة صغيرة لصدام حسين أسفل التلفاز، كان فيها صدام مبتسماً، وتلك هي الصورة الوحيدة التي أحضرتها أم نور معها من العراق.

كان العديد من العراقيين في المنفى يخشون العودة إلى الوطن بشدة، وكانت الشقق الآمنة في دمشق ـ حتى وإن كان الهواء لا يدخلها ـ هي المكان المفضل لمحو ذكريات محنتهم الرهيبة التي كشفت الجانب المظلم من الطبيعة البشرية. ومن وصلوا إلى دمشق بأضرار أقل أصبحوا يعانون من الاكتئاب لأنهم اتخذوا قرارات في دمشق من شأنها أن تلطخ حياتهم للأبد ويستحيل معها العودة إلى الوطن.

أما الباقون فلديهم العديد من الأسباب التي تمنعهم من العودة، فالسُّنَّة ـ الذين بقوا على اتصال بأقارب لهم في الوطن لازالوا يعانون الحرمان من الأمن والاستبعاد من السلطة ـ ينتظرون أن تُظهر الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة بوادر المصالحة السياسية، في حين ينتظر العراقيون الذين عملوا مع الأمريكان اختفاء قوائم القتل. وينتظر العلمانيون العراقيون ضمانات تؤكد أن

البلاد لن تصبح دولة إسلامية، وينتظر أصحاب الزيجات المختلطة أن يصبح زواج السُّنَّة من الشيعة أمر آمن. ويعتقد النصارى والصابئة واليزيديون الذين يمثلون الأقلية العراقية غير المسلمة أن القادة الدينيين المتشددين في العراق يريدون تطهير البلاد من غير المسلمين. ويعتقد الجميع أن العراق قد تحول إلى بلد لم يعودوا يعرفونه. وهم ينتظرون معرفة ما إذا كان العراق سيعود كما كان أم سيُمحى إلى الأبد.

قليل من تلك الأمور ورد ذكرها في خطاب أوباما بجامعة القاهرة، وهي أمور تخلو منها المناقشات الأمريكية حول العراق. وبدلاً من ذلك أخبرنا أنفسنا بقصة مختلفة تنص على أن العراق كان في حالة من الفوضى تجعله على حافة الانهيار وكادت أمريكا أن تخسر الحرب عندها تَدَخَّلَ أحد الجنرالات في اللحظة الأخيرة وقام بنشر القوات والعتاد الأمريكي لحل المشكلة وفقاً للطريقة الأمريكية في إنجاز الأمور. وأطلق على هذه القصة اسم لطيف يدل على القوة «زيادة القوات». ومع تحمسنا لهذه الرواية للأحداث ـ التي جعلت القصة عن طريق الخطأ تتحدث عنّا وليس عن العراق ـ أغفلنا حقيقة وجود زيادة أخرى في الاتجاه المعاكس: اتجاه الخروج من العراق. فقد كانت قصة «الزيادة» بالنسبة للعراقيين قصة رحيل، وليست قصة وصول قوات أمريكية إضافية، وهي القصة التي لم نتطرق إليها.

في عام ٢٠٠٩م ـ ولأول مرة منذ اندلاع الحرب ـ اعترفت دائرة حكومية أمريكية بوجود أزمة لاجئين. وعندما أعلن الرئيس باراك أوباما عن جدول زمني لانسحاب القوات الأمريكية من العراق وصف اللاجئين بأنهم يمثلون «تحدٍ لاستقرار المنطقة». وأعاد إلى الأذهان صور الفلسطينيين والأفغان الثائرين الذين أخرجوا من مخيمات اللاجئين جيلاً يحمل مشاعر الغضب والانتقام، وقد ظلت هذه المشاعر متأججة في المنطقة حتى يومنا هذا.

ويمثل اللاجئون العراقيون مشكلة لكنهم يمثلون في الوقت ذاته مورداً من مثقفي الطبقة الوسطى التي تتوق لعراق قيمته من قيمة مهاراتهم ويمثل المستقبل لأطفالهم. وبدون التوصل لحل، ستبقى الأوضاع في العراق غير مستقرة ولن تستطيع إدارة أوباما سحب القوات الأمريكية من المنطقة بطريقة مسؤولة.

الرحلة التي قطعتها في هذا الكتاب هي رحلة إلى عراق ظاهري، عراق موجود خارج حدوده، في مجتمعات اللاجئين بجميع أنحاء المنطقة. حيث يرتبط العراقيون بوطنهم عبر التكنولوجيا ـ التي حرمهم منها صدام وأتاحها لهم الغزو الأمريكي ـ وحيث يمتدُ عراقٌ كبيرٌ عبر غرف الدردشة وعبر الهواتف الخلوية وكاميرات الويب والمدونات. وحيث يُجري العراقيون المنفيون اتصالاتهم اليومية في انتظار إشارة تفيد بأن وقت العودة إلى الوطن قد حان. وهذا الانتظار تشترك فيه معهم المنطقة بأسرها.

الفصل الأول

انبـــاع الوطـــن

تمتلئ دمشق بالحنين لأمجادها القديمة، وقد أطلق الشعراء عليها اسم «فردوس الشرق» و«عروس المدائن». وقد كانت دمشق في القرنين السابع والثامن الميلادي عاصمة الدولة الأموية التي كانت تتولى الخلافة الإسلامية حينذاك والتي امتدت رقعتها من إسبانيا إلى الهند. ودمشق وفقاً للأساطير المسيحية هي جنة عدن الحقيقية؛ ووفقاً لروايات في التاريخ الإسلامي هي المكان الذي قَتَلَ فيه قابيل شقيقه هابيل. ويزعم البعض أن دمشق هي أقدم مدينة مأهولة على وجه الأرض، وهو ما أشار إليه الكاتب مارك توين في كتابه **أبرياء في الخارج**، الذي كتبه بعد زيارته للمدينة في ستينيات القرن التاسع عشر الميلادي ويقول فيه: «لم يقع حدث معروف في العالم إلا وكانت دمشق حاضرة لتتلقى أخباره. ويمكنك العودة إلى أي مرحلة تشاء في الماضي السحيق، لتجد دمشق موجودة على الدوام. وقد شهدت المدينة أطلال ألف إمبراطورية، وستشهد نهاية ألف إمبراطورية أخرى قبل أن يطويها التاريخ». وليست الحرب في العراق ونزوح اللاجئين إليها سوى فصل آخر في تاريخ المدينة الطويل.

تعتبر دمشق الحديثة ـ التي تمتد عبر سهل يقع عند سفح جبل قاسيون ـ جنة بالية في الوقت الحالي رغم شوارعها الواسعة المصممة على الطراز الفرنسي وطرقاتها المحاطة بالأشجار. وتمتاز دمشق على الصعيد الثقافي بأنها مدينة علمانية تشتهر بسماحتها حيث يحتشد الناس في الملاهي الليلية كما يحتشدون في صلاة الجمعة. وتزدحم شوارع دمشق في عطلات نهاية الأسبوع بأناس يرتدون أحدث خطوط الموضة الغربية، دون فصل للرجال عن النساء. وكنت قد اعتدت على ارتداء عباءتي الطويلة السوداء وغطاء رأسي من كثرة تنقلي في بلدان المنطقة، لكنني لم أحتج إليهما أبداً في سوريا.

النظام الحاكم في سوريا الآن هو النظام البعثي الوحيد المتبقي، الأمر الذي يعتبر من قبيل المفارقة بالنظر إلى لجوء أعداد كبيرة من العراقيين في نهاية المطاف إلى سوريا رغم معاناتهم لعقود من ظلم نظام صدام وحزب البعث، وربما يكون هذا راجعاً إلى عدم إغلاق الحدود السورية وعدم إجبار العراقيين على الدخول في مخيمات للاجئين. ولم تكن الدول العربية ومن بينها سوريا تنظر إلى العراقيين بوصفهم لاجئين سياسيين رسميين، كما لم تكن سوريا من بين البلدان الموقعة على اتفاقية عام ١٩٥١م الخاصة بوضع اللاجئين. وفي الدول العربية دائماً ما يُعامل المنفيين العراقيين بوصفهم «ضيوفاً» أو «زواراً» يتمتعون بنفس حقوق السائحين، فكان للعراقيين حرية الحصول على أماكن للإقامة بالقدر الذي تسمح به إمكاناتهم المادية، والتي عادة ما تكون شقة في إحدى الضواحي الفقيرة المحيطة بالعاصمة. وقد أعيد في المنفى إحياء الروابط العائلية على نحو مشابه للبناء الاجتماعي القائم قبل الاضطرار لمغادرة بغداد وذلك لما لهذه الروابط من أهمية في ثقافة الشرق الأوسط.

في وقت مبكر من ربيع عام ٢٠٠٧م، قضيت ليلةً مع مجموعة من الممثلين العراقيين في قاعة رقص مستأجرة في دمشق، كانت القاعة الكبيرة فاخرة ودالةً على الثراء الفاحش الذي انعكس في الديكورات الداخلية المماثلة لنمط الديكور المتبع في عهد صدام حسين وهو النمط ذاته الذي سار عليه قادة العراق الجدد. تلحظ وأنت في القاعة تناقضاً صارخاً بين الثريات المصنوعة من الكريستال والمرايا الضخمة المزخرفة وورق الجدران الأحمر المخملي والكراسي المغطاة بالحرير وبين الظروف المعيشية المدقعة للعديد من الممثلين العراقيين الذين تضمهم هذه القاعة، فقد كانوا لاجئين ومنفيين وبلا مأوى غير أنهم كانوا في هذه الليلة على الأقل يعيدون رسم عالم مفقود.

قدِمت لمشاهدة تصوير المسلسل الكوميدي «انباع الوطن» الذي يتألف من ثلاثين حلقة تمثل نقداً لاذعاً واسع النطاق يسخر من الحكومة العراقية الجديدة، والذي كان مخططاً له أن يُعرض في شهر رمضان في وقت لاحق من ذلك العام. وشهر رمضان الكريم هو وقت يصوم فيه المسلمون خلال النهار ويجتمعون على طعام الإفطار عند غروب الشمس مع أفراد العائلة

والأصدقاء. وفي الوقت الحاضر يجلس المشاهدون في هذا الشهر لمشاهدة التلفاز لعدة ساعات بعد الإفطار وهي الفترة التي تحقق أعلى نسبة مشاهدة في العالم الإسلامي. ويتناسب هذا التوقيت مع الجمهور المستهدف في العراق بشكل خاص حيث يبقى الناس في منازلهم بعد حلول الظلام بسبب حظر التجوال المستمر والعنف المنتشر أثناء الليل في خريف ٢٠٠٧م. وتميل المسلسلات الرمضانية الشعبية إلى الدراما العائلية الواسعة أكثر قليلاً من المسلسلات الخفيفة. وقد كان المسرح في العالم العربي في كثير من الأحيان هو وسيلة التعبير عن الرفض، وكانت الأنظمة المستبدة تتغاضى عن ذلك لأن رسالة المسرح لا تصل إلا للحضور من النخبة غير أن المحطات الفضائية الخاصة غير الخاضعة للرقابة الحكومية بدأت تغير قواعد اللعبة حيث أصبحت عروض المسرح السياسي الهدامة التي كانت متاحة فقط لجمهور النخبة تصل إلى جموع المشاهدين وهو ما قد يجعل الأعمال الفنية تمثل خطراً على الأنظمة الحاكمة.

كانت البروفات في دمشق تبدأ بعد منتصف الليل كي لا تزعج السوريين الذين يتناولون عشاءهم في وقت متأخر بالمطعم المجاور. كما أن إيجار القاعة يكون أرخص في الأوقات المتأخرة من الليل وهذه الأوقات تتناسب أيضاً مع الروتين اليومي للمشاركين، فقد كان طاقم العمل بالكامل من اللاجئين العراقيين الذين يعملون في أوقات متأخرة من الليل لعدم وجود ما يستيقظون لأجله في الصباح.

كان الممثلون المشاركون من الوجوه الأكثر شهرة في العراق والذين اضطروا للخروج من بغداد لاعتبار التمثيل مخالفاً لتعاليم الدين الإسلامي من وجهة نظر المتشددين. وقد كان رحيلهم بمثابة فصل آخر من المأساة التي حلت بالعراق وتمثلت في ضياع الإرث الثقافي. وفي هذا الجو المر عاشت النخب الفنية في مجتمع المنفى.

إبان الغزو الأمريكي للعراق، كان يعمل في بغداد وحدها أكثر من عشرين مسرحاً. وكان المسرح العراقي قد تطور ليصبح مؤسسة ثقافية خلال حكم صدام وقد بُنيت سمعة المسرح العراقي على الكوميديا، ولكن مع نهاية حكم صدام اتخذ المسرح توجهاً أكثر قتامة. اكتسب العراقيون بعد الاحتلال

الأمريكي للعراق حريات جديدة في التأليف والتمثيل والأداء والغناء، إلا أن هذه الحريات كانت مشوبة بالمخاطر التي تصل في بعض الأحيان إلى القتل على أيدي الميليشيات الدينية.

ويتمتع كافة الممثلين المشاركين في «انباع الوطن» بتاريخ فني طويل في التلفزيون والمسرح العراقيين، وعلى رأسهم الفنان راسم الجُميلي البالغ من العمر ٦٩ عاماً، وهو رجل أصلع سمين، كان يرتدي زياً عسكرياً ناصع البياض وكبيراً بحجم الخيمة، ويحمل على صدره عدداً كبيراً من النياشين العسكرية. وتميز الفنان راسم الجُميلي بأنه كوميدي بطبيعته وبابتسامته العريضة وشاربه القصير الكثيف بما فيه من خصلات شعر بيضاء ناعمة. وشارك معه في بطولة المسلسل الفنان زهير رشيد الذي يعد من الوجوه المألوفة للمشاهد العراقي. وقد قام بلعب دور امرأة طولها ستة أقدام في عرض كوميدي تم بثه عبر شاشات التلفزيون العراقي قبل الاحتلال الأمريكي بقليل.

وكانت الفنانة العراقية ميس كمر - التي تعد «رمزاً للإغراء» بشعرها الذهبي ومكياج عيونها الثقيل - هي المرأة الوحيدة التي أسند لها دور بارز في هذا العمل الفني. وقد اشتهرت بعملها في الإعلانات التلفزيونية، وكانت ترتدي في هذا العمل ملابس بيضاء ضيقة وقصيرة وحذاء جلدياً أسود طويلاً يصل إلى الركبة، وكانت أشبه في ذلك بالمرأة المسيطرة؛ وكان قوامها الممتلئ المثير يتناسب مع ثقافة تمتزج فيها العلاقات الغرامية بتناول الطعام.

التقيت بميس قبل ذلك بعام في دمشق في كواليس عمل فني آخر بعنوان «هوم سك» (homesick) أو الحنين للوطن. وقد ظهرت في المشهد الافتتاحي الذي كان يصور ممثلاً قصيراً جداً فقد سرواله وأخذ يمشي على خشبة المسرح بلباس داخلي أحمر وحذاء رياضي. وكان الجمهور العراقي يعود ليملأ المسرح ليلة بعد أخرى، وكنت أسمع من حولي أصوات بكاء الجمهور الذي يشعر بالحنين إلى الوطن في ظلام المسرح. ومع أنهم كانوا يضحكون خلال أحداث المسرحية، إلا أنهم كانوا يبكون دائماً في المشهد الختامي الذي يعود فيه الجميع إلى بغداد.

منذ ذلك الحين ازداد شعور القلق والغضب بين العراقيين في المنفى، فقد كان هؤلاء محصورين بين ثلاثة نيران: الأولى: عدم القدرة على تحمل تكاليف الإقامة في دمشق، والثانية: استمرار الخطر الذي يحول دون العودة إلى العراق والثالثة: عدم رغبة أي بلد آخر في استضافتهم، وهي المشاعر الحزينة التي انعكست في مسلسل «انباع الوطن».

يحظر القانون العراقي بث صور ساخرة لمسؤولين حكوميين، وهي سياسة بقيت منذ حكم صدام، لكن التكنولوجيا والساحة الإعلامية قد تغيرتا منذ عهد صدام، وخلال العام الأول من الاحتلال الأمريكي أصبحت صحون الاستقبال الفضائية تعلو معظم المنازل العراقية، ولم يعد بمقدور الحكومة العراقية التحكم فيما يشاهده المواطنون، وخاصة مع بث هذه البرامج الفضائية من خارج العراق.

تم إنتاج مسلسل «انباع الوطن» برعاية قناة الشرقية الفضائية التي تتخذ من دبي مقراً لها وهو ما يمثل تحدياً بالنسبة للتلفزيون العراقي الحكومي فيما يتعلق بالاستحواذ على المشاهدين في الداخل والخارج. ومالك هذه القناة هو سعد بزاز الذي تعلم صناعة التلفزيون في عهد صدام حسين وكان يرأس الإذاعة والتلفزيون الخاضعين للدولة في العراق، ثم اختلف مع صدام عام ١٩٩٢م وغادر العراق. وقد عاد إلى العراق بمجرد وصول الأمريكان ليفتتح قناة الشرقية، وهي أول قناة عراقية فضائية خاصة. واكتسبت الشرقية سمعة بين المسؤولين الحكوميين الشيعة باعتبارها قناة «سُنِّيَّة» بسبب محتواها السياسي ومستثمريها السعوديين. وقد ارتدى مذيعوها ملابس سوداء يوم تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحق صدام مما جعل الحكومة توقف القناة وتغلق مكاتبها، ولكن هيهات أن تُنفى قناة تلفزيونية فضائية؛ فقد نقل بزاز عملياته إلى دبي وواصل التنافس على ولاء المشاهدين العراقيين. وغالباً ما كانت الشرقية تفوز بما تقدمه من أعمال كوميدية بارعة ومسابقات ومسلسلات واقعية والأهم من ذلك تقديمها رؤية للقومية العراقية التي تنادي بهوية عراقية أكثر شمولاً من الهويات الطائفية المتطرفة التي يروج لها السياسيون في بغداد.

اجتمع أكثر من مائة شخص في قاعة المسرح بدمشق، وكان الممثلون

سعداء بالتجمع والعمل معاً مرة أخرى، وقد كان هذا العمل بالنسبة للبعض هو أول عمل مدفوع الأجر يحصل عليه منذ الفرار من الوطن. وقد اصطحب بعضهم أفراد أسرته إلى قاعة المسرح فيما يشبه لقاء أبناء الدفعة الدراسية الواحدة بعد افتراقهم. كان أحمد شكري العقيدي المخرج المنفذ لهذا العمل رجل نشيط يرتدي سترة جلدية وسلسلة ذهبية، وكان في منتصف العقد الرابع من العمر وذو وجه وسيم ممتلئ وهالات سوداء تحت عينيه. وعَرف العقيدي المسرح منذ بدايات شبابه ولم ينقطع عنه سوى فترة التجنيد الإلزامي، فوالده وعمه من رواد الدراما التلفزيونية في فترة الخمسينيات والتي تعتبر العصر الذهبي السابق لحكم صدام، وقاموا برعاية العديد من رواد التمثيل العراقي ضمن بعض برامج أكاديمية الفنون الجميلة ببغداد.

أثناء انتظارنا لبدأ العمل، أخبرني العقيدي أنه كان على خشبة المسرح ليلة ٢٠ مارس/آذار ٢٠٠٣م وهي الليلة التي بدأ فيها الغزو الأمريكي للعراق. يرى العقيدي أن الحياة انتهت عند اللحظة التي صعد فيها حارس أمن على خشبة المسرح في بغداد معلناً «لقد بدأت الحرب»، وبعدها قام الحارس بإخراج الجمهور واصطحاب الممثلين بعيداً عن خشبة المسرح ثم إلى المجهول.

يتذكر العقيدي ذلك اليوم وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلاً: «كنا نودع المسرح الذي لم نره مرة أخرى. فقد كان داخل المنطقة الخضراء وقد تركت سترتي هناك كما لو أني أرفض الاعتراف بأن الحرب قد بدأت، وكان الجميع يبكون». بعد ذلك لمع وجهه المستدير الذي يحمل علامات الحزن مرة أخرى عندما شرح لي قصة مسلسله الجديد الذي ينتقد أوجه القصور في الحكومة التي تدعمها الولايات المتحدة في بغداد.

ينتقد المسلسل حكومة المالكي وتتناول قصته وزراء الحكومة الذين لا يعرفون شيئاً عن السياسة ويعرفون كل شيء عن الفساد. وكانت الحلقات التي تمتلئ بسخرية ذكية تعد أول عمل ينتقد فيه اللاجئون العراقيون الحكومة على نطاق واسع، معبرين بذلك عن مشاعر الإحباط لدى المنفيين ولدى أعداد كبيرة من العراقيين في الداخل. وقد حقق البرنامج تواجد إضافي عبر إعادة حلقاته على اليوتيوب، وأضاف العقيدي قائلاً: «بسبب هذه الحكومة

فقدت أخي» مضيفاً أن شقيقه كان عضواً سابقاً بحزب البعث الذي كان على رأسه صدام حسين، وقد أصبح ـ كما يروي العقيدي ـ صيدلانياً بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية في التسعينيات، لكن الميلشيات الشيعية الطائفية في العراق لم تكن ترغب في وجود بعثي سابق فتم استهداف الكثير منهم وقتلهم في هجمات انتقامية بدأت في الشهر التالي للغزو الأمريكي. وقد أتت بعض كتائب القتل من طهران واستهدفت كتائب محلية مسلحة أخرى مسؤولين سابقين في الحكومة وحزب البعث والمسلمين السُّنَّة، وهي الكتائب التي كان شقيق العقيدي على إحدى قوائمهما.

لم يكن العقيدي يتعجل مغادرة العراق حتى بعد موت شقيقه، فقد عاد المسرح القومي في بغداد لفتح أبوابه في غضون أسابيع من وصول القوات الأمريكية رغم اقتصار العروض حينئذ على حفلات نهارية من حين لآخر بسبب حظر التجوال أثناء الليل. وعندما ذهب العقيدي لحضور اجتماع للممثلين في مسرح بغداد عام ٢٠٠٤م استاء بشدة من موقف تعرض له عندما كانت وزارة الثقافة في يد مسؤول ديني ويصف ذلك قائلاً: «حضر رجل من قِبل الحكومة وعلى رأسه عمامة وتحدث معنا قائلاً: أعلم أنكم من هذا المكان القذر وغير الشريف، ولكني أرحب بكم». وما أثار العقيدي هو أن صدام نفسه كان يُظهر قدراً أكبر من التسامح مع المسرح. وعلق العقيدي آماله على الانتخابات المزمع إجراؤها في عام ٢٠٠٥م، لكنه كان يعتقد في الوقت ذاته بأنه يجري وضع تعريفات للعراق الجديد. وكان العراق آخذاً في التحول إلى بلد ديني طائفي مسلح ليس به مكان للمجتمع الفني العلماني الذي شكل حياته، وهو ما دفعه في النهاية للفرار إلى دمشق بعد ذلك بعام مصطحباً معه زوجته وأطفاله الثلاثة.

بحلول ربيع ٢٠٠٧م، كان العقيدي وكتيبة الممثلين المصاحبة له على استعداد لتحويل مأساة العراق إلى عمل فني في قاعة المسرح بدمشق. وكان النقد اللاذع مباشراً وتم تصوير مشهد النزوح من العراق لإحداث تأثير كبير وساخر، وبدا المشهد هكذا: انطلق الفنان راسم الجميلي البالغ من العمر ٦٩ عاماً سريعاً بزيه العسكري الأبيض نحو مائدة مكتظة بالطعام وكانت حوله وهو يأكل من هذه الوجبة الفاخرة نساء شعورهن سوداء وملابسهن قصيرة في قاعة تم تحويلها إلى قصر. وكان راسم الجميلي يمثل دور القائد

العراقي الجديد ويحرسه رجالٌ يرتدون الزي العسكري الأمريكي المخصص لعمليات الصحراء.

ابتسم الجميلي وأشار بيده وهو جالس على عرش قصره وأخذ زجاجة كبيرة من المشروب الكحولي جوني ووكر وابتسم ابتسامة عريضة وهو مسرور وأخذ يرتشف المشروب باهظ الثمن من زجاجة مصنوعة من الكريستال ويشرب نخب الهواء، في الوقت الذي قام فيه «جنديان أمريكيان» بجر امرأة مسنة محجبة لإبعادها بعد أن حضرت أمامه.

تُظهر الصور المصاحبة للمقطع الأخير من الأغنية جموع من العراقيين يتدافعون نحو شاحنات، أبوابها الخلفية مفتوحة، وكان الرجال والنساء والأطفال يتسلقونها ويلوحون برايات بيضاء مع إثارة الشاحنات للغبار وهي تغادر باتجاه الصحراء في إشارة ساخرة إلى النزوح الجماعي المأساوي للعراقيين المتجهين إلى الحدود. وتغيرت الموسيقى إلى لحن ساخر مألوف حيث تغني مجموعة من الرجال المقطع الافتتاحي من مسلسل الأطفال: «افتح يا سمسم».

عندما عُرضت حلقات مسلسل «انباع الوطن» في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧م أحدثت صدىً فورياً داخل العراق وفي أوساط المنفيين في مختلف أنحاء المنطقة وخاصة في أوساط السُّنَّة. وحيثما ذهبت لمقابلة أحد اللاجئين العراقيين كنت أجدهم يشاهدون قناة الشرقية انتظاراً لحلقة جديدة من المسلسل، وذلك لأن البرنامج قد تجاوز كافة المحظورات القديمة ولم يعد يتقيد بأي حدود. في حلقة بعنوان «سرقة بلا حدود» كان رئيس الوزراء قلقاً على خلفية تقارير تتحدث عن قيام وزراءه بسرقة الأموال المخصصة لمشروعات التنمية، فقرر أن يسند مشروعاً لنفسه، وعندما وصل إلى موقع البناء لم يكن به أبنية فعلية وكل ما وجده هو فرقة موسيقية وشريط أحمر ليقصه.

في حلقة أخرى بعنوان «الكهرباء» تم القبض على مراسل «قناة تلفزيون الكهرباء» الوهمية لطرحه سؤالاً حول سبب اضطرار العراقيين للانتظار عشرة أعوام من أجل الحصول على كهرباء يُعتمد عليها. وقد اشتملت قصة الحلقة على فشل خطة الحكومة لبناء أكبر مولد في العالم يعمل بالمياه

المعبأة بدلاً من وقود الديزل (الذي يسهل الحصول عليه في العراق الغني بالنفط). ويذكرني هذا العمل بمسلسل سينفيلد (Seinfeld) ولكن مع رسالة سياسية قوية.

علم العراقيون بفشل الحكومة الجديدة من تلقاء أنفسهم، فقد كانوا يعيشون عواقب هذا الفشل كل يوم. وقد جذب المسلسل أنظار العراقيين لأن النص كان محشواً بالنكات والدعابات المرئية النابعة من الوعي بأعمال النهب اليومية بالعراق، ومعرفة متعمقة بالثقافة والتقاليد العراقية، وعدم احترام شامل للسلطات الجديدة في العراق.

كان من السهل التنبؤ بردة الفعل لدى أعلى المستويات الحكومية على الاستخفاف الذي انعكس في مسلسل «انباع الوطن» وذلك بتلقين فريق العمل بالكامل درساً قاسياً ليعلموا أن تقبل النقد في العراق الجديد لن يتحسن عما كان عليه الحال في العراق القديم.

كان ينبغي على الممثلين أخذ العبرة من تجربة الممثل العراقي سعد خليفة الذي كان يقيم بدمشق وشارك في كوميديا سياسية مُحَرِّضة عُرضت في العراق. كان خليفة يعيش في شقة تقع في الطابق السفلي بإحدى البنايات في اليرموك التي تتألف من منازل خراسانية وشوارع ضيقة وإيجارات رخيصة. وقد عَرَفَ كلفة المعارضة حتى وهو في ملاذه الآمن داخل شقته الصغيرة بدمشق.

كانت الغرفة الأمامية بالمنزل الذي يقطنه خليفة هي الغرفة الوحيدة المفروشة بالأثاث، أما الغرف الأخرى التي استطعت رؤيتها من فوق الأريكة المزخرفة التي كنت أجلس عليها فقد كانت خالية إلا من حصير مفروش على الأرض للنوم. وقد اشتهر خليفة داخل العراق وخارجها بوجهه الضخم الذي يحمل ظلالاً للحية رمادية وشعره المجعد الكثيف الذي دب الشيب في بعض أنحائه. وكان خليفة يلبس نعلاً بلاستيكياً في أقدامه الضخمة التي تتأرجح من فوق مقعده الوثير. ولم يكن طوله يتجاوز المتر ونصف المتر مما جعله يشتهر بقصر قامته. وبالنسبة له شخصياً كان صغر حجمه الذي استخدم كأداة هزلية على خشبة المسرح سبباً في شعوره ببعض الحزن والضعف.

لعب خليفة دور البطولة في أحد أشهر البرامج التي بثتها قناة الشرقية. كان اسم البرنامج كما أخبرني خليفة هو «الحكومات» والذي لا يحمل أي إشارات مسيئة في حد ذاته ولكن مع تغيير طفيف ماكر تسمح به اللغة العربية عند تغيير موضع التشديد قليلاً من مقطع لآخر تصبح الكلمة «الحقوا مات!» وهو تلاعب بالألفاظ يعكس فكرة البرنامج التي تقضي بأن الشخصية الرئيسية هي آخر عراقي بقي على قيد الحياة. وقد بدأت التهديدات الحقيقية بالقتل ترد إلى هاتفه الخلوي عبر الرسائل النصية (sms) بعد أسابيع قليلة من إذاعة البرنامج.

يعلق خليفة على ذلك قائلاً: «لم أكن أعرف إلى متى ستستمر هذه التهديدات» وهو يشعل سيجارة كلواز أخرى متذكراً خوفه في الأيام القليلة الأولى التي تلت إذاعة البرنامج، وأضاف: «لقد كانوا مسؤولين في الحكومة، وكانت الرسائل تأتي بلهجة تهديد وتقول: لماذا تتحدث عن الحكومة العراقية بهذه الطريقة؟ لا تعد إلى العراق!».

كان واضحاً أنه بغض النظر عن هوية مرسل التهديدات فإنه أراد إيصال رسالة أخرى مفادها: أنه قادر على الوصول إليه حتى وإن كان في المنفى. وعندها بدأ شعور خليفة بالأمان يتلاشى وأضاف قائلاً: «أرسل لي أيضاً صديق قديم يعمل مطرباً وكان مقرباً من الحكومة رسالة نصية تقول: «لا تعد إلى العراق!» لقد كانت الرسائل مثيرة للغضب في حد ذاتها لكنها طرحت سؤالاً أكثر إثارة للقلق: هل هو آمن حتى في سوريا؟

قام خليفة بتقديم شاي ثقيل لي وصبه في كؤوس زجاجية صغيرة ووضع فيه الكثير من السكر. وقد لاحظت بسروال سترته الرياضية خياطة يدوية غير متقنة لإصلاح ما به من ثقوب. وأخبرني خليفة أن زوجته وابنه قد تركاه وعادا إلى العراق بعدما أنهكتهما الحياة في المنفى وما سببته التهديدات من قلق.

كان الدور الذي لعبه خليفة في «الحقوا مات!» يسخر من الطائفية ومن صدام ومن قادة العراق الجدد. وكانت أغنية البرنامج سبباً في تلقيه لرسائل التهديد، حيث كانت تتحدث عن الحرية التي تنعم بها القطط على نغمات موسيقى الهيب هوب، وقد ظهر خليفة في الأغنية جالساً في سيارة ليموزين

طويلة وهو يضع شعراً مستعاراً مجعداً ويضع نظارة شمسية عدساتها كالنجوم.

كانت أغنية القطة (أو البزونة) ـ وهو الاسم الذي اشتهرت به ـ هجوماً مباشراً على الهوية الدينية والطائفية الجديدة في العراق. وقد اكتسبت الأغنية شهرة على يد خليفة لكنه لم يكتب كلماتها وإنما قام بذلك كاتب وصحفي بعد أن نجا بصعوبة من نقطة تفتيش للميلشيات الشيعية في بغداد بالقرب من منزله حيث تم إيقافه وضربه لأنه كان ثملاً.

أزعجه هذا الموقف وجعله يشعر بالضجر، وقبل أن يصل إلى منزله رأى قطة وتساءل قائلاً: «لماذا لست مثل هذه القطة؟» لا أحد يسأل القطط من أين أتت وما إذا كان سنية أو شيعية، ولا تحتاج القطط للبس بدلة عند الذهاب إلى اجتماعات العمل، ولذلك كتب هذه الأغنية من وجهة نظر القطة.

حقق سعد خليفة شهرة واسعة من خلال «أغنية القطة» التي تم تصويرها وأذيعت كثيراً على القنوات الفضائية العربية واليوتيوب. وقد قامت أعداد كبيرة من المنفيين العراقيين بتنزيل الأغنية واستخدامها كنغمة لهواتفهم الخلوية كما قلد أطفال العراق أداء خليفة داخل العراق وخارجها. وقد ظهر بإحدى المجلات البريطانية اللامعة التي أوردت لمحة عن المسلمين الناجحين حول العالم.

لكن برغم ما تحقق له من سمعة على المستوى الدولي، وبعد كل ما مر به، أصر على أنه لن يخوض هذا النوع من المخاطرة مرة أخرى: «عليّ التفكير في أسرتي؛ لأنه مهما نقول لن يتغير شيء في العراق. وقد عُرض عليّ تمثيل شخصية سياسية أخرى في عمل يتم تصويره بدمشق لكنني رفضت؛ لأن ذلك صعب بالنسبة لي. ودائماً ما كنا نسمع في الأخبار كلمات مثل «العراق الديمقراطي»، غير أننا وجدنا الغضب ينتاب العديد من أفراد حكومتنا لأننا نستخدم الحرية في كشف ما يحدث هناك».

كان مسلسل «انباع الوطن» هو المسلسل الساخر اللاحق لمسلسل «الحقوا مات!». وكانت الحرب الأهلية في العراق وقت إذاعة البرنامج قد انتهت لصالح الشيعة وأحكمت الحكومة سيطرتها على المعارضين وخاصة

من السُّنَّة، لكن قلق الحكومة وهشاشتها جعلاها لا تتحمل النقد اللاذع. حتى قبل إذاعة «انباع الوطن»، نشرت مواقع المسلحين الإسلاميين على الإنترنت أسماء طاقم العمل بالكامل واستهدفت قتلهم. وقد ورد في أحد المواقع ما يلي: «نريد أن نعاقبهم وننتقم لكل العراقيين منهم، وأعلم أنهم سيموتون أسرع من أي شيء، وليعلم الله أنهم قوم سوء».

ازدادت حدة التهديدات عندما قام رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي في أول زيارة تاريخية له إلى دمشق عام ٢٠٠٧م بتسليم الرئيس السوري بشار الأسد قائمة تضم ٦٥ اسماً جميعهم من الممثلين والمؤلفين الموجودين بدمشق وطلب إلقاء القبض عليهم. ويعلق أحمد العقيدي على ذلك بحزن عندما التقيت به فيما بعد قائلاً: «هذه قصة معروفة». وقد رفض الرئيس السوري إلقاء القبض عليهم، فقد كان على استعداد لحماية مجموعة من الممثلين العراقيين المعارضين وهي لفتة لم يكن ليقدمها للمعارضين السوريين.

كان زهير رشيد الذي لعب دور رئيس الوزراء قد فقد شقيقه وأحد أبنائه بالفعل حيث قُتلا في العراق. وعندما بدأت التهديدات سَجَّلَ بياناته لدى مكتب مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بدمشق، وسرعان ما تم قبول طلبه وانتقل للعيش في فنلندا. أما ميس كمر السيدة ذات الدور الرئيسي في هذا العمل فقد تعرضت هي الأخرى لمضايقات حيث قدِم إلى دمشق بعض العراقيين الذين تربطهم علاقات وثيقة بالحكومة لتحذيرها من العودة إلى العراق وأضافوا عقوبة أخرى عندما حذروها من رفض طلبها للحصول على جواز سفر عراقي جديد والذي لن تستطيع بدونه مغادرة سوريا حتى مع قبول طلبها للجوء إلى بلد آخر.

سرعان ما تدهورت صحة راسم الجميلي الذي كان يعاني من البدانة بعد إذاعة «انباع الوطن» في شهر رمضان. كان الجميلي بطل الحلقات، وبرع في الأداء الكوميدي لشخصية قائد العراق الجديد حتى أنه يعتبر الأفضل على مدار تاريخه الفني الطويل. وقد أصيب بأزمة صحية في ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠٧م نقله على أثرها صديقه أحمد العقيدي إلى إحدى مستشفيات دمشق في ليلة شتوية باردة. وكان العقيدي على يقين أنه

تعرض لهذه الأزمة «نتيجة للضغط، فقد كنا نتلقى تهديدات عبر الرسائل النصية. وقد أخبروا عائلة الجميلي في بغداد أنه لا يمكنه العودة، وأنه مطلوب». وقد توفي الجميلي بعد غيبوبة دامت يومين وانتشرت على إثر ذلك شائعات في أوساط مجتمع الممثلين العراقي بدمشق بأن الجميلي مات مسموماً، وأن فرقة قتل أرسلتها الحكومة العراقية قد وصلت أخيراً لتقتلهم جميعاً، الأمر الذي جعل معظمهم يختبئ في منزله لعدة أيام بعد وفاة الجميلي خوفاً من وجود أسمائهم ضمن قائمة الإعدام.

وما حدث بعد ذلك كان من شأنه تهدئة مخاوفهم ومفاجئتهم في الوقت ذاته. فبعد يوم واحد من وفاة الجميلي، أعلن المسؤولون في الحكومة العراقية أنهم يرونه أشهر الشخصيات العراقية، بل إن الرئيس العراقي جلال طلباني ـ الذي كان الجميلي أشبه ممثل به في الأعمال الفنية ـ قد أرسل برقية عزاء لعائلة الجميلي في بغداد. وقال عنه في رسالة بثتها وسائل الإعلام الخاضعة للدولة: «إن الفقيد كان واحداً من أعلام الفن العراقي على امتداد ما يقارب النصف قرن، وترك أثراً راسخاً من خلال أعماله المسرحية والتلفزيونية والسينمائية». فهل قبلت الحكومة العراقية النقد الموجه لها عبر حلقات «انباع الوطن»؟ وهل يعتبر ذلك علامة على انتهاء ثقافة الحرب وإمكانية عودة النقد الساخر إلى العراق؟ وقد تعهدت الحكومة العراقية في إعلان رسمي أنها «ستغطي تكاليف نقل جثمان الجميلي إلى بغداد لدفنه على أرض الوطن». وقد بدا أن الحكومة العراقية ترحب بعودة الجميلي إلى وطنه رغم عدم ترحيبها بنقده الساخر، ومع ذلك لم تصل الطائرة الرسمية أبداً لأخذ جثمانه، وبعد خمسة أيام لم يستطع مجتمع الممثلين وعائلة راسم الجميلي الانتظار أكثر. ويسرد العقيدي وقائع الجنازة قائلاً: «لقد تركنا الجميلي خمسة أيام في بَرَّاد المستشفى بدمشق، وتقضي تعاليم الشريعة الإسلامية بدفن جثمان المتوفى بأسرع ما يمكن حتى تستريح روحه». وكان الشعور بالمرارة يعاوده كلما تذكر ذلك اليوم من شهر ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٧م عندما اجتمع أفراد المجتمع الفني العراقي في المنفى في إحدى ضواحي دمشق لدفن راسم الجميلي في «مقبرة الغرباء».

سجل العقيدي وقائع الجنازة باستخدام كاميرا صغيرة كان يحملها بيده. وتبدأ الصور غير الملونة عند الباب الخلفي للمستشفى حيث يقوم بعض أفراد

مجتمع الممثلين العراقيين بفتح براد بحجم جسم الإنسان يرقد داخلها جثمان الجميلي. وقد استطعت أن أرى نعشاً خشبياً لُفَّ بعلم العراق وثُبِّت على سيارة كانت متوقفة خارج المستشفى. وقد وضِعت على النعش صورة كبيرة للجميلي وهو في مرحلة عمر أصغر بكثير قبل أن تبدو عليه علامات التقدم في السن بسبب الحياة في المنفى.

أثناء مراسم الجنازة رأيت صوراً واضحة لحاملي النعش وهم يفتحون غطاء درج الحفظ المعدني ويخرجون كيس الجثة ذي اللون البني الفاتح. وأخبرني العقيدي أنهم اكتشفوا إهمال موظفي المستشفى في تشغيل البراد لمدة خمسة أيام مما جعل حاملو النعش يشمئزون من الرائحة محاولين عدم التقيؤ وهم يرفعون جثمان صديقهم المتيبس لإخراجه من الصندوق المعدني الأبيض. وقد بذلوا جهداً كبيراً لنقل الجثمان إلى السيارة ووضع الجميلي برفق داخل النعش.

حضر الجنازة أكثر من مائة عراقي مِنْ ممثل ومخرج وفنان كوميدي، وقد كانوا مجتمعين عند المدخل الخلفي للمستشفى لإلقاء نظرة الوداع على الجميلي. وقد وقفوا في صمت يشاهدون رفع الجثمان فوق سقف السيارة، وعندما تم إغلاق الغطاء رددوا كلمات مثل «ادعوا للفقيد بالرحمة» و«كان الجميلي رجلاً صالحاً»، وذلك أثناء دخول حاملي النعش في الطابور الطويل للسيارات كي يبدأ الموكب في التحرك.

كان موكب السيارات المتواجدة بالجنازة يضم أشهر الفنانين العراقيين المنفيين في سوريا، وقد مرت السيارة التي تحمل النعش عبر المناطق التي يزيد فيها عدد المنفيين العراقيين عن السكان السوريين، وقد اصطف في الطرقات آلاف العراقيين سُنَّة وشيعة كما حملت إشارات المرور في الطرقات لافتات سوداء كتب عليها عبارة: «الموت علينا حق» التي تشير إلى الإيمان بالقدر.

عندما وضِع نعش الجميلي على الأرض قال العقيدي: «كنا جميعاً سعداء لأنه سيدفن هنا. وقد أسهم المنتجون العراقيون في دفع تكاليف الجنازة كما جمع اتحاد الفنانين العراقيين بعض المال وقدموه لأسرة الجميلي». وقد بدا العقيدي سعيداً بقدرة هذا المجتمع الجديد الذي تشكل

في المنفى على التحرك وإنقاذ هذه الأسرة العراقية الشهيرة من خزي خلو الجنازة من المعزيين. وقد بدا الاجتماع وكأنه أحد الاحتفالات القديمة التي كانت تتم في بغداد وخاصة مع اجتماع الفنانين لتكريم رجل كان له حياة مهنية طويلة في فترة من أخطر الفترات في تاريخ العراق. وقد أرادوا التصديق بأن حكومتهم الجديدة سوف تحتضنهم مجدداً، وتعيد قبول روح المسرح العابث الذي جسده راسم الجميلي، وهو إلى حد بعيد أمر من صميم ثقافة وتقاليد المنطقة. لكن الحكومة أخفقت في ذلك وأذلت الجميلي الذي سيظل إلى الأبد في الأراضي السورية. وأثناء تجمع العديد من الفنانين العراقيين الأكثر شهرة عند قبر راسم الجميلي في أحد أيام الشتاء الباردة، كان عليهم التساؤل ما إذا كانوا سيموتون هم أيضاً بعيداً عن الوطن.

كان انتصاره وانتصارهم سيأتي في وقت لاحق، حيث أصبح الفنانون العراقيون المنفيون في سوريا يكسبون قوتهم بالمشاركة في الأعمال الساخرة التي تبث إلى العراق خلال شهر رمضان لأعداد من المشاهدين تتزايد باستمرار كل عام. من أقوى هذه الأعمال البرنامج الذي تم إنتاجه في عام ٢٠٠٩م «من سيربح البترول؟» الذي جاء اسمه على وزن اسم البرنامج الشهير «من سيربح المليون؟»، وقام بتمثيل النسخة العراقية فنانون كوميديون مشهورون تنافسوا على الفوز بخمسة لترات من النفط الخام. وفي حين كانت حرية التعبير بمثابة السلوى للمنفيين، إلا أنها لم تكن بلا ثمن، فلا تزال قناة الشرقية تعتبر «قناة سنية» مكروهة من مسؤولي الحكومة العراقية لذا فقد بقيت في المنفى.

الفصل الثاني

أول الخارجين

بدء عازف البيانو - في البهو المزخرف لفندق فور سيزنز بدمشق - عزف ألحان عيد الميلاد عند وقت الغداء ولم ينته منها إلا بعد منتصف الليل. كانت أشجار عيد الميلاد تتلألأ في مراكز التسوق، وأضواء الاحتفال تومض بين الشرفات في الأحياء التي يسكنها المسلمون، وهي عادة جديدة مقتبسة من الاحتفالات المسيحية. ويلتقي عيد الميلاد وعيد الأضحى - وهما العيدان الرئيسيان في الإسلام والمسيحية - كل ٣٣ عاماً. ويحتفي عيد الميلاد بذكرى ميلاد يسوع المسيح؛ بينما يركز عيد الأضحى على ذكرى النبي إبراهيم، وهو نبي مشترك بين القرآن الكريم والعهد القديم من الكتاب المقدس. وكان شهر ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠٧م ملتقى للاحتفالات المشتركة. ودمشق مدينة علمانية ذات توجه تجاري وتمتلئ بهجة وزينة واستعداداً للاحتفالات العائلية، لكن موسم العطلات بالنسبة للمنفيين العراقيين وخاصة المجتمع المسيحي كان وقتاً للحزن والشجن.

بدء انهيار التعدد الثقافي في العراق بالمسيحيين، حيث لم تكن أولى بوادر سياسة التشريد موجهة للمسلمين السُّنَّة، بل للمجتمع المسيحي وهو المجتمع الأقدم في العراق، حيث كانت تجربة اضطهادهم التي بدأت مباشرة بعد الغزو الأمريكي للعراق بمثابة الإعداد للأزمة السُّنِّيَّة الكبرى التي أعقبت ذلك.

كنت أستمع لأنغام أغنية «عيد ميلاد أبيض» الغربية أثناء مروري أمام أحد متاجر المشغولات السياحية الصغيرة متجهة إلى المجمع الكبير لكنيسة إبراهيم الخليل في حي جرمانا بدمشق في يومٍ مشرق من أيام الشتاء. وكانت الكنيسة التي تعتبر أكثر المباني إثارة للإعجاب في هذا الجزء الفقير من

العاصمة مكاناً لالتقاء المجتمع المسيحي السوري أيام الآحاد، كما كانت تقدم برامج إرشادية دينية للأطفال خلال أيام الأسبوع. كان مسيحيو سوريا يتمتعون بالثقة رغم أنهم أقلية في هذا البلد، وكان يُسمح لهم ببناء الكنائس الجديدة كما تقوم الحكومة بتمهيد الطرق المؤدية للأديرة القديمة، وكان المسيحيون يضعون الصليب علناً بلا خوف. وكان مسيحيو سوريا يعيشون في ظل تحالف سياسي ضمني مع العلويين وهي أقلية مسلمة ذات نفوذ، فهم يحكمون البلاد منذ وصول حافظ الأسد إلى السلطة عام ١٩٧٠م ضمن معادلة طائفية سورية خاصة تستهدف إحداث موازنة مع الأغلبية السُّنِّيَّة في سوريا.

رحبت الكنائس السورية بمسيحيي العراق الذين اضطروا للعيش في المنفى، وقامت بدعمهم ودمجهم في الأحياء المسيحية. وعلى عكس النظام البعثي في سوريا، اتسمت حياة المسيحيين تحت حكم النظام البعثي العراقي بقيادة صدام حسين بالصعوبة وأصبحت مستحيلةً أثناء الحرب الطائفية التي اندلعت مع الغزو الأمريكي للعراق.

قدّم العديد من مسيحيي العراق الدعم للغزو آملين في أن تتحسن الحياة بالنسبة لهم مع انهيار النظام البعثي. ولكن مع تنامي الإسلام المسلح في العراق، ازداد اقتران المسيحيين بشكل مباشر بالغرب المكروه ومن ثم تم الربط بينهم وبين الوجود الأمريكي في العراق فأصبحوا مستهدفين بشكل خاص، ولم يكن قدوم الحركة الإنجيلية الأمريكية التي وصلت إلى العراق مع الدبابات الأمريكية ذا فائدة تذكر. وكانت منظمة صندوق السامري الخيرية (Samaritan's Purse) العاملة في مجال الإغاثة حول العالم، والتي يقودها القس فرانكلين جراهام ـ الذي لايجد حرجاً في التصريح بأن الإسلام دين «شرير وكريه» ـ من المنظمات التي قامت بتجهيز إرساليات تبشيرية وإمدادات إغاثة في الأشهر التي أعقبت الغزو، وهو ما أدى بدوره إلى تحفيز الإسلاميين المسلحين إلى استهداف مسيحيي العراق.

أدى ذلك إلى جعل مسيحيي العراق من أول المغادرين بعد إقصاء صدام، وكان رحيلهم إيذاناً ببداية تطهير الساحة العراقية التاريخية متعددة الطوائف. وقد قامت بعض أغنى العائلات المسيحية بعبور الحدود في

غضون أشهر من وصول القوات الأمريكية، وازدادت الأعداد بعد تفجير الكنائس في مختلف أنحاء البلاد في هجمات منسقة عام ٢٠٠٤م.

كان من المتوقع أن يكون مسيحيو العراق المنفيون أكثر تأهلاً لإعادة التوطين في الغرب بعد أن استطاعوا الاعتماد على الملاجئ المؤقتة في المجتمعات المسيحية القائمة في الشرق الأوسط مثل لبنان والأردن وسوريا، لكن عملية إعادة التوطين كانت بطيئة بشكل مؤلم كما أن الانتظار الطويل كان مكلفاً.

في صباح أحد أيام الشتاء بدمشق، كان المطبخ الموجود بالطابق السفلي بكنيسة إبراهيم الخليل قد تحول إلى مركز لإطعام مسيحيي العراق الذين يعانون الفاقة. وكانت الراهبات السوريات الصارمات اللاتي يرتدين ملابس بيضاء خشنة يقمن ثلاث مرات أسبوعياً بتقديم الأرز ولحم الغنم في أوانٍ كبيرة مصنوعة من الألمونيوم، كما قامت الكنيسة بفتح عيادة طبية مجانية يقوم فيها أطباء سوريون متطوعون بصرف الدواء للعديد من العراقيين الذين يعانون من الأمراض المزمنة ولا يستطيعون تحمل تكاليف الرعاية في المستشفيات الخاصة. وكان يتم أيضاً تقديم المشورة للأعداد الكبيرة من حالات الاغتصاب وخدمة ضحايا الصدمات النفسية وبخاصة الأطفال وإن كانت هذه الخدمات محدود للغاية.

كان أكثر من مائة عراقي ومعظمهم من النساء يرتدون ملابس رثة ويصطفون بصمت في طابور للحصول على الطعام ومعهم أوعيتهم البلاستيكية وأوانيهم انتظاراً لوجبة ساخنة كانت بمثابة إضافة مرحب بها لنظامهم الغذائي الأساسي الذي يتألف من الخبز والشاي المحلى بمقدار كبير من السكر. وقد أخبرتني بعضهن بصوت خافت أن أزواجهن قد عملوا كمترجمين بالجيش الأمريكي ثم اضطروا لمغادرة البلاد عندما تعرضت العائلة لتهديدات من الميلشيات الموجودة بأحيائهم، وهو ما دفعهم لحزم أمتعتهم سريعاً، ويقول البعض بأن مدخراتهم العائلية قد نفدت وهم يعتمدون الآن على ما يقدم لهم من طعام. كان المسلمون أيضاً مرحب بهم هنا، وكان القاسم المشترك بين الجميع هو الجوع والذل الذي حل بالمنتمين للطبقة الوسطى في بغداد، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم من النخبة المتحضرة في العالم العربي.

على مسافة غير بعيدة من الكنيسة، وفي شقة قليلة الأثاث، كان نبراس ناصر وهو شاب نحيل في الثامنة عشر من عمره يجلس وحيداً معظم فترات اليوم. وكان ناصر يعيش مع أسرة عمه في دمشق. كانت الشقة ـ التي تقع في الطابق الرابع بمنزل ليس فيه مصعد ـ خاليةً من الديكورات إلا من صورتين ليسوع، وفرع عنب بلاستيكي أخضر يتدلى من أحد الجدران ومجموعة من دمى الأطفال المصطفة حول جهاز التلفاز.

كان شعر ناصر طويلاً متدلياً على كتفيه الصغيرين وبه فرق عند المنتصف، وكان وجهه الطويل لا ينم عن أي مشاعر وهو يتذكر هروبه من بغداد عام ٢٠٠٦م بعدما أمضى عشرة أيام في إحدى مستشفيات بغداد للعلاج من الصدمة التي ألمت به بعد تعرضه للضرب المبرح.

كان ناصر يأمل في أن يصبح مهندس كمبيوتر، وكان يقدم طلبات التحاقه بجامعة المأمون في حي المنصور ببغداد، لذلك كان يغادر منزله في الصباح الباكر متجهاً إلى الجامعة لملء استمارات الالتحاق بالفصل الدراسي الشتوي. وقد شوهد لعدة أيام يسلك الطريق نفسه في الموعد نفسه، مما جعل الشبهات تحوم حوله حيث كان الموظفون الوحيدون في البلاد الذين تتطلب أعمالهم ساعات دوام منتظمة هم الذين يعملون لدى القوات الأمريكية أو الحكومة العراقية.

قال: «كان السبب وراء اختطافي، كما قالوا، هو «العمل مع الأمريكان»، ولم يكن لديهم ما يدل على ذلك، لكن ما قالوه هو: «أنت شاب صغير، وتترك منزلك يومياً عند السابعة صباحاً وتعود في الموعد نفسه بعد الظهر كل يوم. أين تمضي وقتك؟ لا بد أنك تعمل لدى الأمريكان»». «ثم قالوا: سوف نحقق معك، وإذا اكتشفنا أنك تعمل لدى الأمريكان، فسنضرب عنقك».

كان الوقت بعد الظهر تماماً أثناء حديثي معه عندما سمعت الضجيج المقترن بعودة الأطفال من المدرسة يملأ رواق البناية التي تتألف من عدة شقق، لكن ناصر بدا وكأنه غير مدرك لما حوله. بدأ يتحدث ثانية ولكن عندما دق جرس الباب مرة ثانية، قام متثاقلاً من مقعده ليفتح الباب لصبي صغير أثقلته حقيبته الممتلئة بالكتب الدراسية ثم قال: «ابن شقيقتي»، دون أن يبتسم.

سألت ناصر ما إذا كان يرغب في أن يستمع ابن شقيقته الصغير لما تبقى من القصة فقال: ـ وهو يتجاهل ما بدا من وجهة نظره حساسية في غير محلها من طرفي ـ «اختطف ابن عمه ولا نعلم عنه شيئاً»، لكن ناصر رغم بشاعة ما مر به بقي حياً ليحكيه، وهو ما جعل الأمر مناسباً لآذان صبي في الثامنة من عمره، وعلى الجدار أسفل ساعة مزخرفة متوقفة وضِعت صورة زفاف ابن عم الصبي وقت أن كانت الأسرة تنعم بالعيش في سعادة.

كانت عائلة ناصر في العراق تسكن حي الدورة، وهو حي مختلط يعرف أحياناً باسم «الفاتيكان» لكثرة عدد المسيحيين الذين كانوا يعيشون فيه. ويتمتع المجتمع المسيحي بجذور قديمة في العراق، لكن الحياة تحت حكم صدام كانت صعبة منذ البداية. ففي عام ١٩٧٤م ألغى صدام المدارس غير الحكومية ليغلق بذلك ٣٤ مؤسسة تعليمية مسيحية بما في ذلك كلية اليسوعيين ببغداد والتي تخرج منها صفوة المجتمع المسلم بالعاصمة. ورغم ذلك كان المسيحيون العراقيون في عهد صدام يتمتعون بحرية العبادة في الكنائس المنتشرة بالأحياء ولديهم فرص تجارية غير مسموح بها للمسلمين. وكان المسيحيون في العراق يبيعون الذهب والمشروبات الكحولية، وهو ما أتاح لهم الانخراط في أعمال تجارية نشطة في بلد يعتبر الكثير من سكانه أنه العَرَق هو مشروبهم الوطني الذي لا يجب أن تخلو منه مائدة العشاء.

عندما تم اختطاف نبراس ناصر عام ٢٠٠٦م، كانت مجموعة تعرف باسم «القاعدة في بلاد الرافدين» تحكم الحي الذي يعيش فيه، وكانت تروع المدنيين من المسيحيين والشيعة على السواء. وبالنسبة للجماعات المسلحة والميليشيات، كانت عقارات حي الدورة مميزة للحد الذي جعل القتال يحتدم حول هذه الأميال القليلة أكثر من غيرها بحيث تناوبت السيطرة عليها عدة مجموعات مسلحة. ويرجع ذلك لقربها من الطريق السريع الذي يساعد المسلحين على الهروب سريعاً من قوات الأمن. وامتازت العديد من منازل الحي باتساع مساحتها وتوفر سبل الراحة بها، مما جعلها مناسبة لتكون سجون مؤقتة، كما أن الأراضي الزراعية الشاسعة المجاورة للحي كانت نموذجية لإخفاء الأسلحة والتخلص من الجثث.

قام المختطفون وهم شباب يرتدون ملابس مدنية بالقبض على ناصر

أثناء عودته من الجامعة، وألقوه بقسوة في صندوق السيارة. ويتذكر ناصر ذلك قائلاً: «لقد تم كل شيء في عشر دقائق، لم يكن أيّ منهم مألوفاً بالنسبة لي، لكنهم كانوا يتحدثون اللهجة العراقية»، وهو ما يعني أن المختطفين كانوا من السُّنَّة المحليين، وليسوا من العرب الذين قدموا من البلدان الأخرى للجهاد في العراق.

اقتاد المسلحون ناصر إلى منزل في حي الدورة حيث زُج به في غرفة فيها ستة عراقيين آخرين مذعورين بينهم صبي في الحادية عشرة من عمره. وأضاف ناصر وهو يمسح عنقه بيديه قائلاً: «أخذوا كل متعلقاتي ومن بينها هاتفي الجوال وأخبروني أنهم سيأخذونني إلى المحاكمة».

بعد عدة ساعات من اختطافه اتصل المختطفون بوالديه على رقم المنزل المسجل على هاتفه الجوال. وكان ذلك في أغلب الأحوال هو النمط المتبع، سواء اعتزم الخاطفون قتل ضحيتهم أم لا. وقد كان العنف في العراق يشتمل أحياناً على علاقة شخصية بين الخاطفين وأسرة الضحية، يتوسل فيها طرف ويوبخه الطرف الآخر أثناء التفاوض على الفدية أو مكان الجثة. «أخبروا والدتي أنهم سيقطعون رأسي إذا اكتشفوا أني أعمل لدى الأمريكان، ولم تستطع والدتي تحمل الصدمة وسقطت مغشياً عليها». التقط والد ناصر الهاتف ليتحدث إلى الخاطفين، وربما ساعد تفكيره السريع في الإبقاء على حياة ولده. «أخبروا والدي نفس الشيء فقال لهم أبي: إذا وجدتم وثائق تدل على عمله لدى الأمريكان، فسأقطع أنا بنفسي رأسه».

وتحدث ناصر عن الأيام والليالي التي أمضاها مسجوناً بصوت لا مشاعر فيه: «كانوا يعرضون علينا صورة الزرقاوي في أحد الهواتف الجوالة ويقولون لنا: من هذا؟ فنقول الزرقاوي، فيقولون كلا، يجب عليكم أن تقولوا: هذا زعيمنا. وإذا نحن لم نقل ذلك كانوا يضربوننا».

يمكن لكل العراقيين تقريباً تمييز صورة «أبو مصعب الزرقاوي» القائد الإسلامي المسلح الذي قاد الفرع الأكثر عنفاً للقاعدة في بلاد الرافدين. وقد قاد هجمات بلا تمييز ضد مدنيين عراقيين اعتبرهم «كفاراً» وهم من وجهة نظره الأيديولوجية: غير المسلمين والشيعة العراقيين. وقد قُتِل الزرقاوي في

ضربة جوية أمريكية عام ٢٠٠٦م، لكن موته لم يؤثر كثيراً على أتباعه من الشباب العراقي الذي أقسم على الولاء لأفكاره ولحركة الجهاد الإسلامي الكبرى ضد الغرب وضد أي شيء أو أي شخص يقترن بالأمريكان المكروهين. وبالنسبة لهم، كانت القاعدة تقدم إجابات واضحة وراسخة في عراق تغلفه الحيرة وانعدام العدالة.

«كانوا يخبرونني أن ما أعانيه ليس فقط بسبب العمل مع الأمريكان، ولكن لأنني مسيحي وليس لي مكان في العراق. وكانوا يلعنون المسيحيين وقالوا: إن المسيحيين يمتلئون بالخطيئة، وإن العراق ليس مكاناً لنا».

أضافت القاعدة في بلاد الرافدين قطع الرؤوس إلى مفردات العنف العراقية الكثيرة. وقد تم توثيق وبث أول عملية إعدام بعد شهر من الكشف عن فضيحة سجن أبو غريب عام ٢٠٠٤م حيث قام أبو مصعب الزرقاوي بتسجيل عملية قتل نيكولاس بيرغ، وهو مدني أمريكي عمره ٢٦ عاماً. وتحولت صور بيرغ في سترته برتقالية اللون ـ التي تشبه ملابس المتهمين المحتجزين لدى الولايات المتحدة في خليج جوانتنامو بكوبا ـ إلى أداة للتجنيد فضلاً عن كونها درساً تعليمياً. وقد أخبرني بعض الشباب العراقي بأنهم يجمعون أفلام قطع الرؤوس ويضعونها على حواسبهم عندما يعود التيار الكهربي، أو يخزنون صورها على هواتفهم الجوالة ليشاركونها مع الآخرين.

أخبرني ناصر أنه شهد ثلاث عمليات ذبح منفصلة على مدار الأحد عشر يوماً التالية، ومن بينها قتل الصبي البالغ من العمر أحد عشر عاماً بعدما «اعترف» لخاطفيه في النهاية بأنه دل القوات الأمريكية على مواقع القنابل المزروعة بجانب الطريق في الحي الذي يقيم فيه. وقد أجبر الخاطفين ناصر على رؤية عمليات الذبح هذه، لكن هذا الشباب العراقي الذي يزعم أنه ينتمي إلى القاعدة في بلاد الرافدين لم يتدرب على أسلوب القتل السريع عبر جر سكين حاد سريعاً فوق الشريان الرئيسي للعنق، وأخفق في إيجاد النقطة المؤثرة. وقد أجبر منفذو عمليات القتل ضحاياهم على شرب نوع من السوائل الكاوية لإخضاعهم قبل وضع حد لحياتهم بطريقة طويلة اتسمت بالقسوة والترويع.

لم تكن قصة ناصر أكثر بشاعة من التجارب التي مر بها غيره من المنفيين، لكنها تدل على الضرر الذي لحق بمئات الآلاف من العراقيين على يد عراقيين آخرين.

حاولت وكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة إحصاء الخسائر البشرية في دراسة أجريت بالتعاون مع مركز الحد من الأمراض في أتلانتا، وأظهرت نتائج الإحصاء أن الغالبية العظمى من المنفيين عانوا من الاكتئاب والقلق. وقال ٦٠٪ منهم: إنهم عانوا من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة (Post - traumatic Stress). وقد كان معظمهم وفقاً للدراسة يعانون من يأس وجداني عميق بشكل يفوق غيرهم من اللاجئين بسبب الصراعات الحديثة الأخرى. وقد عكست الإحصائيات أن عدداً غير عادي من المنفيين قد تعرضوا للعنف بأنفسهم.

وفقاً للبيانات، تأثر ٧٧٪ من المشاركين بالقصف الجوي، أو قذائف المدفعية، أو الهجمات الصاروخية؛ وشهد ٨٠٪ منهم عمليات إطلاق النار؛ بينما خضع ٦٨٪ منهم للتحقيق أو المضايقة على أيدي الميليشيات؛ ويعرف ٧٥٪ منهم شخصاً قريباً تعرض للقتل.

في العراق، كان لاستهداف المدنيين منطقاً مروعاً في لعبة يكسب فيها طرف واحد حيث تم توظيف «التطهير الطائفي» لتأكيد الهوية العراقية الجديدة ـ تلك الهوية التي تقوم على الولاء الطائفي الذي حجبه نظام صدام ـ وكثيراً ما كانت كتائب القتل تعمل في المنطقة ذاتها بأفكار متداخلة ومتصارعة في أحيان كثيرة. وكانت قوائم القتل أكثر تعقيداً من التقسيم الطائفي حيث كانت تستهدف قتل بعض فئات المهنيين بالكامل مثل الأطباء والمعلمين وفنيي الكمبيوتر وأساتذة الجامعات، حتى الحلاقين والخبازين كانوا في خطر لما يقومون به من ممارسات «غير إسلامية» على حد زعم تلك الجماعات. كما تم استهداف الأعضاء السابقين في حزب البعث منذ البداية إلى جانب كبار ضباط الجيش وطياري القوات الجوية الذين خاضوا الحرب الإيرانية العراقية.

مع الوقت بدأت قوائم القتل تضم العلمانيين والأزواج في الزيجات المختلطة وشاربي الكحوليات.

كانت النساء تُستهدف بصفة عامة؛ لاسيما اللواتي لا يرتدين عباءة سوداء (العباءة التي تحيط بكامل الجسم وترمز إلى الاحتشام الإسلامي)، أو يرتدينها ويضعن ماكياجاً أو أحمر شفاه؛ فهؤلاء يعتبرن مخالفات للقواعد الجديدة التي فرضتها الميلشيات الإسلامية داخل الحكومة وخارجها.

بحلول عام ٢٠٠٥م، كان العراقيون يُقتلون في أعمال العنف بأعداد مذهلة. وقد أصبح إحصاء أعداد القتلى من القضايا السياسية المثيرة للجدل؛ ففي عام ٢٠٠٦م، انضمت مجلة **نيو إنغلاند جورنال أوف ميديسين** (*New England Journal Of Medicine*) لهذا الجدل بدراسة تظهر أن العنف هو السبب الرئيسي للوفيات بين جميع البالغين العراقيين والسبب الأساسي للوفيات بين سن ١٥ حتى ٥٩ سنة. وقد بدأ تحالف المسلحين السُّنَّة مع القاعدة بالهدف المشترك المتمثل في قتال قوات الاحتلال الأمريكي، لكن الأساليب الوحشية للقاعدة، وقتل المدنيين الشيعة واستهداف المؤسسات الدينية الشيعية، قد جر المجتمع السُّنِّي بأكمله إلى مواجهة الميليشيات الشيعية الأفضل تسليحاً والمدعومة من وزارة الداخلية.

برأ المختطفون السُّنَّة نبراس ناصر من تهمة العمل مع الأمريكان لكنه لا يزال مذنباً كونه مسيحياً. وقد عانى ناصر في زنزانته الموجودة بالطابق السفلي لإحدى البنايات بحي الدورة من التشوش وفقدان التركيز بسبب المحنة التي تعرض لها في السجن. وقد طلب الخاطفون من عائلته فدية مقدارها ٣٠ ألف دولار لإطلاق سراحه. وتم إطلاق سراحه على بعُد عدة أميال من منزله بعد ١٣ يوماً من أسره:

عندما أطلقوا سراحي كنت متعجلاً في العودة إلى منزلي بحي الدورة ولأنهم لم يستطيعوا فتح واحدة من السلاسل التي قيدت يدي، كانت يدي لا تزال في القيد عندما أردت استقلال تاكسي إلى المنزل فما كان مني إلا أن وضعت يدي في جيوبي كي لا يرى السائق أني كنت مسجوناً. وعندما اقتربنا من منزلي، التفت إليّ السائق ثم قال: «أتوسل إليك يا ولدي ألا تفجر نفسك في سيارتي؛ لأن لدي أسرة تنتظرني»؛ فأخرجت يدي وأخبرته ما حدث معي، فصدق أنني لست مفجراً انتحارياً، وشعر بالارتياح حتى أنه لم يطلب مني أُجرة توصيلي إلى المنزل.

لكن ناصراً كان لا يزال مشوشاً من الحرمان الذي ألم به في السجن والضرب الذي تعرض له على مدار أسبوعين على أيدي ساجنيه من بني وطنه المنتمين إلى القاعدة، الأمر الذي دفع والديه إلى الذهاب به إلى مستشفى بأحد الأحياء لعلاجه، ثم رتبوا له مغادرة البلاد بمجرد تحسن صحته بالقدر الذي يسمح له بالسفر والعيش مع بعض أقربائه المنفيين بالفعل في دمشق.

* * *

يشكل المسيحيون العراقيون ١٥ في المائة على الأقل من عدد الفارين من البلاد، وهو عدد صادم خاصة بالنظر إلى تعداد المسيحيين قبل الاحتلال والذي بلغ ٣ في المائة فقط من السكان. وقد نفذ تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين هجمات شرسة في جميع أنحاء البلاد استهدفت طردهم أو قتلهم. وقام المسلحون بفرض ضريبة مقابل الحماية، وأجبروا المسيحيات على لبس الحجاب.

قام العديد من مسيحيي بغداد بمغادرة البلاد، كما فر بعضهم إلى الموصل التي تعد مركزاً إقليمياً ويزيد تعداد سكانها على مليون نسمة. وتعتبر الموصل مكاناً آمناً لأنها كانت وعاءً تقليدياً تنصهر فيه طوائف العراق وجماعاته العرقية الرئيسية، كما أن لتلك المدينة - وهي ثالث أكبر المدن العراقية - صدى تاريخياً لوجود أحد أقدم المجتمعات المسيحية على وجه الأرض فيها، حيث كانت نينوى التي اتخذها الأشوريون القدماء عاصمة لهم تقع على ضفاف نهر دجلة. وكانت الإمبراطورية الأشورية القوية حينئذ أول أمة تقبل المسيحية؛ وفيها أقيمت أولى الكنائس على يد القديس توماس.

حتى في الموصل لم يستطع المسيحيون الهروب من الخطر؛ فقد وقعت المدينة تحت المنطق الطائفي القاتل الذي مزق باقي مناطق العراق. وكان العرب السُّنَّة في الموصل هم الطائفة المهيمنة، وكانت إدارتها بيد الأكراد بعد فوزهم بالانتخابات التي قاطعها السُّنَّة. ووقع المسيحيون الذين يفتقدون لمليشيات خاصة بهم في قلب صراع على السلطة يهدف إلى السيطرة على الموصل وكركوك المجاورة لها. وعندما انضمت المجموعات المنتمية للقاعدة إلى هذا المزيج الهش عانى المجتمع المسيحي من موجات عنف متكررة.

مع بداية ازدياد القوات الأمريكية ببغداد، وإخراج المجموعات المنتمية إلى القاعدة من العاصمة، توجهت العديد من الميليشيات الإسلامية إلى الشمال، وأعادت التجمع في الموصل، لتتحول المدينة إلى آخر المعاقل الحضرية للمسلحين في العراق. وفي ٢٠٠٨م، ازدادت وتيرة العنف ضد أفراد المجتمع المسيحي.

تصاعد الخوف سريعاً بحلول شهر فبراير/شباط مع ازدياد عمليات الخطف والقتل التي شملت اختطاف وقتل أسقف الكلدان الكاثوليك بولص فرج رحو بعدما قاد المصلين بكنيسة روح القدس في الحادثة التي قتل الخاطفون فيها ثلاثة أشخاص هم سائقه وحارساه. وقد تم وضع الأسقف الأعزل في صندوق إحدى السيارات، لكنه وبشكل مثير للدهشة، استطاع - رغم عمره البالغ ٦٥ عاماً وللمرة الأخيرة في حياته - أن يخرج هاتفه في الظلام ويجري آخر مكالمة. فقد كان عازماً على إيصال رسالة أخيرة لرعيته في صورة تعليمات تضمن عدم إطلاق سراحه حياً. وقد توسل إليهم ألا يدفعوا أية فدية للإفراج عنه؛ فقد علمته التجارب المريرة أنه لا جدوى من دفع هذه الأموال، فقد كان الأسقف رحو يدفعها لسنوات طويلة.

لم يكن واضحاً متى بدأ الأسقف تسليم الصدقات التي يجمعها أيام الأحد للمسلحين السُّنَّة الذين يتوعدون رعاياه، فلم تتضح التفاصيل إلا بعد وفاته. فقد قال الرجال الذين كانوا يأتون إليه: إنهم ينتمون للقاعدة ويطلبون مالاً مقابل الحماية، وكانت تفرض كإتاوات المافيا. وظل الأسقف رحو يدفع من أجل الحماية التي لم يحصل عليها. فقد استمر المسلحون في اختطاف القساوسة وطلب آلاف الدولارات كفدية لهم وترويع أفراد المجتمع رغم استمرار مسيحيي الموصل في دفع الأموال. وبقيت تلك الأموال تستخدم لتمويل المسلحين الذين يقتلونهم. وكان المسيحيون يلجؤون لمدخرات عمرهم ويضيفون آلاف الدولارات من التبرعات الدولية. ولا بد أن الأسقف كان مقتنعاً بأنه إن لم يدفع كان العنف سيصبح أكثر سوءاً.

قبل شهر من اختطافه وقتله ظهر رحو على شاشة التلفزيون المحلي منددا بتجارة الحماية. ورغم أنها لم تبدو كذلك حينئذ، فقد كان ذلك بمثابة إعلان موجه للمسلحين الإسلاميين. فقد كان يعلن أنه توقف عن تمويل

حملة كانت تهدف للقضاء البطيء على مسيحيي العراق. وربما كان الأسقف قد أخطأ في تفسير الهدوء النسبي ببغداد بعد زيادة القوات وظن أن السلام أصبح ممكناً، ولم ينتبه إلى أن الأمر لايعدو أن يكون مجرد توقف مؤقت للأعمال العدائية نظراً للانتهاء من تطهير الأحياء طائفياً، وتوهم أن الأمريكان عندما يطبقون الاستراتيجية نفسها في الموصل فلن يدفع المزيد من النقود من أجل «الحماية»، فقرر في النهاية وضع حد لنظام يدعم كتائب القتل.

عندما قدِم الرجل المسؤول عن التحصيل إلى الكنيسة لأخذ الأموال المعتادة رفض رحو مقابلته؛ غير أن مقتل الأسقف قد طرح عدة قضايا ستصبح جزءاً من حسابات المسيحيين العراقيين عند دراسة إمكانية عودتهم من المنفى. لماذا لم تبذل الحكومة العراقية جهداً أكثر لحماية المجتمع المسيحي في العاصمة ثم في الموصل؟ لماذا لم يرفض وزراء الحكومة استهدافهم؟ وهل بإمكان مسيحيي الموصل الوثوق في المسؤولين الأكراد الذين كانت لهم أجندات خاصة وحاولوا تحقيق هيمنة سياسية في محافظة نينوى، وهو ما كان يتم في كثير من الأحيان على حساب المسيحيين؟ كيف يمكن لأقليةٍ المشاركة في بناء مستقبل البلاد في ظل نظام سياسي يقوم على أساس الهوية الطائفية؟

عاد بعض العراقيين عام ٢٠٠٩م للوقوف على صدق مزاعم الحكومة العراقية والولايات المتحدة من تحسن الوضع الأمني وظروف المعيشة، لكنهم لم يمكثوا طويلاً. ففي بغداد، كان استرداد المنازل التي استولت عليها المجموعات الطائفية الأخرى لا يزال أمراً خطيراً. ومع تحسن الوضع الأمني تدريجياً ضعفت القاعدة كثيراً لكنها لم تمت. وأصبحت عمليات القتل المروعة التي تستهدف المسيحيين تحديداً نادرة. لكن بالنسبة للعديد من أبناء الطبقة الوسطى، لم يكن الأمن هو الاعتبار الوحيد.

حث رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي المسيحيين على العودة إلى الوطن في إشارة هامة بعد لقائه بالبابا بنديكت السادس عشر بروما في يوليو/ تموز ٢٠٠٨م وذلك لما تمثله الفاتيكان من مكان مناسب للظهور الرمزي. كان المسيحيون حول العالم يدقون ناقوس الخطر بأن المسيحيين في العراق

يواجهون خطر الانقراض. وقال المالكي: إنه يحتاج إلى مهارة هذه الأقلية المثقفة لإعادة بناء العراق الذي مزقته الحرب، وحث البابا على تشجيع عودة المسيحيين لبناء مستقبل جديد. لكن رئيس الوزراء هذا ظل داعماً لوطن يقوم على نظام محاصصة عرقية وطائفية، يحكم فرص العمل في كل الوزارات ويحدد توزيع المناصب الحكومية الهامة، كما تحدد هذه المحاصصة عدد المقاعد بمجالس المحافظات. وهو ما يعني أن الكفاءة والإنجازات العلمية لا تكفي للحصول على الوظيفة، حيث تعد الهوية الطائفية هي أساس السياسة الحكومية. وقد أراد المالكي عودة أبناء الطبقة الوسطى المهرة، ولكن نظام المحاصصة لم يكن يدعم المهارة والعطاء الفردي: فقد كان التمييز فيه للفصائل الدينية الكبرى ولا شيء أكثر من ذلك. كان الانقسام السياسي في العراق واسعاً كعهده دائماً. وبعد زيادة القوات، كان الأمريكيون يتحدثون عن سحب القوات ومغادرة البلاد بعدما تحسن الوضع الأمني، لكن زيادة القوات فشلت في الاستفادة من النجاح الأمني في تحقيق المصالحة السياسية اللازمة لاستقرار العراق.

لم يكن هناك دلائل على أن ساسة العراق لديهم القدرة أو الرغبة في تقديم التنازلات الضرورية لتشكيل حكومة وحدة وطنية. وكان الصدع القائم بالعراق مؤهلاً للتحول إلى أعمال عنف جديدة، ليضع المجتمع المسيحي مجدداً في قلب الصراع على السلطة. وفي ربيع ٢٠٠٩م، قدَّم الاتحاد الأوروبي حلاً لبعض المنفيين من خلال استعداده لإعادة توطين عشرة آلاف لاجئ. وعن طريق إعطاء الأولوية للأقليات المضطهدة، فتحت أوروبا في النهاية أبوابها أمام الأسر المسيحية العراقية. وقد ألقت صحيفة **العالم** (*Die Welt*) الألمانية الضوء على بعض مفارقات إعادة التوطين:

عندما نقوم نحن باعتبارنا مسيحيين باستضافة مسيحيين آخرين يعيشون في حالة تهديد مستمر في العراق، فإننا في الواقع نساعد القوى الراديكالية التي تهدف لتحويل العراق إلى منطقة خالية من المسيحيين. وبطبيعة الحال، سيكون الأمر أفضل كثيراً إذا تم تأمين مستقبل المسيحيين الذين يمتد تاريخهم في البلاد إلى ٢٠٠٠ عام بالمنطقة، بل سيكون الأمر بمثابة هزيمة إذا تم تشريد الثلث الأخير من المجتمع المسيحي الذي كان يبلغ تعداده ٨٠٠ ألف نسمة.

شعر جمال رأفت الذي يعمل بوكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة في الأردن بالفزع من السياسة الطائفية المتعمدة لمشروعات إعادة التوطين في أوروبا. وقد قال لي في أغسطس/آب ٢٠٠٩م: «لقد بدأ الأمر بالفرنسيين، ثم الألمان، والآن السويديين. ولا تقبل السويد بشكل سافر أي عراقي غير مسيحي». غير أن الهزيمة بدت حتمية، فقد انفرط عقد حضاري وثقافي آخر من العراق القديم وطُرِحَ جانباً. وعلى ما يبدو، أصبح لزاماً على المسيحيين أن يصنعوا مستقبلهم في مكان آخر.

الفصل الثالث

اشتداد تيار النفي والإبعاد

أغلقت سوريا الحدود ومنعت تدفق الهجرات الجماعية الجديدة من العراق في أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٧م، وكان العراقيون المنفيون في دمشق لا يشكون في معرفتهم المسؤول عن ذلك. فقد أشاروا بحزن إلى رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي. ويرى العديد منهم أن المالكي قد أقنع السلطات السورية بإغلاق آخر الأبواب المفتوحة بسبب الضغط الذي تمارسه واشنطن عليه بعد أن أصبح تدفق العراقيين إلى خارج البلاد أمراً محرجاً ومعاكساً للحديث عن التقدم المحرز في الحرب. ويقول أحد اللاجئين العراقيين: «يريد أن يقنع العالم باستقرار العراق، وأن حكومته ناجحة، في الوقت الذي لا نستطيع فيه العودة، ولو عدنا سيقتلوننا جميعاً»!

اتخذ رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي التوجه الأكثر تشدداً في الحكومة العراقية ضد المنفيين. وقد شعر المسؤولون السوريون بصدمة لدى سماع وصف المالكي للمنفيين «بالجبناء» أثناء زيارته لدمشق التي لم يُظهر فيها اهتمام يذكر بشؤون أكثر من مليونيْ عراقي طردوا من البلاد قسراً. وتحت الضغط الأمريكي، تعهدت حكومة المالكي على مضض بتقديم ٢٥ مليون دولار أمريكي للأردن وسوريا للمساعدة على تغطية نفقات استضافة المنفيين العراقيين، لكنها لم تسلم هذا المبلغ لأكثر من عام. وقد اعترض مكتب رئيس الوزراء على خطة يقوم بموجبها الهلال الأحمر العراقي بتسيير شاحنات محملة بالمؤن الغذائية عبر الحدود إلى السكان المنفيين الأكثر احتياجاً. ونظر المنفيون العراقيون إلى هذا التجاهل باعتباره موجهاً إليهم شخصياً، وكانوا يعتقدون بأن الحكومة قد تخلت عنهم وأن الظروف البائسة التي يعيشونها فيها كانت مصدر خزي وطني في وقت كانت خزائن الحكومة العراقية تمتلئ مرة أخرى بعائدات النفط. وكان من المفضل على الصعيد

السياسي ـ لدى بغداد وواشنطن على حد سواء ـ أن يُتَظَاهر بعدم وجود أسباب تستحق الذكر والمراجعة أدت إلى إبعاد العراقيين.

لم يسمح نظام التأشيرات السوري الجديد بعد أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٧م بعبور الحدود إلا للأكاديميين والتجار الذين يرتبطون بعلاقات تجارية راسخة في سوريا، وسائقي التاكسي والشاحنات. وكان على العراقيين التقدم للحصول على التأشيرات من السفارة السورية ببغداد الواقعة في حي يتسم بالخطورة. وفي الأسبوع الأخير الذي سبق إغلاق الحدود السورية، كان أكثر من عشرين ألف عراقي يتدفقون من خلال معبر الطنف الحدودي يومياً. فقد كانت تلك فرصتهم الأخيرة: حيث شكلت السيارات والحافلات طابور انتظار يزيد طوله على خمسة عشر ميلاً. وكان غالبية المنفيين من المسلمين السُّنَّة.

رغم رؤيته المعلنة لتوحيد السُّنَّة والشيعة والأكراد في العراق، استندت الزعامة السياسية لنوري المالكي إلى خبرته كزعيم لحركة شيعية سرية في عهد صدام حسين. وهو لا يثق في مجموعة واسعة من الجهات السياسية العراقية، بما في ذلك الساسة السُّنَّة وشيعة الداخل (من العشائر والعلمانيين على حد سواء) ممن لم يشاركوه الصراع السري الذي استمر لعقود ضد نظام صدام. ويتبع المالكي بقوة أجندة طائفية من شأنها أن تقوض الأهداف الأكبر للاستراتيجية الأمنية الجديدة للولايات المتحدة في العراق.

كانت استراتيجية زيادة القوات التي تمت في ٢٠٠٧م من جزأين بسيطة ومباشرة. ومع انخفاض إراقة الدماء في العراق بسبب انتشار القوات الأمريكية الإضافية، أصبح لدى القادة العراقيين فرصة لالتقاط الأنفاس والثقة التي يحتاجونها من وجهة نظر واشنطن، وقد حان الوقت لتوقفهم عن الاعتماد على ميليشياتهم وجيوشهم الخاصة.

كان إضعاف القاعدة في العراق سيؤدي بدوره إلى تقليص قوة الميليشيتين الشيعيتين الرئيسيتين: جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر وفيلق بدر، الذراع العسكري للمجلس الإسلامي الأعلى بالعراق. كانت المجتمعات الشيعية تعتمد على الميليشيات لتوفير الحماية أكثر من اعتمادها على الجيش العراقي، الذي كانوا يرون أنه أقل تحفيزاً وإعداداً للتعامل مع

المسلحين والهجمات الإرهابية. ومع تحسن الوضع الأمني، كان من المأمول أن تتراجع الحاجة المتصورة لتلك الميليشيات وأن تبدأ عملية المصالحة الوطنية. وكان التوصل إلى صفقة كبرى لتسوية تقسيم السلطة بين السُّنَّة والشيعة في العراق من شأنه التخفيف من حدة الدافع الرئيسي للعنف الطائفي.

رغم تعهد رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بالعمل على تحقيق المصالحة السياسية، إلا أنه لم يستطع - أو بالأحرى لم يرغب - في كبح جماح الميليشيات الشيعية في العاصمة، وخاصة جيش المهدي (المعروف لدى القوات الأمريكية اختصاراً باسم JAM).

ويتحدث المقدم جيف رجلاند الذي كان يعمل بمقر قيادة الجيش الأمريكي في بغداد عن جيش المهدي قائلاً: «كان جيش المهدي يرى في أحياء معينة أهمية استراتيجية وتكتيكية». ومع انتشار القوات الأمريكية الإضافية في أنحاء العاصمة بدأ الوضع الأمني يتحسن وأعادت الأسواق والحدائق فتح أبوابها لأول مرة منذ سنوات، لكن نشر ثلاثين ألف جندي في الأماكن المضطربة ببغداد قد استغرق وقتاً طويلاً. وفي هذه المرحلة واصل جيش المهدي - في جيوب العاصمة وخاصة في الأحياء الشمالية والغربية - حملته الوحشية لتطهير المناطق المختلطة المتبقية من السُّنَّة لإنهاء ما لم يتم إنجازه سريعاً في اللحظة الأخيرة قبل الانتشار الكامل للقوات الأمريكية. وقد أخبرني المقدم رجلاند قائلاً: «أردنا حل المشكلة وإتمام كل شيء وجعل الجميع يشدون بلحن الوحدة، لكنني لم أتوقع القدرة على تحقيق ذلك لما في الأمر من صعوبة شديدة».

نقل جيف رجلاند وآخرون هذه الهواجس إلى القيادات في بغداد. وبالنسبة لرجلاند، كانت تلك هي مهمته. وقد جاء بوصفه قائداً لأول فريق أحمر يعمل في مقر القيادة العسكرية الأمريكية في العاصمة العراقية. ويعرف الفريق الأحمر في ألعاب الحرب العسكرية كقوة قتالية مهمتها كشف أوجه القصور في الاستعدادات العسكرية. وكانت وحدة الفريق الأحمر جزءاً من برنامج جديد وغير عادي صُمم خصيصاً للوقوف على «القرارات» التي أدت إلى السياسات العسكرية المأساوية في السنوات الثلاثة الأولى من الحرب.

وكان رجلاند من أول الخريجين المتدربين على تحدي التفكير العسكري التقليدي في ميدان المعركة ضمن برنامج عُقد بجامعة فورت ليفينوورث للدراسات العسكرية والثقافية الخارجية. وتمثلت إحدى مهامه ببغداد في السؤال الدائم عن الافتراضات الأساسية حول زيادة القوات. «لقد شاركت في نقاش مع أعلى عناصر القيادة هناك وقلت لهم: انظروا، سيؤدي ذلك لتحقيق الأمن مؤقتاً، ولا يمكننا إلا الحصول على ذلك، لكنني أعتقد بصدق أنكم ستفشلون في تحقيق نجاح دائم كما ستفشلون في إنجاز المهمة التي تحاولون تحقيقها».

خلال ربيع وصيف عام ٢٠٠٧م، استمرت الحرب بين السُّنَّة والشيعة في العراق، ولم تكن المصالحة السياسية - على الأقل على مستوى الأحياء - ممكنة، أو حتى منتظرة. وبحلول شتاء العام نفسه، بدأت الخسائر بين الجنود الأمريكيين والهجمات العنيفة ضد العراقيين تقل بشدة. وفي شهر نوفمبر/تشرين الثاني، أعلن الأدميرال جريجوري سميث المتحدث باسم القوات الأمريكية نجاح العمليات في بغداد وانخفاض الخسائر بين المدنيين العراقيين بنسبة ٧٥ في المائة إلى جانب انخفاض العنف في أنحاء البلاد بنسبة ٦٠ في المائة.

لكن ما أسباب التراجع المفاجئ وغير المسبوق في أعمال العنف؟ أظهرت إحصائيات وفيات المدنيين نتيجة لأعمال العنف زيادة كبيرة خلال فصل الصيف الذي ضم أعنف الهجمات بالسيارات المفخخة في تاريخ العراق، لكن بحلول سبتمبر/أيلول انعكس المنحنى بشكل حاد، وأصبحت العوامل الهامة التي أدت إلى الانعكاس الدرامي في منحنى العنف مثار جدال مشتعل بين الدبلوماسيين والصحفيين والعسكريين.

في أغسطس/آب ٢٠٠٧م، أعلن مقتدى الصدر وقف إطلاق النار وتعليق أنشطة جيش المهدي القوي. وقد ساعدت «الصحوة» - وهي عبارة عن ثورة قصيرة الأجل قامت بها العشائر السُّنِّيَّة ضد القاعدة في بلاد الرافدين بالتحالف مع القوات الأمريكية - على تهدئة الهجمات العنيفة مع مرور الوقت. وبلا شك لعبت زيادة القوات الأمريكية دوراً هاماً في ذلك، لكن ثمة عامل حاسم آخر تجري مناقشته في العراق وفي بلدان المنطقة. فقد

تغير المشهد الطائفي في العاصمة العراقية بشكل حاسم، وأصبحت بغداد مدينة يهيمن عليها الشيعة لأول مرة في تاريخها الطويل. وأصبحت المجتمعات مقسمة تبعاً لهويتها الدينية وتعيش خلف جدران واقية من الانفجارات، في علامة على التصدع النفسي. وقد تم تطهير العديد من الأحياء المختلطة التي ميزت بغداد القديمة، فأصبحت بغداد أكثر هدوءاً، واستمر التراجع في عمليات القتل، لكن لم يكن هناك نقاش يذكر حول التقدم السياسي، وقد أدى الفصل على طول الخطوط الطائفية إلى جعل المصالحة السياسية غير متصورة.

* * *

قامت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بتحويل أحد المستودعات في منطقة دوما التي تقع على أطراف العاصمة السورية دمشق إلى مركز لاستقبال اللاجئين شمال دمشق للتعامل مع جموع المنفيين الجدد. كان مئات العراقيين ينتظرون لساعات يومياً في الطوابير ويسردون روايات تقشعر لها الأبدان، لتتكشف في دوما حقيقة ما حدث في بغداد التي نزح منها أكثر من ٨٠٪ من القادمين الجدد.

لقد كانت القصص مأساوية ومألوفة: ما بين زوج قتل بالرصاص، وطفل اختطف ثم قتل، واغتصاب جماعي للابن أو الابنة، ورسائل على باب المنزل تقول «الرحيل أو الموت». لقد كانت هناك عمليات تغيير وحشية متواصلة للسكان. وقد تتبعت الأحياء التي نزح منها المنفيين ورسمت خريطة ذهنية للعاصمة العراقية. وكان السؤال الأصعب هو «سُنِّي أم شيعي؟» فلو طرح السؤال لرفض أكثر المصطفين بالطابور إجابته، لكن الأمم المتحدة تحصي ذلك لأن «الدين» كان أحد البيانات الشخصية المطلوب تسجيلها. وقد كان أغلب النازحين الجدد من السُّنَّة.

عاش محمد يحيى ـ وهو طبيب بيطري يجيد الإنجليزية، عمل لثمانية عشر شهراً لدى مقاول حكومي أمريكي داخل المنطقة الخضراء ببغداد، ثم عمل مترجماً لدى مؤسسة صحفية بريطانية ـ في بناية قام جيش المهدي بافتتاح مكتب أمني فيها وبدأ في استجواب المستأجرين. وجد يحيى نفسه وقد بدأ يفكر في الطرق العديدة التي يحتمل أن يموت بها؛ ففكر في احتمال

قطع رأسه بتهمة الجاسوسية ـ وقد أخبره قريب له اتصال بجيش المهدي أن ذلك قد حدث لآخرين يعملون لصالح الأمريكان ـ أو مع تحول بغداد إلى مدينة أكثر خطورة قد يتم قتله على الطريق السريع المؤدي إلى وسط بغداد بالقرب من منزله في الحرية، التي عادة ما تضربها القنابل التي توضع على جانب الطريق. وكانت الانفجارات تهز الشقة وترجف نوافذها خاصة مع التنازع على حي الحرية عام ٢٠٠٦م. فقد انتقلت القاعدة إلى هناك واستقر ثلاثة قناصون فوق المسجد السُّنِّي بالقرب من البناية التي تقع فيها شقته. وكان يحيى يصدم من عمليات القتل الناجمة عن العنف والمنتشرة في كل مكان.

كان حي الحرية من الأحياء المختلطة التي يحيا فيها الشيعة والسُّنَّة معاً ويعقدون زيجات مختلطة تتجاوز الخطوط الطائفية خلال حكم صدام، لكن بحلول عام ٢٠٠٧م أُجبر العديد من السُّنَّة الذين يسكنون الحي على مغادرته على يد رجال جيش المهدي وأصبح الحي تقريباً جيباً شيعياً بالكامل.

علم يحيى بهزيمة من تبقى من مرتكبي أعمال العنف المنتمين للقاعدة في النهاية عندما رأى ثلاث رؤوس بشرية في حاوية القمامة بالقرب من منزله. وقد تم إحراق المسجد السُّنِّي وتحطيمه. وظهرت لافتات جديدة تحتفي بأئمة الشيعة في شوارع الحي. وبقيت الرؤوس البشرية أعلى حاوية القمامة لعدة أيام. وكان على محمد أن يحجب عن أطفاله هذا المشهد الشنيع عندما يغامرون بالخروج إلى الشارع، وقد قال بشكل جازم: «هذه رؤوس قناصي [القاعدة]»، وكان مقتل القناصين دليلاً على انتهاء المعركة بالحي. ومعنى انتصار جيش المهدي أن الأوضاع في حي الحرية سوف تهدأ، لكن الحياة اليومية للمقيمين بالحي تخضع لمراقبة وسيطرة رجال الميليشيات.

وسرعان ما بدأ طرد عائلات السُّنَّة المتبقية. وقد استطاع يحيى أن يرى من خلف ستائر شقته جيرانه على جانب الطريق وهم يستعدون للرحيل بحقائبهم الصغيرة، قال: «لم يكن مسموحاً لهم بأخذ الكثير معهم، سوى بعض الأغراض الشخصية، وأحياناً كانوا يجبرون على ترك منازلهم دون أخذ شيء معهم». وفي الأشهر القليلة التي تلت ذلك، تغير سكان أكثر من مائة منزل.

وقد أنشأت سرية عسكرية أمريكية نقطة أمنية في الحي كأحد تكتيكات زيادة القوات، لكن العراقيين الذين يسكنون حي الحرية من الشيعة وبقايا السُنَّة على حد سواء لا يؤمنون بقدرة الأمريكان على حمايتهم من الطرد أو من ميليشيات المهدي. وأصبح رجال الميليشيات هم الحكومة المحلية التي تتحكم في الحياة اليومية بتوزيع الوقود والدواء مقابل الولاء. وبدأ السفاحون الذين تحولوا إلى سماسرة للعقارات بتأجير الشقق التي قاموا بإخلائها للعائلات الشيعية التي طردت من أحياء بغداد الأخرى. وقد استقر السكان الجدد في بيئات جديدة مفروشة بعرق حياة الآخرين. وكانت تلك الترتيبات التي تقوم بها المجموعات الطائفية تتم في جميع أنحاء بغداد. وقد أدى هذا الطرد الإجباري لسكان المنازل وإحلال سكان جدد بها إلى تعقيد أي عودة مستقبلية جماعية للمنفيين. فمن الذي يستطيع حل قضايا ملكية المنازل لآلاف العراقيين المشردين؟

كان صفا رسول حسين يشاهد بدوره أحداث حي الحرية، ولكن من نقطة أكثر أماناً، من داخل المنطقة الخضراء. وكان صفا رسول قد تدرج في رتب القوات الجوية العراقية على عهد صدام حسين حتى وصل إلى رتبة عميد ثم عمل مديراً لأحد مراكز الأبحاث والتنمية في وزارة الصناعات الحربية. ولكن رغم عمله في عهد صدام، حافظ صفا رسول الضابط الشيعي ذو الرتبة العالية على قنوات مفتوحة مع المعارضين العراقيين في المنفى. ويوضح دوره قائلاً: «لقد كنت أعمل في السر؛ وكان عدد العاملين معي قليلاً. ولم أكن غريباً عن المنفيين عندما سقط صدام». في عام ٢٠٠٣م، تم اختيار صفا رسول للانضمام إلى مجلس الحكم العراقي في وظيفة نائب وزير، ونظراً لمعرفته الواسعة بالبلاد بشكل أكثر تفصيلاً وحداثة من أي منفي آخر عاد إلى العراق، وتم اختياره لعضوية مجلس الأمن الوطني للحكومة العراقية، وأصبح نائباً لمستشار الأمن الوطني. وقد شاهد بنفسه وصول الدعم الإيراني لجيش المهدي.

كان ذلك أحد أسباب تطهير الأحياء من العائلات السُنِّيَّة المتبقية كما أخبرني صفا رسول والذي أخبرني أيضاً بوجود أسباب أخرى ـ وأضاف: «تخيل نفسك عضواً بميليشيا جيش المهدي» مشيراً إلى تمرين ذهني كان كثيراً ما يقوم به هو نفسه كمحلل في مجلس الأمن الوطني: «أنت ملتزم

بالهجوم على الأمريكان والجيش العراقي. وما تريده هو منطقة آمنة لعملياتك، لذا فإنك تستهدف أي شخص تعتقد أنه يرتبط بالأمريكان أو الجيش العراقي». كانت تلك عملية استخباراتية تستهدف القضاء على أي شخص قد يشكل تهديداً بالنسبة لهم.

كان صفا رسول رغم أنه شيعي متزوج من سنية يزدري ميليشيا جيش المهدي ويقول واصفاً العمليات الشيعية: «هم الآن لا يتمتعون بالكفاءة الاستخباراتية، لذا فهم يرتابون من جميع السُنَّة ليصبح الانقسام مبنياً على الخوف». بالنسبة لرجال الميليشيات، كان الأسلم هو عدم ترك أي فرصة وتخليص الحي من جميع العائلات السُنِّيَّة المتبقية: «ولم تكن تلك قرارات استراتيجية أو أيديولوجية بل قرارات محلية؛ فهم يفعلون ذلك متى استطاعوا وهو توجه بشري». وقد أضاف صفا رسول سبباً آخر لعمليات طرد السكان في حي الحرية وغيره من الأحياء المختلطة في بغداد: «لقد دشنوا أعمالاً تجارية ضخمة من تأجير الشقق والتنافس فيما بينهم». في جوهرها، كانت خارطة بغداد الطائفية الجديدة محكومة بالدخل الثابت من سوق العقارات.

في اليوم الذي اتخذ فيه ضباط أمن الصدر مقراً لهم بإحدى الشقق الفارغة في البناية التي يسكنها، شعر محمد يحيى بأن الخطر الناجم عن عمله في السر كمترجم لصحيفة غربية في العراق قد أصبح وشيكاً، الأمر الذي جعله يحزم بعض الأمتعة الخفيفة استعداداً للرحيل إلى دمشق، مخبراً جيرانه بأنه ذاهب في عطلة مع عائلته إلى سوريا بعد أن انتهى العام الدراسي، وطلب من جيرانه الاعتناء بشقته، ثم أغلق الباب وأخبرهم أنه سيعود سريعاً. وكانت عمليات المغادرة تلفت انتباه حراس نقاط التفتيش وضباط الأمن الذين يمضون اليوم في الطابق السفلي؛ فلا زال ليحيى أقارب في بغداد، ولو انكشفت وظيفته السرية قد يجعلهم ذلك في خطر.

وقال يحيى: «حتى هنا في دمشق، لا أخبر الناس أنني كنت أعمل مع الأمريكيين»، ثم أضاف: «إنني أعلم أن جيش المهدي هنا في دمشق ويمكن أن يؤذوا عائلتي في العراق، فقد عاد والداي إلى العراق».

لقد استأجر شقة في منطقة يعيش فيها السوريون بدلاً من الأماكن

الرخيصة الموجودة بالعشوائيات والتي يتكدس فيها اللاجئون؛ لأنه يعتقد أنه من الأفضل أن يتجنب العيش مع أصدقاء أو أعداء من الوطن. وقد أخبرني يحيى أنه يشعر بأنه آمن في دمشق، فهو الآن يستطيع أن ينام في مدينة دون سماع أصوات النيران في الليل. لقد أصبح يسير في الشارع دون أن ينظر خلفه باستمرار، ولكنه مثل معظم الذين يعيشون في المنفى يعاني من أن مدخراته على وشك النفاد. لقد كانت الإيجارات في دمشق تزداد، وكان تعليم ابنه الأكبر يكلفه الكثير. كما فرضت الحرب أسعاراً عالية على عائلته أيضاً، كما أخبرني قائلاً: «ابني الصغير مازال يعاني من أحلام مزعجة ويبكي في الليل. لقد كان يعاني من التأتأة ويرفض أن يذهب إلى رياض الأطفال، ويصر على أنه يجب أن يبقى مع أمه في المنزل».

كان أكثر ما يقلق يحيى هو هذا السؤال: كم سيمكث في دمشق؟ لم يكن هناك عمل، كما أن ما يجده مع مرور الأيام يضع عليه ضغطاً متزايداً مع ارتفاع معدل الجرائم وارتفاع الأسعار بشدة. وقد كانت هناك شائعات تتردد بقوة في مجتمع المنفى بأن الحكومة السورية سرعان ما ستنهي إقامة العراقيين.

في شوارع السيدة زينب ـ وهو الحي الذي يستأجر فيه الكثير من المنفيين العراقيين شققاً رخيصة ـ كان إيقاع اللهجة العراقية العربية متجسداً في أصوات الكاسيت التي تغطي عليها هتافات الباعة المتجولين في الشارع وهم ينادون «بغداد، بغداد» و«الحدود، الحدود»، وكانت هذه الهتافات تذكر العراقيين دائماً بأنه من أجل المحافظة على ختم قانوني في جواز السفر يجب عليهم في كل تسعين يوماً السفر إلى الحدود للحصول على ختم مغادرة، ثم يعاودون الدخول إلى سوريا. وقد كانت هذه الرحلة مكلفة ومتعبة، وبخاصة بالنسبة للأسر والأطفال. لكن عراقيي المنفى يعرفون أن السوريين يمكن أن يتوقفوا في أي وقت عن ختم جوازات السفر ولا يسمحون لهم بالعودة.

لقد كانت كل هذه المخاوف تلقي بظلالها على مجتمع المنفى أثناء زيارة رئيس الوزراء المالكي في أغسطس/آب ٢٠٠٧م، وهو أول وفد رفيع المستوى يصل إلى دمشق منذ أن استعاد البلدان العلاقات الدبلوماسية منذ

عام واحد بعد عشرين عاماً من انقطاعها. وأثناء حكم صدام، كانت العداوة بين دمشق وبغداد ظاهرة في الأختام على جوازات السفر السورية، حيث سمحت السلطات بالسفر إلى «جميع الدول العربية باستثناء العراق». لكن الحدود كانت مفتوحة منذ ٢٠٠٣م وكان الانتقال بين الحدود على رأس جدول أعمال العلاقات بين البلدين.

وفي هذه الحقبة الجديدة رحب السوريون بالمالكي. وقد أبدى الوفد العراقي مشاعر حميمة وتم استقباله استقبالاً رسمياً. لقد كانت أول رحلة للمالكي إلى الخارج باعتباره رئيساً للوزراء، كما كانت بمثابة عودة شخصية إلى الوطن، فقد كان هو أحد المنفيين السياسيين في دمشق. ومن دمشق ساعد المالكي في الثمانينيات على تنظيم شبكات اقتصادية في الخارج ومقاتلي عصابات مسؤولين عن التسلل مرة أخرى إلى الحدود لمحاولة إضعاف نظام صدام. لقد عرف المالكي بنفسه الصعوبات التي تواجه مجتمع المنفى، كما عرف جيداً أن مجتمع المنفى يمثل منطلقاً لتوليد المنظمات المنشقة والسرية. ففي دمشق ولأكثر من عقد، كان المالكي عضواً فاعلاً في جماعة «الدعوة»، وهي حركة شيعية سرية، وكان هو نقطة الاتصال بين مجموعة الدعوة وبين المخابرات السورية.

وكان الهدف من الزيارة رفيعة المستوى إلى دمشق هو إضفاء الصبغة الرسمية على العلاقات الأمنية مع سوريا، وأما الهدف من الاتفاق فكان لتعزيز التواجد الأمني على الحدود المليئة بالثغرات التي تمتد لمسافة ٤٦٦ ميلاً، والتي أصر مسؤولو الولايات المتحدة على اعتبارها نقاط عبور لمعظم المحاربين الأجانب الذين جاءوا للانضمام إلى جماعة القاعدة في العراق. وقد أخبر المالكي المسؤولين السوريين أن التدفق المستمر للاجئين كان يمثل أيضاً تهديداً للأمن، ولهذا السبب أراد إغلاق الحدود. ولا يقل أهمية عن هذا السبب أن التدفق المستمر للعراقيين الخائفين إلى الحدود السورية يمثل مصدر حرج لحكومته.

ومع وقف هذا التدفق عبر الحدود، وضعت الحكومة العراقية خطة لتوضيح التقدم الذي تم إحرازه لأعضاء الكونجرس الأمريكي الذين كانوا ينادون بطرد المالكي؛ فإذا بدأ بعض المنفيين في العودة إلى بغداد يمكن

للمالكي أن يوظف هذه العودة في سبيل التدليل على نجاح الخطة الأمنية الجديدة، وانتصار منظومة العلاقات العامة التي يتحرك من خلالها.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧م، ازدادت العلامات أن مكاتب تشكلت وسط اللاجئين بدمشق وصارت توفر رحلات مجانية بالحافلات، وتعطي ٨٠٠ دولاراً لكل أسرة توافق على العودة إلى العراق. كما أذاع التليفزيون الحكومي العراقي إعلانات استخدمت وصفاً موجزاً يركز على المشاعر يظهر أنه قد تمت استعادة الأمن في العراق. وقد صرح علي الدباغ المتحدث الرسمي باسم الحكومة: «إن الحكومة العراقية تتطلع إلى عودة العراقيين إلى بلدهم وأن يعيشوا حياة عادية وآمنة». ولكن مامدى جدية الحكومة في هذا التطلع؟

في أحد أيام الشتاء المشمسة: وقفت عشرون حافلة، في كل حافلة منها مقاعد لحوالي ثلاثين أسرة ممتدة، وقد امتلأت بسرعة وانطلقت إلى الجنوب الشرقي من دمشق. لكن قافلة العودة قد توقفت بمجرد عبورها الحدود بسبب أن سائقي الحافلات السوريين لم تكن لديهم المستندات اللازمة لقيادة الحافلات إلى بغداد. واضطر الركاب إلى الانتظار طوال الليل والنوم في الحافلات ريثما وصل سائقون من بغداد لإكمال الرحلة. انطلقت القافلة ـ التي تحميها هليكوبتر وحراس من الشرطة ـ ببطء حتى وصلت إلى العاصمة العراقية بعد أكثر من أربعين ساعة من المغادرة من دمشق، وهي الرحلة التي تستغرق عادةً أربع عشرة ساعة.

وقد تم تقديم التحية للعائدين المستنزفين في حفل استقبال في فندق بغداد، وقام وزير حكومي ذو صوت عالٍ بتسليم المبالغ التي وعدت بها الحكومة. وقد صورت التليفزيونات العالمية هذا الحدث، ولكن لم يكن هناك من أحد يستقبلهم لأنه قد تم إخبار أقربائهم خطئاً بأن نقطة الوصول هي وسط المدينة. وبالرغم من ذلك كانت أول رحلة برية تمولها الحكومة هي الرحلة الوحيدة التي تكفلت بها الحكومة في عام ٢٠٠٧م، وكانت تمثل نجاحاً في العلاقات العامة. وقد أشاد كثير من المعلقين والسياسيين في الولايات المتحدة بعودة اللاجئين، فقد أصروا على أنها علامة واضحة أن الغزو الأمريكي للعراق كان ناجحاً. وكانت الصور التليفزيونية للعائلات العائدة دليلاً على ذلك.

وبعد ذلك بأسابيع، اتضح أن بعض العائدين تم اختطافهم بمجرد مغادرتهم حفل الاستقبال، وتم احتجازهم مقابل الثمانمائة دولار التي حصلوا عليها نقداً من المنحة الحكومية. ولم يتمكن إلا ثلث هذه العائلات من العودة إلى موطنها الأصلي؛ فقد اكتشف الباقون أن هناك عائلات أخرى قد أخذت ممتلكاتهم وهي ترفض الآن الخروج من هذه الممتلكات. وقد كان هذا الرفض مصحوباً بإشهار الأسلحة. ومع عدم وجود أي آلية لفض النزاعات على الممتلكات، انتقل العائدون من المنفى للحياة مع أقربائهم أو إلى غرف مؤجرة في مواقع جديدة، وكل عائلة تختار حيزها المكاني وفقاً لهويتها الطائفية. وبعض هؤلاء العائدين لم يجدوا بديلاً عن العودة مرة أخرى إلى دمشق، دون أن يتساءلوا: إن كانت الحدود مغلقة أم لا.

وسرعان ما انتقلت قصة رحلة الحافلة المكلفة إلى مجتمع المنفى في دمشق. وقد قرأ العراقيون عنها على الإنترنت وناقشوا تفاصيلها مع أقربائهم الذين عادوا إلى الوطن، كما استطاعوا أن يروا أيضاً اللقاءات المتعددة مع المتحدث باسم الجيش الأمريكي على قناة الجزيرة وهو يقول: إن بغداد ليست جاهزة بعد لتدفق كبير للاجئين لأن ذلك من شأنه تقويض الوضع الأمني الهش في العاصمة.

ومرة أخرى في دمشق فتحت الحكومة العراقية العديد من المكاتب عبر المدينة التي مَكَّنَت العراقيين من تقديم طلباتهم للحصول على رحلة مجانية بالحافلة إلى وطنهم. وبعد عدة أسابيع من القافلة الأولى، ذهبت إلى مكتب الحكومة العراقية في السيدة زينب لأرى ما إذا كان هناك من أحد يتقدم بطلبات. وقد كان المسؤول هناك رجلاً يدعى فائق سعدي وهو رجل قصير وأنيق يضع خريطة معدنية صغيرة للعراق على سترته، وصلت هناك دون ميعاد ولكن سعدي رحب بي بحرارة في مكتبه، وقد نطق جملة إنجليزية متقنة: «مرحباً، سعدت بمقابلتك»، ثم سلم عليَّ. كانت هذه الجملة هي كل حدود مهاراته اللغوية الإنجليزية، فقد قضى وقتاً في الولايات المتحدة وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وقد قال بالعربية: إن هذه الجملة هي الجملة الوحيدة التي يتذكرها.

وقد أخبرني ببطء ـ مشيراً إلى رجل آخر معنا في الغرفة أن يحضر لي الشاي ـ: «إن مشكلة الحافلات هي مشكلة معقدة»، وأضاف «لقد كنا نشعر بالحرج لأن المتحدث الحكومي أخبر الناس أن هذه الحافلات ستنظم رحلة كل يوم»، ثم تابع حديثه حينما وصل الشاي أخيراً.

وعندما سألته عما إذا كان يعتقد أن الحكومة العراقية ستواصل هذا البرنامج من خلال تمويل المزيد من رحلات الحافلات، لوح باحتمال ذلك بعد أن هز أكتافه بصورة غير مقنعة. وفي الحجرة الأمامية من المكتب، ملأ زوجان عراقيان النموذج من أجل التسجيل بقائمة المسافرين في الحافلة التالية، ولم يأت أحد في هذه الليلة إلى المكتب غيرهما.

في هذه الليلة الباردة، وعلى حافة الرصيف في مقدمة المكتب الحكومي، كان هناك رجل عراقي يلبس ملابس رياضية بالية ويجلس على كرسي متحرك خلف منضدة بلاستيكية محمولة. رأيته يبيع بطاقات شحن للهواتف النقالة لمجموعة من الرجال الذين كانوا يشحنون هواتفهم كي يتحدثوا إلى ذويهم في العراق. وقد كانت الاتصالات مع بغداد متواصلة، وكان السؤال دائماً: هل الوضع هناك تحسن بأي حال من الأحوال؟ هل الوضع آمن للعودة؟ لقد كانت الرسالة التي يبعثونها دائماً من الوطن: «ابق حيث أنت، فما زالت هناك العديد من حوادث القتل».

الفصل الرابع

ذلك أوان السخط

عبَّرت دار الأسد للثقافة والفنون عن طموح سوريا في أن تصبح مركزاً للثقافة في الشرق الأوسط. تلك الدار التي يقع عند مدخلها عمل فني مميز على هيئة نصب تعبيري حديث لسيف الخليفة الأموي المصنوع من الزجاج الملون، في إشارة لفترة تاريخية كانت دمشق فيها أقوى عاصمة للعالم الإسلامي. وينعكس طموح الرئيس الشاب لسوريا في مجال الاندماج الغربي العربي، والذي اتضح من الحفلات الكلاسيكية للفرقة السيمفونية الوطنية السورية والرواق المكسو بأخشاب لامعة فاتحة اللون في معرض للرسامين والنحاتين العرب. وقد سميت الدار على اسم عائلة الرئيس الأسد الذي قام بافتتاحها عام ٢٠٠٤م بصحبة زوجته أسماء ـ سورية الأصل وبريطانية المولد ـ التي كانت تعمل قبل ذلك في بنك جي بي مورجان. ويعتبر الزوجان بدورهما رمزاً للاندماج الغربي العربي بصفتهما سوريان علمانيان يتحدثان الإنجليزية بعد أن أتما تعليمهما في الغرب. وقد درس الرئيس طب العيون في لندن؛ بينما درست زوجته ـ المتألقة التي تحولت من مصرفية إلى سيدة أولى ـ في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفرد قبل أن تترك الدراسة لتنضم إلى العائلة الحاكمة.

اختارت اليونسكو دمشق لتكون «عاصمة للثقافة العربية» لعام ٢٠٠٨م، وهو العام الذي شهد طوال أيامه تقديم المسرحية المثيرة للجدل «ريتشارد الثالث، مأساة عرب». وقد كانت الدعاية السابقة لعرض المسرحية ساحرة. وفي هذه المسرحية تم استخراج نسخة عربية لملك شكسبير الطاغية على يد مخرج مسرحي كويتي شاب: «في عالم يسود فيه الولاء للقبيلة، والصراع الأسري والسلطة المطلقة، تتخذ قضايا القيادة والدين والتدخلات الخارجية التي هي من صميم مسرحية شكسبير معانٍ جديدة أكثر حدة في السياق

العربي الإسلامي المعاصر». وقد نفدت التذاكر بمجرد طرحها للجمهور. ومثلت موضوعات المسرحية محاكاة مثيرة للديناميكيات الداخلية لنظام الأسد. فقد تركت الصراعات الأسرية والسلطة المطلقة وقضايا القيادة والدين علاماتها أثناء فترة حكم عائلة الأسد. ومع ذلك فقد كان الحديث في هذه الموضوعات ممنوعاً في أي محيط عام آخر. لذا فقد توقع الجمهور الأنيق المحتشد في المسرح مشاهدة حدث سياسي بقدر ما سيقضون ليلة من الدراما، لاسيما وأن القانون السوري يجرم أي تجمع يزيد عن خمسة أفراد دون إذن حكومي، للحد من المعارضة السياسية المنظمة للنظام. لكن ذلك لم يكن ينطبق على هذا العرض المسرحي الذي ضم بين مشاهديه مجموعة من المعارضين السياسيين السوريين دون خوف.

تحت حكم الأسد، حظي المسرح السياسي التحريضي بالقبول منذ الستينيات، وهي الفترة التي قدمت خلالها الشركات الخاصة أعمالاً درامية نقدية صممت لجذب النخبة المثقفة بدمشق. وكانت أشهر الأعمال المقدمة من تمثيل فرقة «مسرح الشوك»، التي اشتهرت بالنقد السياسي المبتكر من خلال الغناء والرقص والتي أثرت في الإنتاج الدرامي في مختلف بلدان الشرق الأوسط. وقد كان إنتاج العراقيين في المنفى لحلقات «انباع الوطن» كعمل تلفزيوني ساخر يتناول موضوعات البيروقراطية والقمع والانتهاك السياسي قد اتخذ من الدراما السياسية المبتكرة التي عرضت بدمشق في السابق نموذجاً له. وتعتبر السياسة في الشرق الأوسط مسرحاً حيًّا يمتلأ بمواقف وتضخمات التوقير والاحترام. والمسرح هو أكثر سبل ملاحظة التفاصيل الدقيقة للسلطة رمزية وإيضاحاً. ولأنه غير موجه للجماهير الغفيرة، يتم التسامح بشأن المسرحيات أكثر من غيرها من الوسائط لقلة جمهورها واقتصارها على النخبة.

تدفق الجمهور إلى مسرح صغير داخل دار الأوبرا بدمشق، وكان الرجال يضعون قبعات رياضية، ويلبس بعضهم بدلة، وترتدي النساء الحجاب، وتتحدث بعضهن في الهواتف الجوالة. ومع اقتراب موعد رفع الستار وتجاوز ذلك الموعد، بدأ الضجر يصيب الجمهور. وازداد الحديث في الهواتف الجوالة، وتوقف ذلك كله مع جلبة صغيرة على يمين خشبة المسرح عندما فوجئ الجمهور برؤية الرئيس السوري وزوجته الشابة يأخذان

مكانهما بشكل لافت في المقاعد الأمامية. وقد انطلقت عاصفة من التصفيق المتصل الذي لم يتوقف إلا مع خفوت الإضاءة إيذاناً ببدء العرض.

على خشبة المسرح، تم تقديم دراما شكسبير عن السلطة والخيانة في سياق عربي حديث تحول فيه ريتشارد دوق غلوسستر إلى أمير غلوسستر، مع الثياب الفضفاضة والسحر التهديدي المجنون للديكتاتور العراقي السابق صدام حسين. كان باكينغهام الماكر يلبس بدلة غربية ويتحكم في وسائل الإعلام الحكومية ويتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA).

تناولت المسرحية موضوعات سورية مثل تطويع التكنولوجيا الحديثة لخدمة الدعاية المتطورة، واستخدام الدين لتبرير ارتكاب الأعمال الوحشية، والفساد، والخيانة. كان كل شيء يتم «تحت الطاولة» في سوريا واضحاً على خشبة المسرح، بعد أن جلبه الكاتب المسرحي الإنجليزي من القرن السادس عشر وقام الفنان الكويتي الشاب ـ الذي كان من بين الحضور ـ بإدخال تعديلات عليه ليناسب أجواء الشرق الأوسط في الوقت الحالي. وقد ازدادت الإثارة مع مشاهدة العرض المسرحي في حضرة حاكم عربي مستبد. بعد ذلك قام الكاتب المسرحي بمقارنة التجربة مع شكسبير وكتيبة ممثليه ومع الملكة إليزابيث وبلاطها. وقد انجذب الجمهور الذي كان أغلبه من السوريين بالدراما المعروضة على خشبة المسرح بقدر انجذابهم للشخص الجالس في الصف الأمامي.

كان عمر أميرالاي يفكر في كل ذلك عندما ذهبت لرؤيته بعد العرض بأيام قليلة، بعد أن لمحته بين الجمهور وهو جالس خلف مقعدي بعدة صفوف ومتجهاً بنفس النظرة المباشرة إلى الرئيس بشار الأسد. ويعتبر أميرالاي شاهداً رائعاً بما له من تاريخ عملي طويل في الأفلام الوثائقية والمعارضة والانضمام إلى «المجتمع المدني» السوري الذي يعاني من القمع.

«عندما تحدث أحد الممثلين عن انتخابات حصل فيها الزعيم على ٩٩,٩٩ في المائة من الأصوات، انفجر الرئيس الأسد ضاحكاً. هل رأيت ذلك؟» في الحقيقة لقد لمست ضحكة رئاسية ـ نابعة من القلب يصل عمقها إلى الضرب باليدين على الركبتين ـ على التقليد اللامعقول في الانتخابات

الخاضعة للرقابة في العالم العربي: كانت النسبة المذكورة في الاستفتاء السوري الفعلي عام ٢٠٠٠م، عندما خلف بشار الأسد أبيه في منصب الرئاسة هي في الواقع نسبة تقترب من ٩٩,٩٩ في المائة.

يعلق أميرالاي على ذلك قائلاً: «تفسيري لهذا الموقف الساخر هو أنه عندما لا يكون للمجتمع المدني أي نفوذ، أو عندما لا يمثل أي خطورة على النظام، عندها يصبح النقد السياسي من قبيل التسلية».

سَجنت السلطات السورية العديد من أبرز المعارضين السوريين على مدار السنوات القليلة الماضية في حملة قمع قضت على معظم «المجتمع المدني» وأنهت أي معارضة منظمة للحكومة لدرجة أن جعلت استمرار رغبة أميرالاي في النقد العلني من الأمور المثيرة للدهشة.

لكنني أوضحت: «لقد وصل عدد الجمهور إلى نحو مائتي مشاهد» مع ملاحظة أن أفراد الجمهور قد ضحكوا من قلوبهم تماماً كما ضحك الرئيس.

رد أميرالاي قائلاً: «لا يمثل ذلك شيئاً لأنه أشبه ما يكون ببقعة زيت صغيرة» موضحاً أن أعداد الجمهور قليلة وأن الدعابة كانت على حساب جميع المشاهدين.

فاز بشار الأسد في الحسابات العملية التي يعتد بها في المنطقة. كان الرئيس السوري الشاب اختياراً عرضياً. فقبل عدة سنوات في أحداث درامية أشبه بأعمال شكسبير، تخطى عمه الشقيق حدود الطموح وتم نفيه إلى باريس. وكان مخططاً أن يتولى الشقيق الأكبر لبشار الأسد، باسل الذي تميز بالجرأة والقوة خلافة والده حافظ الأسد. اختار بشار الأسد دراسة الطب؛ ليتخرج طبيب عيون. وعندما مات الوريث المنتظر في حادث سيارة على الطريق السريع عام ١٩٩٤م، تم استدعاء بشار من لندن على عجالة، قاطعاً بذلك إقامته في مستشفى ويسترن آي التابعة لمستشفيات سانت ماري في بريطانيا. وقام والده بترقيته سريعاً عبر مختلف رتب القوات المسلحة لإعداده للوظيفة المنتظرة. وقبل أن يصبح رئيساً لسوريا، لم يكن لبشار أي دور سياسي سوى رئاسة الجمعية السورية للحاسب الآلي. وفي يونيو/حزيران ٢٠٠٠م، عندما توفي حافظ الأسد بشكل مفاجئ، أصبح وهو في الرابعة والثلاثين أصغر حاكم في الشرق الأوسط. وبعد ثماني سنوات، نجح في

مواجهة القوة العظمى في العالم وبقي في منصبه في الوقت الذي غادره فيه جورج بوش. وقد حقق بشار الأسد استفادة جيدة على الصعيدين الداخلي والخارجي من تصديه لرئيس الولايات المتحدة.

في ربيع ٢٠٠٣م، عندما اتخذ ساسة سوريا موقفاً معادياً للغزو الأمريكي للعراق، اتحد «الشارع» السوري خلف نظامه لاقتناعهم بأن الغزو الأمريكي يستند إلى ادعاءات أمريكية كاذبة حول حيازة صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل وارتباطه بالقاعدة. وتحدت القيادة السورية دعوة الرئيس جورج بوش لحمل السلاح والتلويح بالوقوع تحت طائلة القانون الدولي. كانت سوريا، الخاضعة لحكم أحد أقل النظم ديمقراطية في المنطقة، أكثر تناغماً مع المشاعر الشعبية عبر مختلف أنحاء العالم العربي وذلك أكثر من الحكومات العربية الأخرى.

تابع السوريون الغزو الأمريكي للعراق عبر شاشات التلفزيون أثناء تدخين الشيشة ولعب الطاولة في مقاهي وسط العاصمة في وقت متأخر من الليل. ولاحظوا عبر الشاشات الصغيرة التخريب المتعمد للمتاجر التي تزدحم بها الشوارع المرصوفة بالحصى في المدينة القديمة، والمحاطة بروائح الهيل والقهوة الطازجة، وعبر الشاشات المسطحة في الحانات التي تعج بالدخان ورائحة الشراب قام السوريون بدراسة وتحليل الفوضى المنتشرة بالعراق في جو من القلق. ورغم احتمال كراهيتهم لنظامهم الحاكم، فقد كانوا متفقين على معارضة قيام قوة خارجية بفرض تغيير النظام في بغداد، فضلاً عن دمشق.

بخلاف معظم الأردنيين، لم يكن السوريون يحبون صدام حسين؛ كما لم يعتبروه حاملاً للواء المسلمين السُّنَّة ضد شيعة إيران، وهي النظرة السائدة في المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج. وفي عام ١٩٧٩م كانت سوريا هي أول بلد عربي يعترف بالنظام الديني الجديد في إيران، ويدعم طهران طوال فترة الحرب الإيرانية العراقية الطويلة التي دارت رحاها في ثمانينيات القرن الماضي، الأمر الذي جعل صدام يقوم سراً بتمويل جماعة الإخوان المسلمين في سوريا في تحدٍ للحكومة التي جعلت البلد على شفا حرب أهلية. وقد أرسل صدام عملاءه إلى سوريا لتدبير هجمات

بسيارات مفخخة في العاصمة السورية وفي مدينة طرطوس الساحلية. ورداً على ذلك، رحبت العاصمة السورية لعقود بالمنفيين السياسيين العراقيين، ووفرت لهم ملاذاً آمناً، ودعمت الخطط المناوئة لصدام. وهو ما يبرر استقرار رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي في دمشق لأكثر من عشرين عاماً في منفاه.

ولكن رغم ما شعر به السوريون من سعادة لإقصاء صدام حسين، فقد خفف من سعادتهم هذه القلق الناجم عن التمركز العسكري الأمريكي على الحدود الشرقية لسوريا. ويوضح ذلك دبلوماسي غربي يعمل في دمشق قائلاً: «كانت تلك اللحظة مفعمة بالأحاسيس، وكانت استجابة الأسد مدفوعة بنبض الشارع» وذلك بعد أن رضخ الحكام العرب السُّنَّة في مصر والسعودية والأردن في هدوء بعد تجاهل الرئيس جورج بوش تحذيراتهم واستعد للحرب. وقد اكتسب الموقف التقليدي السوري المعادي للولايات المتحدة زخماً مدفوعاً بغضب الشارع.

وأضاف الدبلوماسي قائلاً: «تنبأ المستشارون المحيطون بالرئيس الشاب الجديد الذي لم يُختبر بعد، بشار الأسد، بأن الغزو الأمريكي سوف يجعله ينخرط في البكاء، ولم يرغبوا في أن يكونوا في الجانب الخاسر خاصة وقد كان والده دائماً ما ينحاز للفائزين».

في عام ١٩٩١م، قام حافظ الأسد بدعم الرئيس جورج بوش ضد صدام حسين في حرب الخليج الأولى. وأثناء الاستعداد للحرب، شاركت القوات السورية في مناورات عسكرية مشتركة في الصحراء السعودية مع مدربين أمريكيين قاموا بتدريب قائدي الدبابات السوريين على عمليات الدعم الجوي الوثيق. وهو أسلوب يتطلب تنسيق على أعلى المستويات بين القوات الجوية الأمريكية والجيوش العربية على الأرض. وكانت تلك هي أقرب علاقة على الإطلاق بين القوات السورية والقوات الأمريكية. فقد اقتنع السوريون في نهاية الأمر بأن ذلك لتحقيق الصالح العربي بعد أن تم تصوير الدفاع عن الكويت بوصفه دفاعاً عن دولة عربية تعرضت لغزو غير مشروع على يد المتهور صدام حسين. وفي ذلك الوقت، استفاد حافظ الأسد من قراره بدعم الولايات المتحدة. وبعد الهزيمة النكراء لجيش صدام حسين،

أمطر عرب الخليج سوريا بالاستثمارات؛ وسمحت إدارة بوش لدمشق ببسط نفوذها على دولة لبنان المجاورة، حيث استقر هناك الجيش السوري لمدة طويلة. وقد أدى انتعاش العلاقات السورية الأمريكية إلى انضمام سوريا إلى عملية السلام في مدريد عام ١٩٩١م بعد نحو عقد من الوساطة في المفاوضات بين إسرائيل وسوريا.

كانت الحرب في ٢٠٠٣م ميراثاً لأبناء الرؤساء: بشار الأسد وجورج بوش الابن، ولكن هذه المرة كانت الأمور مختلفة تماماً، ففي حرب الخليج الأولى لم يتمكن الرئيس جورج بوش الأب من إقصاء صدام، وهو أمر لم يكن الابن يعتزم تكراره. وفي ذلك الوقت، كان بقاء بشار الأسد وبقاء نظامه يعتمد على التحليل الدقيق لعواقب انهيار القطر العربي المجاور. وتبين أن إقصاء نظام عربي علماني بالقوة لعدم خضوعه لأهداف السياسة الأمريكية هو أمر لا يسع بشار الأسد دعمه.

وبمجرد بدء الحرب، بدأ الشيخ أحمد كفتارو صاحب أعلى سلطة إسلامية في سوريا بتشجيع المجاهدين على الذهاب إلى العراق قائلاً: «أدعو المسلمين في كل مكان إلى استخدام كافة الوسائل الممكنة لوقف هذا الاعتداء ويتضمن ذلك العمليات الاستشهادية ضد المعتدين الأمريكان والإنجليز والصهاينة المحتلين». وتناقلت وكالات الأنباء العالمية دعوته للتسليح. والمؤكد أن بيان الشيخ كفتارو الذي يعد رمزاً دينياً يتمتع بشعبية، كان بياناً مشحوناً بالسياسة ولم يكن ليصدر بدون دعم كامل من النظام الحاكم.

في محطة الحافلات المركزية، اصطف الشباب السوريون وغيرهم من العرب لاستخدام الهاتف العام لطلب أرقام هواتف خارجية لوداع أحباءهم الوداع الأخير. حضر هؤلاء إلى دمشق للحاق بإحدى الحافلات الكثيرة التي وفرها قسم الشؤون العراقية، ومنهم من أنفق آخر مدخراته المالية لحجز مقعد في أحد التاكسيات السورية التي تقطع مسافات طويلة والتي تذهب إلى الشرق.

وبينما أنكر المسؤولون السوريون تيسير سفر المجاهدين المتطوعين عبر الحدود إلا أن هذه الهجرة الجماعية اعتبرت حدثاً قومياً. وقد أخبرني أحد

المبعوثين الدبلوماسيين إلى دمشق في ذلك الوقت أنه حين تلقى اتصالاً من أحد المحللين في المخابرات الأمريكية في واشنطن يسأله إذا كان يستطيع أن يؤكد ما إذا كان المجاهدون المتطوعون يتحركون بالفعل من العاصمة السورية، فأجاب: «صديقي، أنا أستطيع أن أراهم من نافذتي!» ولسخرية القدر كانت سفارتا أمريكا والعراق متجاورتين، وكان موقف انتظار حافلات النقل في شارع مشترك بينهما.

وحظي الرئيس بشار بدعم شعبي واسع لموقفه الصلب ضد الحرب الأمريكية في العراق، إلا أنه في ذلك الوقت تنبه السوريون إلى خطر السقوط السريع لنظام صدام في بغداد والفوضى التي لحقت بذلك. هل سيكون بإمكان الأمريكان استعراض عضلاتهم مرة أخرى؟ تحدث السوريون بصوت عالٍ عن مخاوفهم بوجود خطط لدى الأمريكان للزحف نحو المدينة أيضاً. لقد سمعوا أصواتاً أمريكية مؤثرة تنادي بغزو سوريا. ولأول مرة كانت هناك غارات جوية في ربيع عام ٢٠٠٣م في دمشق، وكان الجنود الأمريكان على أعتاب الأبواب السورية. كان تغيير النظام الحاكم أول شيء هو الوسيلة الفعالة في الاستراتيجية الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط.

وقال لي المبعوث الدبلوماسي: «لقد كانت مجموعة ذات مهمة خاصة، لقد كانت صيحات الناس ترتفع مطالبة بمساعدة المقاومة العراقية.» لم نتمكن من إيقاف المد الذاهب إلى العراق وذلك لأن الغزو الأمريكي قد هدد النسق التقليدي للقوة الطائفية في الشرق الأوسط: فقبائل العرب السُّنِّيَّة على الحدود السورية ترتبط بقرابة دم ـ كقرابات العمومة والخؤولة والمصاهرة ـ مع امتداداتها القبلية في العراق.

هل قامت سوريا بتشجيع المجاهدين الذين اشتروا تذاكر بلا عودة وهبطوا في مطار دمشق أو من خلال سفرهم البري عبر الحدود من لبنان إلى الأردن؟ يعتبر ذلك افتراضاً مستبعداً باعتبار كراهية سوريا للمجاهدين المتواجدين في نطاق الحدود السورية، إلا أنه تم السماح لهم بالرحيل بسلام. وكانت سوريا التي ظلت معظم الوقت تحكمها الأقلية العلوية تضيف «بطاقة سنية» لتقوية الجانب الضعيف مقابل المشروع الأمريكي في العراق. وقد قال المبعوث الدبلوماسي ـ مشيراً إلى المجندين المتأثرين بتنظيم القاعدة

الذين انضموا إلى الهواة المتحمسين ـ: «وجد المسؤولون السوريون أنفسهم يساعدون هذه الجهود. لم يكن واضحاً التوقيت الذي بدأ فيه حضور المحترفين. ظل السوريون دائماً مختلفين بشأن هؤلاء. لا أظن أن السوريين أرادوا فيضاناً، لقد كان كافياً أن يبعث على الضيق». وأخيراً تجمع المجاهدون المحترفون في سوريا، وانضموا إلى نظام سلفي ضمهم جميعاً ورتب لرحلتهم بتهريبهم عبر الحدود إلى العراق. وقد كان الاستشهاد في العراق هو النتيجة الحتمية سواء للمتشددين من المواطنين أو المحاربين المغتربين من العرب.

وقد تسبب ذلك في ضيق بالغ لواشنطن، فقد ساهمت شبكة المجاهدين الواسعة في تغذية التمرد في العراق والحرب الأهلية الطائفية التي تلت ذلك. طلبت إدارة بوش أن توقف سوريا المرور عن طريق دفع قوات أمنية على طول حدودها مع العراق. ولمزيد من الضغط، عملت واشنطن بنشاط على إجبار سوريا على الدخول في عزلة دبلوماسية في أوروبا والشرق الأوسط مع فرض عقوبات جديدة على الحكومة السورية والأفراد في القيادة. وقد لخصت تركيبة نائب الرئيس ديك تشيني هذا النهج: فالإدارة لا تكافئ السلوك السيئ.

قررت واشنطن أن تشرف على هذا التعاون في عام ١٩٩١م لترى ما إذا كان هناك المزيد من السلوك السيئ من قبل سوريا. حيث كانت سوريا عضواً بارزاً في قائمة «الدول التي ترعى الإرهاب» التي أعدتها الإدارة الأمريكية منذ عام ١٩٧٩م. وفي خطوة تجاه الحرب، وجهت إدارة بوش إنذاراً إليها حول العلاقة المربحة التي نشأت مؤخراً مع صدام حسين. وقد تسبب برنامج تهريب النفط عبر خط أنابيب كركوك ـ بانياس في توقيع عقوبات الأمم المتحدة ضد العراق في أغسطس/آب عام ١٩٩٠م. وبعد الاحتلال، أغضب وزارة الدفاع الأمريكية الانتقال السهل للمحاربين الإسلاميين المتجهين للشرق للانضمام لجيش المقاومة العراقية. وقد استطاعت هذه القوى الأجنبية بالرغم من قلتها بالنسبة للمقاتلين في العراق إلى تحويل أرض المعركة أمام جيش أمريكي غير مجهز وغير مدرب على مواجهة التمرد.

لم يقم الرئيس بوش بتحديد سوريا على وجه الخصوص كجزء من محور الشر، ولكن إدارته اعتبرت بشار الأسد عقبة في طريق الخطط التي تطمح للتحول الديموقراطي في المنطقة. واتهم بوش الرئيس بشار بدعم التمرد في العراق وأنه ساند اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق وقد زعزع هذا الاغتيال الديموقراطية الهشة في لبنان، وأنه يشجع الإرهاب ضد إسرائيل من خلال تسليح حزب الله والسماح للقادة العسكريين الفلسطينيين بالعمل بحرية في دمشق.

في خضم الاحتلال الأمريكي للعراق، تأمل دبلوماسي غربي - لا زال يخدم في المنطقة - اختيارات السياسة السورية، وأشار إلى أن بشار الأسد لم يكن أمامه خيار إلا أن يقف ضد الحرب متخطياً الخطوط الحمراء الصارمة التي رسمتها إدارة بوش وذلك بسبب عقيدته وميوله، وكذلك بسبب جغرافية المكان وحرص النظام الحاكم على حمايته ذاته. وقد رأى أن الإدارة الأمريكية بتبنيها لشعار «إما أن تكون معنا أو ضدنا» قد خالفت ضروريات سياسة الأخذ والعطاء التي تتبعها الدبلوماسية الأمريكية وخاصةً في الشرق الأوسط، وأردف معلقاً على طريقة المسؤولين الأمريكيين في معالجة هذا الأمر: «لقد هرب منهم الحس السليم». وحتى الآن، مازال هذا المبعوث الدبلوماسي يصر على التعبير عن آرائه الصريحة بدون كشف اسمه أو البلد التابع له. وقد أنذر حكومته أن تحويل سوريا إلى عدو يعد خطأً حقيقياً. وقد فعلت واشنطن ذلك ودفعت الثمن غالياً في العراق وفي المنطقة.

واجهت دمشق حالة من عدم الاستقرار على حدودها، كما عانت ضغطاً لا يمكن إنكاره بسبب بقاء المقاتلين الإسلاميين على قيد الحياة والذين استخدموا سوريا كممر للعراق وعادوا وهم متمرسون مستعدون لتهديد ما اعتبروه نظاماً حاكماً ملحداً. وبحلول عام ٢٠٠٥م، كانت قد بدأت الوكالات الاستخبارية المتعددة التابعة لسوريا حملة مكثفة لقمع المقاتلين وأي شخص آخر يشكل تهديداً على الأمن الداخلي. ويحكم المبعوث الدبلوماسي على الأحداث قائلاً: لم تتكبد سوريا ثمناً غالياً بسبب الحرب؛ معتبراً أن بقاء النظام الحاكم هو الهدف النهائي، فهذه الاستراتيجية كانت تستحق هذا الثمن.

في الأيام الأولى للحرب فُتحت الحدود على مصراعيها لأول مرة منذ عقود؛ واستعاد المهربون السيطرة على المسارات الصحراوية لنقل الخراف والسجائر والوقود لتصديره إلى سوق العراق المتنامي. وانضم المقاتلون إلى الطرق السريعة تحت الأرض ناقلين أسلحة ومبالغ مالية كبيرة والتي شكلت الميزانية العاملة لتنظيم القاعدة بين النهرين. وتحت وطأة الضغوط بين العراق وأمريكا، أنشأ السوريون أخيراً سداً رملياً يبلغ ارتفاعه تسعين سنتيمتراً على طول الحدود وزادوا عدد نقاط الحراسة الحدودية لأكثر من خمسمائة، كما أضافوا المزيد من حرس الحدود، إلا أن السدود والحدود من شأنها تقسيم الأمم وليس تقسيم القبائل. ففي الشرق الأوسط يحمل الولاء للقبيلة أهمية أكثر من المواطنة المحلية. فقد انتعشت العلاقات التاريخية بين القبائل على كلا جانبي الحدود من خلال الاحتلال الأمريكي للعراق. وبذلك استعادت سوريا الكبرى التي انقرضت منذ زمن بعيد عضلاتها المستلهمة من ثقافتها.

تمكن السوريون من التضييق بشدة على مرور المجاهدين إلا أنهم لم يتمكنوا من إيقافهم تماماً. كان التحرك أكبر من أن يتم السيطرة عليه. وكان نادراً ما يتم تغيير حرس النقاط الحدودية مما سهل ارتشاءهم؛ كما أن بعض عائلات القبائل تعاطفت مع أجندة القاعدة في العراق وسهلت عبورهم. واتسم الأجانب الملتحون الذين حضروا في الظلام وأقاموا لعدة أيام أو عدة أسابيع بالهدوء ولم يتسببوا في أي تعكير لسلام قرى المزارعين السوريين والفلاحين على الحدود.

وقد طلب السوريون مراراً أن يشكل الأمريكان والعراقيون قوات أمنية مشتركة لوضع حد للمشكلة، ولكن ظلت الإجابة دائماً واحدة؛ ربط مسؤولو الولايات المتحدة التعاون بالأهداف السياسة الكبرى، وضمت القائمة شروطاً طويلة: الاستجابة لطلب الأمم المتحدة بالإشراف على تحقيقات اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، والتوقف عن دعم حماس وحزب الله، والتوقف عن التدخل في الشؤون اللبنانية. وفي أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٨م، وافقت إدارة بوش على غارة عبر الحدود السورية، قتلت ثمانية أشخاص أحدهم قيل إنه ناشط قديم في القاعدة اعتاد أن يمارس عملياته بحرية على الحدود السورية.

وعلى الجانب الآخر من الحدود، زادت الرقعة التي يحرسها الأمريكان لتمتد لأكثر من ثلاثمائة ميل كان يحتمل مرور المسلحين من خلالها. وكان حرس الحدود العراقيون مزودين بالقليل من المعدات، وعادةً ما كان ينفد وقودهم وتنفد عزيمتهم لاستكمال المهمة، فشرعوا في استخدام القبائل لمراقبة الطريق الآخر؛ وظلت الحدود على الجانب السوري كما هي حيث يمكن التسلل منها.

وأثناء الشهور الأولى من إدارة بوش، جدد النهج الحذر لبشار الأسد الأمل في مزيد من العلاقات الإيجابية بين واشنطن ودمشق على الأقل في مخيم الدبلوماسية التقليدية في وزارة خارجية كولين باول. وكان البيت الأبيض في عهد بوش قلقاً من التغير الجاري في دمشق. وشرح أيرون ديفيد ميلر الذي خدم لمدة ست مدد كرئيس للولاية «كان هناك فيروس ولا ينبغي علينا الاقتراب. إنهم غير متبعين لفلسفتنا وفكرنا فيما يخص نظرتنا للعالم. ما زال الأسد الابن دائماً مشكلة صعبة الحل».

في السنة الأولى من حكم بشار الأسد وقعت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول التي كانت مأساة وفرصة في الوقت ذاته. فقد نظرت سوريا للحرب العالمية على الإرهاب التي شنتها إدارة بوش كمدخل لعلاقات أوسع مع واشنطن. فقد حاربت سوريا الإخوان المسلمين في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين كما حاربت كذلك المقاتلين الإسلاميين. وتلك كانت إحدى الصراعات التي اتحدت فيها إدارة بوش ودمشق. وقد شجب بشار هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، وفي إحدى خطاباته في المذياع نادى بـ«التعاون الدولي من أجل استئصال كافة أشكال الإرهاب». ولم ينكر بشار ـ تماماً مثل أبيه ـ دعمه لحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي (وهي المجموعات التي اعتبرها حركات مقاومة)، إلا أنه عرض تعاوناً ضد القاعدة التي اعتبرها تهديداً لنظامه العلماني. وقد سمحت سوريا في خطوة غير مسبوقة بإمكانية دخول أفراد مكتب التحقيقات الفيدرالية والمخابرات الأمريكية الأراضي السورية وممارسة عملياتهم داخل سوريا. فقد كان هناك شريان غني بالمخابرات في المدينة السورية الشمالية حلب، حيث أقام محمد عطا وهو أحد أعضاء الهجوم التسعة عشر والذي عاش فيها في التسعينيات أثناء عمله في أطروحته عن التخطيط العمراني. وشاركت سوريا بمخابراتها في التحقيقات مع محمد

حيدر زمار وهو الرجل الذي اشتبه بتوظيفه لمحمد عطا للقيام بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول. كرر مسؤولو الإدارة الأمريكية بأن التعاون السوري قد أنقذ حياة الأمريكان، وبخاصة أن المخابرات السورية قد حذرت المخابرات الأمريكية بهجمات وشيكة من تنظيم القاعدة على الأسطول الخامس الذي يقع مقره في البحرين والذي كان من الممكن في حالة نجاحه أن يقتل عدداً كبيراً من الأمريكان.

ولكن بالنسبة للبيت الأبيض في عهد بوش، لم يكن كافياً أن تتعاون سوريا في الحرب على الإرهاب، والذي كان ـ كما أشار مسؤولو الإدارة الأمريكية يقع ضمن اهتمامات سوريا القومية ـ فقد اعتبر الرئيس بوش النظام الحاكم المتسلط هو في حد ذاته سبباً جذرياً للإرهاب. وقد لوح بالعصا لسوريا وغيرها من الأنظمة الحاكمة المتسلطة في الشرق الأوسط مشيراً إلى أن العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة تتطلب معاملة جيدة لشعوبهم. لقد كانت الحرية إحدى المثل العليا الأمريكية، وقال بوش أيضاً «إنها المطلب الملح لأمننا القومي وهي النداء المناسب لعصرنا». اعتبرت الأصوات المؤثرة في واشنطن ـ من بين مجموعات غير المحافظين وداعمي إسرائيل ـ نظام بشار وأدوات القمع في سوريا جزءاً من المشكلة.

وفي ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠٣م، ومع سقوط نظام صدام بسهولة وقَّع الرئيس بوش عقوبات اقتصادية جديدة على دمشق. وبعد ذلك بعام، ضم بوش قواته مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك لدعم قرار الأمم المتحدة الذي يطالب بانتهاء احتلال سوريا وجيشها للبنان وهو الاحتلال الذي بدأ أثناء الحرب الأهلية عام ١٩٦٧م. وفي فبراير/شباط من عام ٢٠٠٥م، استدعت واشنطن سفيرها من دمشق بعد القنبلة المؤثرة التي قتلت رفيق الحريري في بيروت ـ وهو رئيس الوزراء الأسبق والبليونير وناقد للنظام السوري أيضاً ـ. وعلى الفور ربطت تحقيقات الأمم المتحدة سوريا بمقتل الحريري. وكانت كل خطوة تمثل ضغطاً متزايداً لتعميق عزلة سوريا وإضعاف مكانتها. عندما سئل بشار ماذا يعتقد أن الإدارة الأمريكية تريد منه قال: «لا أعرف، هذه هي المشكلة».

أما في دمشق فكانت صور بشار الأسد في كل مكان، في محطات

الحافلات وخلف مكاتب السداد وعلى النوافذ الخلفية لسيارات الركاب، ومع تزايد ضغوط واشنطن على دمشق بدأت صوره أيضاً في الظهور في أركان الشوارع ومواقع إشارات المرور وعلى الإعلانات المعلقة التي تتدلى من عواميد الإنارة. وفي أوائل فترة رئاسته، ألف السوريون النكات عن هذه الصور: «الأب، والابن، والشبح المقدس» وهو ما أسموه بالثالوث الأسدي المقدس وهو الرئيس الراحل وولديه باسل وبشار. ولكن منذ عام ٢٠٠٦م، تم رسم بشار وحده في أوضاع بطولية محدقاً إلى المستقبل، وقد اتسمت ملامحه بمزيد من النعومة ليبدو بوسامة نجوم هوليود. وظهرت صورة كبيرة يبلغ ارتفاعها طابقين عرضت خارج السوق العتيق المعروف بالحميدية كان فيها بشار يلوح مبتسماً: «أنا أؤمن بسوريا».

وبعد توقف المشروع العراقي للرئيس بوش بدأ سفراء الدول الأوروبية والوزراء الأجانب في العودة مرة أخرى لدمشق للاستشارات. وقد قام نواب المجلس الأمريكي سواء من الديموقراطيين أو الجمهوريين بكسر العزلة على سوريا بالقيام بزيارات معلنة بقوة تهدف إلى إظهار الاهتمام باللاجئين العراقيين أو لإلقاء نظرة عميقة حول المفاوضات مع إسرائيل أو لبنان. وتم إسقاط المطالب القوية التي كانت تطالب سوريا بتبني النموذج المفضل لدى أمريكا - حكم أغلبية يوازنه حقوق الأقلية وسيادة القانون - مع مواجهة التقديرات الواقعية التي كانت توحي أنه لا يوجد بديل آخر في الأفق لحكم سوريا. ولم يكن لدى سوريا - مثلها مثل العراق قبل الحرب - مؤسسات غير حكومية تستطيع أن تحافظ على الوحدة القومية أو تقوم بالتغيير السياسي. كان يوجد فقط حزب البعث والجهاز الأمني وبشار الأسد.

كان الأسد الأنيق هو الرجل الذي ظل دائماً يلبس بدلة رسمية تماشي خطوط الموضة، وشعره القصير وشاربه مصفف على الطريقة الأوروبية وليست الإسلامية، وكان لا يزال يحاول عبثاً ربط ثورته بالثورة الدينية في إيران بشكل أقرب من والده. كان بشار - في إطار نظام يجل العلمانية - ضيفاً مألوفاً على مساجد دمشق، كما رحب بقائمة طويلة من الزوار الرسميين الإيرانيين الذين حضروا مرتدين الجلابيب والعمامات؛ بالإضافة إلى أنه تشاور مع طهران حول السياسات الإقليمية في إيران ولبنان. وقد

راهن أن القوة الإقليمية التي ينبغي أن تتواجد بعد استقرار غبار الحرب لن تكون أمريكا إنما ستكون إيران، إلا أن سياسة إيران كانت دائماً ما تبدو له ذات طبيعة نفعية، وهي نظرة استمدها من والده.

أما خلف الكواليس فقد أرسل بشار بعضاً من المطلعين الثقات لاستكشاف آفاق المفاوضات السرية مع إسرائيل. ـ فقد كان بشار بالرغم من كل شيء ابن أبيه ـ. وقد عمل رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان وسيطاً بين الطرفين. بدأت المفاوضات غير المباشرة على مستوى رسمي مع فريق وزارة الخارجية الإسرائيلية والمفاوضين السوريين مع إقامتهم في فنادق منفصلة. ومع تقدم المفاوضات أقام المبعوثون الإسرائيليون والسوريون في الفندق ذاته وتردد رئيس الوزراء التركي أردوغان بين الغرف. وبمرور الوقت، أصدر فريق المفاوضات برنامج عمل لاستعادة هضبة الجولان والمنطقة البركانية المطلة على الجليل الشمالية التي اغتصبتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧م. في الوقت الذي كان فيه تحالف سوريا مع إيران ظاهراً وعلنياً وكذلك كان الأمر بالنسبة لدعم سوريا للمجموعات المناهضة لإسرائيل مثل حزب الله وحماس.

كانت المقايضة علامة على أن سوريا استعادت جذورها التاريخية، فقد ظلت التجارة دائماً محوراً للثقافة السورية بأسواقها العتيقة ونخبة التجار التي تتمتع بها. وكان يمكن لصفقة واحدة مع إسرائيل حول استعادة الجولان أن تؤثر تأثيرات فورية على سائر المنطقة. ارتقت المقايضة لأعلى مستوياتها في خريف عام ٢٠٠٨م، حيث وصل رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت إلى اسطنبول لاستعراض قائمة بالأسئلة الأمنية حول الجولان والتي طرحتها المفاوضات الإسرائيلية على الفريق السوري. وتلك كانت آخر التفاصيل التي شيدت جسور الإجراءات المبنية على الثقة مثلما تشير المفاوضات. وقد أجابت سوريا على التساؤلات كعلامة على حسن النية. ومجدداً عمل أردوغان كوسيط: كان على الهاتف مع الرئيس السوري ووجهاً لوجه مع رئيس الوزراء الإسرائيلي. أشار أولمرت لموافقته على استمرار المحادثات. روجعت إجابات سوريا على الأسئلة الأمنية من قبل أعلى مستوى في الحكومة الإسرائيلية وتم تقييمها بأنها مرضية. وأصبحت الاختلافات الآن ضيقة جداً الأمر الذي كان يمهد لطفرة تاريخية

في الرؤية. لقد كان التوقيت صحيحاً؛ ففي غضون أسابيع قليلة سيتولى الرئيس الأمريكي الجديد المنتخب باراك أوباما منصبه. وقد أشار أوباما بالتصديق على المحادثات المباشرة بين سوريا وإسرائيل مع اشتراك أمريكا، مما يعد انحرافاً شديداً عن نهج إدارة بوش. واتصل مسؤولون من واشنطن بالسفير السوري فيها لإظهار أن القواعد الجديدة للشرق الأوسط ستتضمن الدبلوماسية التقليدية. وقال أولمرت: إنه يحتاج لمزيد من الوقت، بمعنى جولة أخرى من المحادثات في تل أبيب، ولكن كانت وجهة النظر في دمشق وأنقرة أن الوضع قد استقر. وبتذكر ما سيصبح آخر دورة من المحادثات قال رئيس الوزراء التركي في أحد حواراته في وقت لاحق: «في تلك الليلة كنا قد اقتربنا جداً من الوصول لاتفاقية بين الطرفين». تم الاتفاق على استمرار المحادثات حتى نهاية الأسبوع للوصول إلى نتيجة إيجابية. وكانت آخر جملة قالها أولمرت قبل رحيله: «بمجرد عودتي سأستشير زملائي وأعود إليكم». انتظر رجب طيب أردوغان وبشار الأسد. لكن بعد ذلك بأربعة أيام في ٢٧ ديسمبر/كانون الأول هاجمت إسرائيل غزة جوياً، وتلا ذلك حملات برية على الأرض، مما أجل احتماليات إجراء المفاوضات النهائية إلى أجل غير مسمى. وسرعان ما خرج أولمرت من السلطة وجاءت بعده حكومة متشددة لا تحمل أي التزام تجاه مفاوضات في الإقليم.

لم يكن بشار الأسد مثل ريتشارد الثالث الشبيه بصدام في إحدى المسرحيات التي عرضت في دار أوبرا دمشق، ولم يكن أيضاً طاغية مصاباً بجنون العظمة حيث دمرت مملكته بسبب الاحتلال الأمريكي، إنما كان بشار براجماتياً في سياساته الإقليمية. لقد توقفت المحادثات مع إسرائيل ولكن ليس بشكل دائم. وكانت وجهة نظر معظم العالم أن الخطأ في إسرائيل وليس في سوريا. إن المفاوضات يمكن أن تواصل مسيرتها عندما يحين الوقت المناسب لرئيس أمريكي جديد يبحث عن مسار لإحداث تغيير في المنطقة مع هامش من النجاح. كان هذا هو الدرس السياسي الواضح في النسخة العربية من المسرحية التراجيدية ريتشارد الثالث. لقد كانت المسرحية تعكس هشاشة القوة، وقد فهم بشار الأسد هذا الأمر جيداً. استطاع أن يحافظ على بقائه وكان يحرز مكاسب دبلوماسية وسياسية. وقف الأسد مع

الجمهور في ختام الدراما التي عرضت في دار الأوبرا، وصفق بشدة لهذا الإنتاج وسار بهدوء عبر ردهة المسرح بين حشود السوريين الذين أعجبتهم الرواية القديمة لسياسة القوة التي سارت في مسار خاطئ، وفهم الرئيس الشاب الدرس جيداً.

الفصل الخامس

الهوية والإخضاع

سوريا والعراق... دمشق وبغداد... العواصم التي كانت لزمن طويل متنافسة في التاريخ الإسلامي، هي اليوم متنافسة على الموقع الجغرافي، مشغولة بالسؤال عن الهوية: إحداهما دولة يحكمها حزب البعث الذي أحكم قبضته على السلطة، وفي الأخرى تلاشت السلطة محدثةً فجوة اخترقتها سياسات التنافس على الهوية وانتهت بنتائج كارثية. فبالنسبة للعراق، كانت القوة التي قسمت الدولة بعد عام ٢٠٠٣م أقوى بكثير من التاريخ الذي وحد الناس. وقد تسببت أعمال السلب والنهب التي وقعت في العراق في هجرات جماعية وتهجير داخلي. وفي عام ٢٠٠٩م، كان السؤال الذي لم يجد إجابة: «ما هو العراق؟» مصدر إزعاج للجيران من العرب، كما منع هذا السؤال المنفيين من العودة، حيث إنهم لم يكونوا على استعداد للتضحية بحياتهم ومستقبلهم حتى يتأكدوا من الإجابة.

لقد صُمم الدستور الجديد الذي أقره الاستفتاء الشعبي في أكتوبر/ تشرين الأول من عام ٢٠٠٥م ليجيب على أسئلة الهوية الجديدة في العراق. ولكن بدلاً من ذلك تسبب في طرح المزيد من الأسئلة. لأول مرة يتم إعلان الإسلام ديناً رسمياً للدولة. وقد تضمنت المادة الثانية عبارة: «لا يجوز سن قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام»، وهذه المادة جاءت على حساب الأقلية غير المسلمة في العراق واعتبرت خطوة إلى الوراء من جانب العلمانيين العراقيين لا سيما فيما يخص حقوق المرأة. وأدخل معدو الدستور عبارة حددت العراق بوصفه جزءاً من العالم الإسلامي، ومواطنيها جزءاً من الأمة العربية، وهذه العبارة كانت إهانة للأكراد غير العرب. وفي شمال العراق، اعتبر الكثير من الأكراد بغداد عاصمة أجنبية. ولأكثر من عقد من الزمان، ندر استخدام اللغة العربية في شوارع السليمانية وإربيل وهي المدن

الكردية متعددة الجنسيات في الجبال. وقد دعم الدستور الجديد فكرة الفيدرالية التي اعتنقها الأكراد ليحافظوا على الحكم الذاتي الذي حصلوا عليه بصعوبة؛ وعند التطبيق العملي يمكن أن يعني ذلك أن تكون العراق دولة مقسمة طائفياً إلى ثلاثة أجزاء بحكومة مركزية ضعيفة وهوية غير موحدة على الإطلاق.

قرر المجاهدون الإسلاميون المناصرون لتنظيم القاعدة أنه لا مكان لغير المسلمين في العراق، واستهدفوا المسيحيين، وكرهوا أيضاً كل ما له علاقة بالشيعة. ففي فكرهم الأصولي ونظرتهم للعالم تُعتبر الطقوس الشيعية مستمدة من بلاد فارس وفي ذلك دليل على وثنية هذه الطقوس. وفي تأويلهم للإسلام يعتبرون الشيعة ليسوا مسلمين ويسمونهم «الصفويين»، وفي هذه التسمية تلميح ضمني يشير إلى انحدارهم من أصول فارسية، مما يعني أنهم لا حق لهم في الهوية العراقية.

وقد عادت الكراهية مرة أخرى واستهدفت جماعات القتل من الشيعة المتشددين كبار البعثيين من السُّنَّة، مما أجبر الكثيرين على الهرب. وعلى النطاق الحكومي تم شن حملة لمعاقبة السُّنَّة بإقصاء البعثيين بشكل غير سليم من خلال حرمانهم من وظائفهم وإلغاء معاشاتهم. وفي الوقت ذاته، أصر شيعة العراق على أنهم شيعة عرب ـ وليسوا فرساً ـ تشاركوا مع عرب العراق السُّنَّة والمسيحيين على حد سواء في تاريخ طويل. وفي أول مرة في التاريخ أصبح مستقبل العراق في أيدي الشيعة العرب، إلا أن حكام العراق الجدد لم يكونوا على يقين من معرفتهم لكيفية استخدام السلطة بعد قرون من الحرمان والقمع كما كانوا غير متأكدين من مصير الدولة السياسي.

أما بالنسبة للمنفيين، فإن نتائج معركة تحديد الهوية العراقية اعتبرت حيوية فيما يتعلق باحتمالات عودتهم، حيث كان ينبغي عليهم معرفة الطبيعة الأساسية للأمة الجديدة وهي العراق. كانت العراق تاريخياً الدولة التي تفصل بين العرب والفرس في وقت الدولة العثمانية، وكانت قادرة على أن تسع هذا التنوع الواسع من الطوائف والقبائل التي استقرت في الصحاري القاحلة والمستنقعات والسهول الخصبة في أرض النهرين. أما في التاريخ المعاصر فكانت العراق هي الثقل الموازن لقوة إيران الإقليمية. وكانت

العراق منذ العشرينيات قد فرضت عروبة صارمة على سكانها المتنوعين، ثم منذ عام ١٩٧٩م إلى سقوط صدام كانت العراق هي الحصن أمام ثورة شيعة إيران الإسلامية عام ١٩٧٩م. وقد أطاح الغزو الأمريكي بهذا النظام العربي السُّنِّي الراسخ في حكم المنطقة.

«لم يختر العرب هذا الخليط، لقد كان ذلك بسبب انسحاب القوى الاستعمارية» هكذا قال لي رامي خوري العالم المسيحي الفلسطيني - والذي كان زميلي لوقت طويل - عندما ألقيت عليه سؤالاً حول الهوية في مكتبه في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث قال لي: في الشرق الأوسط، تبدأ الحوارات حول الهوية بالإشارة إلى الحدود العسكرية التي رسمت وفقاً للمصالح الاستعمارية البريطانية والفرنسية في أوائل القرن العشرين وقد خلقت هذه المصالح دولاً عن طريق تقسيم المجموعات والقبائل.

يقول خوري: «تمثل العراق نموذجاً لهذا الشكل». ثم (في عام ٢٠٠٣م) أطاح غزو أجنبي بالدولة، فكان لزاماً على الناس إعادة تشكيل علاقة السلطة وإعادة التفاوض. وأضاف: «عندما تتعامل مع مليارات الدولارات من عوائد النفط وتشعر بالامتعاض بسبب حكم البعثيين السابق، ومع التحريض المتعمد من قبل تنظيم القاعدة، فإن هذا المزيج مضافاً إليه أيضاً التطهير العرقي، يمثل خلفية قضايا (الهوية) التي يجب أن تفهم.

بالغ صدام في إثارة الانقسام الطائفي لمنع أي معارضة موحدة تجاهه وقبض على السلطة من خلال جهاز أمني قوي وسلطة مستبدة. وعندما سقطت الدولة، احتمى العراقيون بولاءاتهم القبلية والدينية، ولم يكن ذلك نابعاً من إيمان ولكن لأنهم اعتقدوا أنه عليهم أن ينتموا لأي مكان. وقد أصبحت الدولة التي أجبرها الجيش على التوحد مقسمة بين المساجد. فبينما هرب المنفيون بحثاً عن الأمان هرب الكثيرون أيضاً من الهوية الطائفية البحتة التي اكتسحت البلاد واستبدلت الهوية القومية القديمة للطبقة المتعلمة في بغداد.

يقول خوري: «إنها دول لم تحدد هويتها أبداً، لم يتفقوا أبداً من هم وما هي نظم القيم الأساسية لديهم»، هل هي الإسلام أم القومية العربية؟ لم يحدث ذلك في أي دولة عربية أخرى، لم نر أية دولة تمر بتجربة عملية يقوم

فيها الشعب نفسه بتحديد هويته». وبالنسبة للعراق كان السؤال الملح هو: كيف سيتمكن المواطنون من العيش معاً داخل نفس الحدود؟

لقد عاشت الدول العربية من قبل تحت الضغط المشترك من الحرب الباردة والحكومات المستبدة، كما تدخل في شؤونها الغرب والاتحاد السوفيتي على حد سواء. ومن وجهة نظر خوري تعتبر الظروف غير الطبيعية في المنطقة والتي فسرت الكثير من هذه الاضطرابات حقيقة منطقية: فما زالت المنطقة يحكمها المستبدون. ووفقاً لخوري: «ما زالت هذه المجتمعات في مرحلة ما قبل الدولة». فإن الدول التي تم رسم حدودها لتخدم الاستعمار العسكري وتم تسليمها بعد ذلك إلى رؤساء محليين، ومع غنى هذه الدول بعوائد النفط وانخراطها في صراعات القوى الكبرى، إلا إنها تكن مؤهلة لإدارة ذاتها ككيانات سياسية مستقرة ومعاصرة، فلم يتواجد في تاريخهم ما يؤهلهم لمثل هذا الدور، لا في ذلك الوقت ولا الآن.

وبعيداً عن الموقع الطبيعي، ولأول مرة في تاريخه يحارب العراق ليحدد هوية ما بعد الحرب من خلال إطار عمل ديموقراطي، وقد كانت هذه الحرب الديمقراطية عديمة الفائدة، تابعتها العواصم العربية بردود أفعال متفاوتة مابين عدم الارتياح إلى الحذر.

وقال ريان كروكر السفير الأمريكي في بغداد من عام ٢٠٠٧م إلى عام ٢٠٠٩م ـ التي تعتبر من أكثر السنوات التي شهدت اضطرابات في العراق ـ: «إن الخطيئة التي لا تغتفر في عيون الجيران هي أن الحكام شيعة».

ومنذ تقاعده من وزارة الخارجية كان كروكر يصدر دائماً ملاحظاته فيما يتعلق بالمنطقة التي عرفها جيداً. أرسل كروكر ـ وهو يتحدث اللغة العربية ـ إلى منطقة الشرق الأوسط ومكث فيها ما يزيد عن عقدين من الزمان؛ وفي عام ٢٠٠٢م ـ بطلب من كولن باول وزير الخارجية ـ عمل على إعداد مذكرة سرية في العراق، تتضمن مجموعة أوراق بعنوان «العاصفة المكتملة». كانت هذه المذكرة تشكل نبوءةً صريحةً بالتفكك والفوضى التي ستتبع الاحتلال الأمريكي، وحذر فيها كروكر من احتمال قيام الأغلبية الشيعية مع الأكراد بالسيطرة على الأقلية السُنِّيَّة، كما حذر أيضاً من محاولة جيران العراق ـ إيران وسوريا والسعودية ـ التأثير على الدولة العراقية التي سيصيبها الضعف.

وقد شاهد السفير الأمريكي كروكر كل تنبؤاته كيف أصبحت واقعاً من سفارته الأمريكية في بغداد أثناء صراع العراق لتحديد هويته مرة أخرى. وقد راقبت القوى الموجودة في المنطقة الموقف باهتمام بالغ. هل كان ذلك بسبب أن بنية واحدة من تكوين القوى السُّنِّيَّة الإقليمي قد تم استبدالها، أم بسبب أن العراق يحاول تحديد هويته؟ «أعتقد أن هذا بالضبط ما كان يحدث» قالها كروكر معلقاً على الخيار الثاني. «ما زال الجيران يحاولون جاهدين التأثير على العراق، ولكن العراق ـ لكونه العراق ـ يتمتع بالمقاومة ضد هذا النوع من الضغوط. فالسعودية مثلاً تنظر إلى منطقتها الشرقية التي يسكنها الكثير من الشيعة، وتنظر إلى «دولة يقودها الشيعة (في العراق) وهي دولة مفتوحة وشعبية وديموقراطية»، وهذا ليس جيداً للعرب».

قام نظام الدول الذي تم تأسيسه عام ١٩٢٠م بتحديد الحدود العسكرية للعالم العربي دون اعتبار للمشاركة العادلة للسلطة أو توزيع المصادر على الأغلبية والأقلية داخل هذه الحدود. ومع وضع هذه القصة في الاعتبار، قامت الأغلبية الشيعية التي حصلت على السلطة مؤخراً في عام ٢٠٠٥م بدعم النظام الاتحادي الذي يضمنه الدستور في حدود العراق لمعالجة قضية توزيع القوى والمصادر بعيداً عن بغداد التي حظي فيها السُّنَّة تحت حكم صدام بجني فوائد الدولة المركزية. وقد تحدث السياسيون الشيعة عن منطقة كبرى مكونة من تسع مقاطعات تمتد من البصرة إلى الجنوب عبر المدن الشيعية ككربلاء والنجف إلى أطراف العاصمة، بينما أشار آخرون لهذه المنطقة الجديدة باسم «شيعستان» بالطريقة ذاتها التي أشار بها الأكراد إلى المنطقة المستقلة في الشمال باسم كردستان. أما «سنستان» فستكون هي المنطقة الأقل حظاً من النفط في شمال وغرب بغداد.

ويقول رامي خوري: «يفتح هذا الباب مشكلة ضخمة للكثير من الناس في العالم العربي لا سيما أولئك الذين يخافون الحكم اللامركزي، حيث سيرغب كثير من الناس في الدول الأخرى في التفرد بمنطقة مستقلة خاصة بهم أيضاً. ومثال ذلك الشيعة في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية». وتوجد مجموعات في كل دولة في الشرق الأوسط مستعدة لإبراز قضية الاستقلال، وبعضهم في مناطق تمتد من دول الخليج إلى مصر، وربما تشجعهم التغيرات التي حدثت في العراق.

في الوقت الذي تسبب فيه بحث العراق عن هويته في وقوع الكثير من أعمال الطائفية والعنف، كانت دمشق تمر بمرحلة انتعاش هادئة. كانت العاصمتان متنافستين منذ التاريخ المبكر للإسلام. ففي القرن السابع، كانت دمشق عاصمة العالم الإسلامي ومقر الخليفة والإمبراطورية الأموية الشاسعة. ثم في عام ٧٥٠هـ انتقل الخليفة إلى بغداد وقام بدمج بلاد فارس في جسم الدولة العباسية المنتصرة. وقد عاد هذا التنافس بين دمشق وبغداد مرة أخرى في القرن العشرين بتأسيس حِزْبَيِ البعث.

* * *

عندما حضرت إلى دمشق في الثمانينيات كان حافظ الأسد هو الرئيس، وكان الاتحاد السوفيتي هو راعي الحرب الباردة، وكانت المدينة كئيبة وضعيفة. فقد كانت في ذلك الوقت محض تقليد عربي لعاصمة أوروبا الشرقية. أصبحت دمشق الآن مدينة مزدهرة؛ ترفرف فوقها أعدادٌ من رافعات الإنشاءات؛ وقد استطاع الأثرياء السوريون أن يحولوا المنازل التقليدية في المدينة القديمة إلى فنادق فخمة، ويفتتح كل أسبوع تقريباً مقهى يحمل علامة تجارية مشهورة وأصبح اللاتيه المشروب الرسمي لطبقة جديدة من العملاء السوريين الشباب الأنيقين. أصبح بإمكان السوريين الآن إيداع النقود في مصارف خاصة واستخدام البطاقات الائتمانية. وفي عام ٢٠٠٩م، افتتحت البورصة (على الرغم من أن سبع شركات فقط اشتركت في اليوم الأول)، كما ازدهرت الجامعات الخاصة كذلك. وفي المخطط الأمريكي، كان من المفترض أن تكون بغداد هي العاصمة التالية لرأسمالية السوق الحرة. ومع ذلك، كان بشار الأسد هو من كسر الاقتصاد الاشتراكي الصارم في الشرق الأوسط، وقال: إنه يتبع النموذج الصيني، وتم ذلك بخطى كان يعتقد أن سوريا قادرة عليها، إلا أنها أخفقت في إتباع هذا الانفتاح بانفتاح مماثل في حرية التعبير. والبضائع والأجهزة الحديثة كانت تتوافد على سوريا بغزارة. وقد كثرت مقاهي الإنترنت في معظم أحياء دمشق يملؤها عادةً السوريون من الشباب، يتصفحون الإنترنت لما بعد منتصف الليل. وكان الجميع تقريباً يحملون هواتف نقالة. وكان القاسم المشترك بين الثقافة السورية والغرب ـ الولايات المتحدة وأوروبا ـ أكبر من القاسم المشترك بينها وبين حليفتها طهران والدولة الناشئة في العراق.

وتعد إحدى أشهر محطات الراديو في المدينة محطة «مدينة أف أم»، وتتميز ببرنامج يسمى صباح الخير يا سوريا وهو صاحب أعلى نسب متابعة في دمشق. في هذا البرنامج يتحدث مقدمه الذي يحمل الاسم النادر هوني سعيد مع المتصلين من المستمعين باللغتين العربية والإنجليزية، كما يدير حوارات على المذياع حول قضايا جدلية مثل اضطهاد الأطفال والشذوذ الجنسي، كما يتابع السوريون أيضاً «أوبرا» على قنوات القمر الصناعي ويقومون بالتصويت عن طريق الهواتف المحمولة على مسابقات أفضل أغنية والتي يجريها التليفزيون اللبناني. وقد ازدحمت الموجات الهوائية بموسيقى الراب الأمريكية، وكان برنامج «٥٠ سنتاً» هو البرنامج المفضل. وقد كان السوريون يعرفون أنفسهم بوصفهم استهلاكيين.

في سوريا أيضاً لا تزال قضية الهوية مثاراً للجدل. واعتبرت المحادثات العامة خطيرة وغير قانونية في ظل قائمة من الأحكام الغامضة التي تمنع نشر «المعلومات غير الدقيقة» أو «تضر بالأمن القومي». وما زال استبداد نظام بشار يحمل بعض الحماية لعرقيات وديانات سوريا المتنوعة. ولكن دمشق، بتاريخها الفريد شعرت بالضعف كما لو أن دمشق المعاصرة لا تتمكن من السيطرة على منطقة في حالة غليان منذ قدوم الجيش الأمريكي إلى بغداد.

لقد حافظت الأيدولوجية العلمانية لحزب البعث على التوترات الدينية والطائفية تحت السيطرة باستخدام أجهزة أمنية متعددة، إلا أن تلك الاستراتيجية كانت مؤقتة. وقد أثبت السقوط المفاجئ لحزب البعث المستبد في العراق ذلك بوضوح. على السطح ـ على الأقل ـ حولت سوريا الهوية باتجاه تبني شعار العروبة وقد زعمت أنها «قلبها النابض». وقد سادت بين الأجيال الأقدم أوهام العظمة، التي تجسدت في فكرة الإيمان بـ«سوريا الكبرى» وهي فكرة مفادها الحلم بدولة تضم لبنان والأردن وإسرائيل (فلسطين) مع شريط غزة. وما زالت هذه الفكرة الرومانسية للعروبة تلح باعتبارها هوية تشمل منطقة أكبر من الحدود التي فرضتها القوى العسكرية.

الكثيرون من النخبة الحاكمة في الدولة ـ بما فيهم الرئيس بشار الأسد ـ من الطائفة العلوية، وهي إحدى فرق الشيعة. وقد عانى العلويون من القمع

لقرون. وقد ازدهر العلويون بالإضافة إلى الأقليات الأخرى في ظل نظام البعث العلماني السوري من خلال الجيش. ويُعد صعود والد بشار، حافظ الأسد قصة علوية نموذجية؛ فقد كان الأول في أسرته الذي ذهب للمدرسة الثانوية، إلا أن هذا الطالب الطموح الذي أتى من الأقلية المضطهدة ليس لديه مال ليذهب للكلية. حصل حافظ على تعليمه العالي من خلال الأكاديمية العسكرية السورية وأكمل المزيد من الدراسات الفنية في الاتحاد السوفيتي. وقد نفذ الأسد انقلاباً عسكرياً من خلال منصبه كوزير للدفاع، وبعدها أدمج سلطة الدولة المركزية. وللمفاجأة ظلت سوريا العلمانية مستقرة عبر الأربعين عاماً من حكم الأسد على الرغم من أن النخبة الحاكمة كانت من الأقلية العلوية التي تحكم الأغلبية السُّنِّيَّة.

في بداية القرن الحادي والعشرين أصبح البعث قوة ثورية ضعيفة، وقد تعرضت سوريا لمزيد من الحركات الديناميكية، حيث شكل الإسلاميون أحد التحديات من خلال تجاهلهم لكافة الحدود الاستعمارية وحلمهم باستعادة الخلافة التي تحكمها صورة صارمة من الإسلام السُّنِّي والتي ستُهمش كل الأقليات الأخرى في الشرق الأوسط. وجاء المشروع الأمريكي في العراق بمطالب عكسية من واشنطن. هذا التحدي البديل الذي ردده الإصلاحيون العرب والذي ينادي بشرق أوسط ويتمتع بالديموقراطية. وجاء تحدٍ أقوى مع الحرب الطائفية العراقية والتي أثارت حساً قوياً للهوية الطائفية في كافة أنحاء المنطقة. وشعر السوريون بالقلق مع وصول العائلات العراقية بأعداد تصل للآلاف كل يوم، فقد أدركوا أن ما حدث على الحدود الشرقية قد يتسبب في تقسيم الهوية السورية كذلك.

كما فزع السوريون من إراقة الدماء التي سببتها الطائفية والانهيار الأمني الذي سمعوا عنه من العائلات العراقية التي تجمعت في الأحياء ذات الإيجارات المنخفضة التي تحيط بالعاصمة. وقد تعلمت الأجيال القديمة أن تؤمن أن الديموقراطية اللبنانية هي التي أدت إلى الحرب الأهلية. والآن رأى السكان المتوجسون بالفعل في مأساة بغداد عاقبة حتمية لاستيراد الديموقراطية الأمريكية. وحين جنى الدمشقيون في هذه العاصمة التجارية التاريخية الاستقرار والأمان دعموا القائد الذي منحهم إياها. وأحيطت الشوارع والدروب في المدينة القديمة بالجدران السميكة وبسبع بوابات

لحمياتها ضد المحتلين، إلا أن السوريين أدركوا أن الجدران وحتى الحدود لا تستطيع إيقاف الفيضان القادم من العراق.

يقول عمر أميرالاي مُقَيِّماً ضريبة السياسات الأمريكية على حركة الإصلاح في سوريا: «إذا جلبت الديموقراطية مثل هذه الفوضى في المنطقة وخاصة تفكيك المجتمع كما فعلت في العراق فهو أمر طبيعي، وأعتقد أنه من حكمة الناس أن يشعروا بالخوف من تخيل أن يحدث ذلك في سوريا». وأضاف قائلاً: «أعتقد أن الناس في النهاية قالوا: حسناً من الأفضل الحفاظ على هذه الحكومة، نحن نعرفهم ولا نريد الدخول في حرب أهلية، ولا نريد هذا التغيير المشروط بالحرب الأهلية والطائفية والدماء».

كان عمر أميرالاي ـ هذا الرجل الأنيق ذو الشعر الرمادي المصفف ـ يتحدث ببطء ودقة بلغة إنجليزية ذات لكنة فرنسية، وقد رتبنا اللقاء في أحد المعارض الفنية في حي راقٍ من أحياء دمشق ذي حديقة أمامية بشارع مليء بالأشجار لا يشتكي من المرور الخانق. كان أميرالاي يفكر في انتقاداته جيداً وهي مهارة اكتسبها عبر تاريخ مهني طويل كناشط سياسي. فقد امتلئت السجون السورية بالمنشقين الذين أدركوا المعادلة بشكل خاطئ. ويقول أميرالاي: «في كل مرة تقريباً أعود فيها لسوريا تقريباً كانت توجد أخبار عن اعتقال آخر في وقت متأخر من الليل. كانت الأحاديث الناقدة سواء العامة أو المطبوعة تخضع لقراءة دقيقة في دولة تقوم فيها السلطات في وكالات الاستخبارات بوضع الملابس الواقية من المطر أمام مجموعة صغيرة من المنشقين الذين يتعرضون للأمطار طوال العام. ولم تُدِرْ سوريا الحكم بتطبيق سيادة القانون، ولكنها كانت تدير الحكم في ظل حالة من الشكوك التي كانت أداة فاعلة للسيطرة من خلال بث الخوف، بل حتى أكثر المنشقين خبرة الذين تخطوا في بعض الأوقات الخطوط الحمراء حيث لم ينتبهوا لها أودى بهم إلى السجن. وقد منح قانون الطوارئ السوري الذي وضع منذ عام ١٩٦٣م للنظام سلطة اعتقال أي شخص بدون إبداء أي سبب.

حزن أميرالاي على هزيمة المعارضة السورية في أعقاب الحرب على العراق، فلم توجد معارضة منظمة للحكومة ولا قائد منشق له جذور من الدعم أو منافس حقيقي لحزب البعث الحاكم. وبدلاً من ذلك، تشكلت

المعارضة السورية من مجموعة من المدن المثقفة، وكانت خليطاً كبيراً من وجهات النظر السياسية: الإصلاحيون البعثيون والإسلاميون والماركسيون ونشطاء حقوق الإنسان؛ ومعظمهم من المناهضين لأمريكا مثل الحكومة. كان مبدؤهم هو النقد اللاذع للسياسات الفاسدة للنخبة الحاكمة وبعض الأفكار اليائسة لكيفية تحديد مستقبل مختلف.

في السنوات الأولى لحكم بشار الأسد، تسامح نظامه الاستبدادي مع مستوى معين من التعبير السياسي، ففي الثمانينيات أثناء حكم الرئيس حافظ الأسد، كانت الحوارات مع المعارضة السياسية صعبة وتشكل خطراً في تنظيمها. وبحلول عام ٢٠٠٥م اتسمت هذه العملية بالسهولة البالغة. كان المنشقون يتوقون إلى مقابلتي وقاموا بشكل واثق بتعيين حدود الفساد حتى أعلى المستويات في الحكومة. لقد حددوا أسماء وشهادات تدعم هذا الزعم؛ وناقشوا خططاً كبيرة لتغيير النظام. لقد أمضيت أمسيات طويلة أستمع إلى تجمعات سياسية صغيرة بحيث تسعها غرفة الجلوس. لقد دعيت إلى تناول وجبات مع عائلات منشقة وحاورت نشطاء وزرتهم في مكاتب يراقبها البوليس بشكل واضح. تم إرسال معظم هؤلاء النقاد للسجن لشهور وأحياناً لسنوات وعادةً في حبس انفرادي؛ ومن بينهم المنشقون من الجيل الثاني والثالث الذين كانت لديهم الجرأة على الوقوف ضد حافظ الأسد مع احتفاظهم بالأمل أن يكون ولده أكثر منه إيماناً بالتعددية في سوريا.

عندما سمح الرئيس الجديد بالإنترنت في الدولة وسمح بقنوات الأقمار الصناعية والهواتف النقالة، استخدم رموز المعارضة أدوات الاتصال الحديثة للتحدث باللغة العربية والإنجليزية. ومع ذلك، لم تمثل المعارضة أية تحديات حقيقية على النظام. وأخيراً أُسكتت أفواه المعارضة التي تجاهلتها واشنطن بعد أن أقنعت مغامرتها في العراق المزيد من المواطنين المتوجسين أن الأفكار المتطرفة والثورات المفاجئة تشكل خطراً كبيراً، ولذلك تم إطلاق يد النظام لاتخاذ إجراءات صارمة.

ظل الاعتراف بالطائفية يشكل موضوعاً مثيراً للجدل في سوريا. ووضع الرئيس العلوي نموذجاً لاستيعاب ذلك عندما تزوج بسُنِّيَّة، لأن الزواج من الأطياف المختلفة في سوريا كان نادراً. وعادةً ما كانت تظهر توترات الهوية

القومية لسوريا في الأحاديث العادية. قال لي أحد المحامين العاملين في مجال حقوق الإنسان من السُّنِّيين بحديث هامس غاضب: إنه مقتنع أن الإيرانيين يحاولون تحويل السُّنَّة إلى شيعة في كافة أنحاء البلاد. ولم يكن لديه دليل يدعم غضبه على هذا التحويل الذي تخيله، إلا أنه كان متأكداً أن رجال الدين الإيرانيين كانوا يرشون فقراء السوريين في القرى لتبني الممارسات الشيعية. وقد أخبرني أحد ملاك الأراضي - إيطالي الجنسية - عن قصة أحد المقاولين المسيحيين الذي قام بتجديد دورات المياه في منزله التقليدي في سوريا. وقد وافق المقاول على مواصفاته على أن تكون المراحيض وفقاً للممارسات الإسلامية ألا تواجه الكعبة بالنسبة للجالس عليها. رحب المقاول بالمهمة كما قال وهو يبطن السخرية.

اتسمت معارضة عمر أميرالاي بالعلمانية البحتة، فقد تبنى الماركسية وهو طالب في باريس ثم عندما عاد لوطنه ليكتب أولى أعماله في عام ١٩٧٠م، خُدع بمشاريع التنمية الطموحة الخاصة بالحكومة لأفقر منطقة في الدولة. وكان فيلم «محاولة سد الفرات» تعظيماً منه لسد الرئيس الأسد والذي يعتبر أكبر مشروع لهندسة المياه في الدولة، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن المشروع يعج بالفساد والعرقلة. وقد فحصت أعماله اللاحقة أسس النظام الحاكم، وحزب البعث على وجه الخصوص، وهي أيديولوجية اعتقد أنها تتمتع بتطوير مذهل وهوية قومية لدولته. أحد هذه الأفلام استغل أحد أعماله السابقة وهو سد الفرات، إلا أن وجهة نظر أميرالاي اتسمت بالصلابة كما يوضحها عمله الجدلي الذي يحمل عنوان: «خمسة عشر سبباً لكرهي حزب البعث». وقد تم منع الفيلم الوثائقي الذي يحمل قدراً أكبر من المسالمة وهو «طوفان في بلد البعث» في سوريا على الرغم من توافره بالفعل على شرائط دي في دي (DVD).

ومثله مثل الكثير من السوريين آمن أميرالاي بـ«ربيع دمشق» لعام ٢٠٠٠م، فوقَّع على البرنامج الأساسي لحركة المعارضة السورية الديموقراطية. لقد كان وقتاً مليئاً بالتفاؤل في تلك السنة التي جاء بشار الأسد فيها إلى السلطة. ومن أوائل الأوامر التي أصدرها بشار هي أنه أرسل إلى الإعلام التابع للدولة بأن يستخدم «معلومات متوازنة ومنطقية وأن يتجنب التعظيم والمبالغة والتمجيد». وفي تعليمات أخرى، منع الإعلام من

استخدام مصطلحات «الرئيس الخالد» و«للأبد» إشارة إلى تحديد مدته الرئاسية. لقد بدا الأمر وكأن سوريا تطوي إحدى صفحاتها إلا أن دورة جديدة من الاعتقالات قد بدأت خلال عام واحد. «ومع ذلك، فقد كان هناك نوع مختلف من القمع كما شرح أميرالاي: أكثر رقة ومختلف عن النهج الوحشي الذي ساد في الماضي. لقد وجدوا طريقة ذكية لمواصلة القمع النوعي وليس الكمي. ففي الماضي أرسل المئات والآلاف إلى السجن».

وفي عام ١٩٨٢م، أخمد والد بشار تمرداً أثاره الإخوان المسلمون حيث أرسل كتائب سورية لمحاربة الانتفاضة في مدينة حماة؛ وفي غضون أسبوعين من القذف بالمدفعية الذي ساوى بعض الأجزاء من المدينة بالأرض، سحق مؤسسي الحركة وقتل وسجن الآلاف من المدنيين. أودت المواجهة بالدولة إلى حافة حرب أهلية. وحتى اليوم، ما زال الانتماء للإخوان المسلمين الخارجين على القانون يعد وصمة عار كبرى.

ولكن منذ ذلك الحين والحكومة «قد دربت المجتمع المدني بشكل جيد» وذلك وفقاً لأميرالاي، لذلك بعد عام ٢٠٠٠م وبوصول الرئيس بشار إلى السلطة اكتشف النظام أنه بإمكانه أن يعتقل عشرة أشخاص فقط أو شخصية واحدة بارزة من الطبقة المثقفة وسيحصلون مقابل ذلك على فترة من الهدوء. وأعتقد أنهم فازوا في سياسة القمع هذه».

لقد كانت سوريا مكاناً محيراً؛ فعلى جانب تستطيع أن تجلس لساعات تتحدث في السياسة في إحدى الأمسيات اللطيفة تحت الإضاءة الخافتة. واستطاع أميرالاي أن يشخص مواضع الفشل في سياسة النظام لأحد الصحفيين الأمريكان بدون الخوف من الاعتقال في هذه اللحظة أو لاحقاً في المساء ذاته. لم تكن أبداً سوريا قمعية كالعراق القديم، أما الآن وتحت حكم بشار، أصبحت توجد تحسينات مرئية لا يستطيع أميرالاي إنكارها. وحتى أكثر المنشقين حماسة حذروا من أن سوريا تحتاج لتغيير تدريجي للحفاظ على الاستقرار. لقد بدا أن النزاع مع نظام بشار يتم في إطار زمني.

وقد صرح أميرالاي ـ وكأنه كان يتوقع سؤالي الذي طرحته نظراً لأن

معظم النشطاء البارزين في سوريا قد سجنوا: «ربما أمثل أنا حالةً خاصة. إن الخطر إنما يداهم المنشقين فقط عندما يتحدثوا في السياسة، إلا أنهم لم يقوموا باعتقال أي شخص بسبب عمل ثقافي أو فني، فهم ليسوا معتادين على اعتقال الفنانين».

لدى الأنظمة القمعية منطق مفهوم في السماح ببعض الانتقادات ومنع بعضها الآخر. إن السماح بالنقد الذي يأتي في شكل أفلام أو مسرحيات أو روايات يمكن أن يخدم أغراض النظام. ويعتبر جمهور الفن في دولة فقيرة مثل سوريا محدوداً، كما أن أعضاء النخبة المثقفة التي تنتج هذا الفن تفتح النافذة أمام العاطفة في الشوارع والتي يمكن أن تكون مخادعة لمخابرات محترفة مثل الموجودة في سوريا؛ كما أن هناك ميزة إضافية كما يقول أميرالاي: «فمنذ بداية عهد الرئيس الأسد قاموا بوضع هذا الهامش، فيجب أن تكون هناك طريقة لتنفيس الغضب».

ولكني لم أفهم منطق القمع. وقد حدثت أقسى حملة على حركة الإصلاح الوليدة في سوريا عام ٢٠٠٦م. وحتى ذلك الحين، لم يحصل بشار الأسد على متنفس في الداخل فقط إنما حصل على مؤيدين من الخارج أيضاً لحكمه. حتى إن إسرائيل تشاورت مع واشنطن في إظهار التحفظ على زعزعة نظام الأسد. ولقد سألت أميرالاي لماذا أخمدت السلطات السورية حركة إصلاح ضعيفة تتمتع فقط بالقليل من الدعم من السكان السوريين في وقت كان فيه النظام على يقين ببقائه في السلطة.

«إنهم يكونون أكثر قمعاً إذا كانوا أقوياء ليظهروا للقوى الأجنبية أننا لا نستسلم، إنها رسالة، نحن نقمع شعبنا حتى ولو كنا لسنا في حاجة لذلك. وحتى إن كان هناك حد أدنى من المقاومة سيقومون بتقليصها فقط ليثبتوا أنهم أقوياء بما يكفي بحيث لا يستسلموا لضغوط واشنطن. فهم يستخدموا البلد كرهينة حتى يثبتوا أنهم يطبقون السياسات الصحيحة وأنهم اتخذوا القرارات الصحيحة».

وفي دولة مفككة بدرجة كبيرة مثل سوريا، ومع خطر انتقال الطائفية إليها من العراق عبر الحدود، ومع وجود إدارة معادية في واشنطن، قررت حكومة بشار الأسد أنها لا تستطيع تحمل إظهار الضعف. عزز بشار سلطته

وأضعف المعارضة وقدم للسوريين السلوان متمثلاً في فتح الاقتصاد ـ وتمثل ذلك في توفير الكثير من فرص العمل الجديدة وأجهزة كمبيوتر وسيارات جديدة وبضائع استهلاكية مستوردة بأسعار رخيصة. وما زالت نسبة البطالة تقترب من ٢٠٪ وأعلى من ذلك بالنسبة للشباب. وكان الفساد بين النخبة الحاكمة وخاصة دائرة العائلة وأصحاب الولاء المحيطين بالرئيس مستشرٍ كالعادة. ولكن بالنسبة للرجل العادي في سوريا كانت الرعاية الصحية مجانية وكان هناك دعم للغاز، وكان الطعام رخيص نسبياً. وكانت سوريا هادئة. على الرغم من أنه ربما تكون هذه الصفقة من الهدوء الداخلي استراتيجية قصيرة الأجل، إلا أنه في الشرق الأوسط اعتبرت من السياسات الحاكمة الناجحة.

واعتبر أميرالاي مستقبل سوريا كضوء النهار الذي تلاشى على شارع مصفوف بالأشجار في دمشق، فما زلنا نجلس في فناء أحد المعارض الفنية لساعتين وتتوالى علينا أكواب الشاي حفاظاً على ما تمليه الضيافة الدمشقية وقال: «إن المجتمع السوري في معاناة» وأضاف: «أعني أننا متخلفون تماماً في مجال العلوم والطب». وقد كان سقوط حركة الإصلاح السورية يعني أن بشار ومعاونيه سيفرضون معدل تقدم التغيير. هل بقي بشار لأن السياسة السورية كانت هي السياسة الصحيحة لهذا الوقت، أم لأن إدارة بوش قد اقترفت الكثير من الأخطاء في المنطقة؟ كان أميرالاي يسأل نفسه هذا السؤال: «إنهم يعرفون أن النظام السوري يعرف أنهم بقوا لأن هناك كارثة في الشرق الأوسط. لم يكن بشار لاعباً سلبياً. لقد فعل كل شيء ليجعل الأمور أكثر سوءاً من حوله. لقد تدخل في لبنان وفي العراق وفي فلسطين». ومثل والده، ذهب بشار بعيداً في ذلك. فقد اخترع الرئيس حافظ الأسد طريقة للالتفاف حول دولته الصغيرة والضعيفة اقتصادياً والتي تقع في موقع استراتيجي باتخاذها دور وسيط السلطة من خلال الدخول في تحالفات وإصدار التهديدات. واليوم، أصبح هدف ولده الفوري هو الحفاظ على حكمه العلوي في بلد يسيطر عليها السُّنَّة.

وبالنسبة لأميرالاي، كان هناك الكثير من الأطراف المخطئة مسؤولة عن هذه الفوضى في المنطقة. وكانت العراق مجرد مثال، ولكن المشكلة كانت أكبر بكثير من العراق وكانت هنا في حشد غريب من الأفكار حتى أن

أميرالاي وهو منشق منذ زمن وماركسي سابق شارك بعض الكراهية لمعظم داعمي جورج بوش. كان الحكام المستبدون في المنطقة هم المشكلة، وهذا هو التشخيص الصحيح، ولكن أسلوب واشنطن في التعامل معهم كان كارثة. «كان بوش هو فاكهة الحفلات» كما شرح أميرالاي وهو يبتسم وهو يشكل الصورة التي صنعها ليجعل الأمر من البساطة التي يفهمها أي أمريكي. «المشكلة هي الكعكة بأكملها. ولكن بوش كان جزءاً صغيراً من المشكلة». بإمكان المستبدين الذين طالت مدة حكمهم في المنطقة الآن ربط العراق بالمشروع الأمريكي في الشرق الأوسط. وأصبحت الديموقراطية والتعددية سلعة صعبة البيع.

الفصل السادس

أكثر الزوجات أمانة في العالم

لم تكن أم نور مسرورة بي. أستطيع أن أرى عيونها تضيق وهي تلقي نظرة عامة على ملابسي. زمت شفتيها وتناولت حقيبتها لتخرج زجاجة عطر وردي قوي، فركت يدي به.

هي إحدى النساء السنيات اللاتي هربن من التهديدات بالموت التي وصلت من المنطقة الشيعية المجاورة في بغداد، كانت أم نور جميلة لكنها شاحبة، قدمت وحيدة إلى دمشق عام ٢٠٠٦م. وعندما تقابلنا لأول مرة رحبت بي في منزلها المتواضع في الطابق السفلي لإحدى الشقق الخرسانية غير مكتملة التشطيب في حي يغص بالعائلات اللاجئة. تحدثنا لساعتين ودخلنا حجرة ابنتها مثل أصدقاء قدماء. كانت صريحة بدرجة ملحوظة في حديثها حول شيوع البغاء في مجتمع المنفى. انتهى الحوار بعودة ولديها من المدرسة وهما بنت في سن المراهقة وولد أصغر قليلاً. وقد قامت باستقبالهما ورعايتهما كما تقوم أي أم حنون بهذا الدور.

قبل ذلك بعدة أشهر، عرضت على أن تصحبني إلى الملهى الليلي المفضل لديها، وقالت مؤكدة: «ليس عليك أن تدفعي أية أموال لتذهبي إلى هناك». أم نور كانت هي المسؤولة عن تلك الليلة وكان عليّ أن أتغاضى عن فحصها الدقيق. بحثت في خزانة ثيابي عن ملابس مناسبة. إن بدلة لامعة جذابة لملهى ليلي ستكون زائدة عن الحد. وقد ألقت نظرة في حقيبة التجميل الخاصة بي وقررت أن ما ينقصني يمكن تعويضه بالأسلوب العراقي في وضع مساحيق التجميل. وقد وجهت لي إنذاراً واحداً حازماً: «لا تتحدثي الإنجليزية».

ساعدتني دعوة أم نور في الإجابة عن أحد الأسئلة التي أرقتني: لماذا تحول الكثير من النساء والفتيات إلى تجارة الجنس ليتمكنوا من البقاء على قيد الحياة في دمشق؟ أدى هذا السؤال إلى مزيد من الأسئلة منها: لماذا لم يكن أي شخص يفعل الكثير ليحميهم؟ حاورت خبراء في مكتب مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وتحدثت مع الكثير من العراقيين المنفيين، إلا أن الحوار مع النساء والفتيات اللاتي يعشن من تجارة الجنس وقضاء بعض الوقت معهم كان أصعب مما أتخيل. كانت أم نور أفضل الفرص لإلقاء نظرة على هذا العمل وكانت مستعدة لتأخذني إلى هناك.

في كل مرة أعود فيها لدمشق خلال عام ٢٠٠٨م كنت أقابل أم نور. كان البغاء وسط اللاجئين أحد سقطات حرب العراق، وكان اختيارها للبقاء على قيد الحياة بهذه الاستراتيجية في دمشق إجراءً لتوفير الاحتياجات في مجتمع المنفى. وبمرور الوقت تحسنت حياتها، فهي تستطيع الآن أن تتحمل مصاريف مدارس أبناءها، وفي إحدى الزيارات لاحظت أثاثاً جديداً في غرفة المعيشة بشقتها. وقد قدمت الشاي للاحتفال ببسطة العيش.

لقد قدمت لي حتى أجرأ تفاصيل حياتها الشخصية، موجهة دفة الحوار إلى الظروف التي تؤثر على المجتمع بشكل عام. قالت: إن أسعار الطعام مستمرة في الزيادة. كانت الحياة صعبة بالنسبة للجميع وكانت الوظائف قليلة، إلا أنه على الرغم من هذه الصعوبات ما زال العراقيون في المنفى غير عازمين بعد على العودة إلى بغداد. لن تعود إلى بغداد. لقد أخذت على نفسها عهداً أن تبقى في دمشق حتى تتغير الحكومة التي يسيطر عليها الشيعة في العراق.

لم تعترف أم نور أبداً أنها بغيّ، ولم أسألها أبداً السؤال بشكل مباشر. ظلت حواراتنا حول تجارة الجنس في الإطار «العراقي»، وقد غلفت بالغموض ما يتعلق بانخراطها الشخصي فيه تفادياً للمأزق الأخلاقي، ولكنها كانت محددة فيما يتعلق بما تفعله النساء الأخريات. حذفت أم نور من قصصها عن نفسها الكثير من التفاصيل، وهذا التذكر الانتقائي يعتبر أحد مهارات البقاء على قيد الحياة.

كان صعباً على النساء العراقيات الاعتراف بمثل هذا السلوك المشين.

وفي كافة حواراتي لم تعترف لي إلا امرأة واحدة فقط وهي تقص علي كيف جمعت الأموال لدعم أطفالها وبقية العائلة: «أنا أخرج مع الرجال»، قالتها هبة بفجاجة. كنا نجلس في شقتها في حجرة ابنتها. كانت والدة هبة جالسة بجوارها وقالت لي للتو: إن هبة تعمل كخادمة لتنظيف المنازل، ولكن هبة وهي سيدة لطيفة في السابعة والعشرين من عمرها أزاغت عينيها وأطلقت صوتاً معترضاً على كذبة والدتها. وجعلت صراحة هبة والدتها تطوي ذراعيها وتشيح بوجهها بعيداً. أكدت هبة: «كنت في بغداد أكثر الزوجات إخلاصاً في العالم». وأخبرتني هبة أنها تخرجت من الكلية ثم تزوجت وتفرغت بالكامل للقيام بأعباء الأمومة بعد أن أنجبت ابنتها الأولى. كان والدها يعمل صائغاً وعاشت العائلة في سعة في العراق. كانت هبة وعائلتها صابئين مندائيين وهي إحدى الأقليات الدينية من بين أقدم الديانات في العراق بجانب المسيحية والإسلام. يوقر الصابئة المندائيون يوحنا المعمدان وتتم طقوسهم الدينية بدءاً من التعميد إلى الزفاف في المياه الطمية لنهر دجلة بالعراق. وقد وضعهم ثراء وإيمان هذا المجتمع أمام خطر المتشددين المسلمين. وفي عهد صدام، عاش حوالي سبعون ألفاً من الصابئين المندائيين في العراق؛ وبحلول عام ٢٠٠٨م هرب معظمهم تقريباً من البلاد.

في عام ٢٠٠٤م، اختطفت ابنة هبة عندما كانت العائلة في رحلة لزيارة بعض الأقارب. «كانت العصابة تتبعنا» كما قالت، وعرضت العائلة فدية ٢٠٠٠٠ دولار، ولكن بعد عودة ابنة هبة تم تهديدهم مرة أخرى بسبب ديانتهم وهربت العائلة بأكملها لسوريا عام ٢٠٠٥م.

أشارت هبة ذات الشفاه الممتلئة والعيون الواسعة والشعر البني اللامع لابنتيها بالخروج من الغرفة. قالت هبة: إنها الآن العائل الوحيد للعائلة بعد أن اختفى زوجها منذ ثمانية أشهر. «لقد سئم من الحياة وهرب». وانتهت قصة هبة. هل كان هذا الحدث هو ما دفع هبة إلى تجارة الجنس أو أن زوج هبة قد رحل بسبب عملها؟ لم أستطع إخفاء دهشتي وأنا أنظر إلى الشقة الصغيرة المؤثثة بشكل جيد. لقد كان هناك تلفاز في غرفة المعيشة وآخر في غرفة الفتيات بجانب مشغل دي في دي (DVD)؛ وكان هناك بالونات على سجادة غرفة المعيشة بقيت من أحد أعياد ميلاد ابنتيها من اليوم السابق،

وارتدت هبة عقداً ثقيلاً من الذهب عليه اسمها بحروف إنجليزية كبيرة ومزين بفص ألماس صغير يلمع على أحد الأحرف.

تحدثت هبة بصراحة عن «عملها» ثلاث ليالٍ في الأسبوع. كانت تذهب إلى «حفلات» في بعض الأحياء خارج دمشق، وهذه الأحياء معروفة بأنها مركز للبغاء. وكان عمل هبة في الحفلات المنظمة يمكنها من أن تمارس البغاء خارج دائرة الملهى الليلي عن طريق الحفلات التي تقام في الشقق. وهذه الحفلات هي الأكثر خصوصية في تجارة الجنس.

أردت أن أعرف عن النساء الأخريات: النساء العراقيات، هل لديها أصدقاء هناك؟

«العائلات تحضرهم، بعض عائلاتهم تعرف ما يفعلون؛ حتى إن بعضهم يحضرون إخوانهم معهم. لا يرغب أي أحد في القيام بذلك، ولكنها الطريقة الوحيدة».

«حتى مجرد الذهاب لهذا المكان بدون فعل أي شيء ليس جيداً بالنسبة لي. الأمواج هناك كانت مرتفعة بالنسبة لي». تخيلت أن الموجة التي تقصدها هبة هي موجة اليأس، يأس من المستقبل دفعها لبيع نفسها في مهنة تجارة الجنس في دمشق. ليس لدي شك أن هذه الموجة قد ضربتها بالفعل. سقط كل سؤال أجابته هبة كالصاعقة على رأس والدتها التي استمعت في صمت لكل ذلك. هل قاموا بمناقشة البدائل المتاحة قبل أن تسلك هبة هذه المهنة؟ أو هل قررت هذه المرأة الشابة التي هجرها زوجها حضور إحدى «الحفلات» كمحاكاة للحياة الطبيعية؟ وعندما غادرت بعد حصولها على النقود تساءلت كيف ستشعر في المرة الثانية أو الثالثة أو المئة؟

أرادت هبة أن أعرف كم هي امرأة جيدة، ومتعلمة أجبرت على القيام بتضحية أثقلت كاهلها هي أكثر مما أثقلت بقية الأسرة فمضت تقول: «أحياناً أتذكر هذه الأيام الجميلة، كان لدينا منزل كبير، وكان لدي خدم في المنزل». وضعت يديها على عينيها للمرة الأولى بعد أكثر من ساعة من الحوار. «ذهب كل ذلك مع العراق. أخذ بوش كل شيء».

سألت أم نور في إحدى الأمسيات إذا كان نساء مثل هبة يمكنهم أن يعودوا إلى العراق؟

قالت أم نور: «إنهم يعرفوننا هنا في سوريا. يمكن أن أقتل إذا عدت إلى هناك. سيقتلني أقاربي فوراً». وهنا زل لسان أم نور فتحدثت بضمير المتكلم عن هذا الموضوع الحساس. يفرض على البغاء حظر من نوع خاص بالنسبة للنساء العرب وذلك نظراً لأن العار يمتد للعائلة بأكملها ويمكن أن يؤدي هذا العار إلى قتلها من أقاربها الذكور في إطار ما بات يعرف بجرائم الشرف.

قالت: «أعرف فتيات أخريات يقلن ذلك أيضاً». بعض الفتيات يضعن النقاب على المسرح للتأكد من أنه لن يراهن أحد يعرفنه.

وشرحت أم نور أن النقاب ـ وهو غطاء الوجه الأسود الذي يضعنه غالباً النساء المسلمات المحافظات ـ كان أداة لتخفي بعض البغيّ على منصة الرقص، ليكون حماية من مفاجأة وجود أحد الأقارب من الذكور أو جار قديم وسط الزبائن. ذكرت أم نور النقاب من قبل في لقاءنا الأول عندما شرحت الملابس التي يتم لبسها في الملهى الليلي. وقد وجهت انتقاداً لاذعاً للفتيات الشابات اللاتي يبقين بدون ساتر عند تقديم العرض، إلا أن النقد الأكثر حدة وجهته للنساء اللاتي يرقصن واضعات النقاب. وقد ظننت أنها تزدري نفاق النساء اللاتي يبدين التدين وهن منخرطات في هذه التجارة، ولكنها كانت تقصد من وراء هذا الانتقاد إشارةً أخرى مفادها أن تعتبر استخدام النقاب في هذه المهنة يشير إلى حرص من يستخدمنه على تأمين عودتهن إلى العراق، وهذا يذكرها بأنها اختارت استراتيجية تبقيها على قيد الحياة وتمنعها في الوقت ذاته من العودة إلى العراق. وفي إحدى القصص الأخرى، سمعت عن إحدى النساء العراقيات العاملات في تجارة الجنس كان عملاؤها شباباً من الشيعة من جيش المهدي جاءوا إلى سوريا في فصل الصيف للإجازة، فقد دفعوا لها ثمن ممارسة الجنس، واستمتعوا بصحبتها ولكنهم هددوها بقطع رأسها إذا عادت إلى العراق مرة أخرى.

* * *

تحول المئات من العراقيات في المنفى في سوريا إلى تجارة الجنس للبقاء على قيد الحياة. وكل الحروب تقريباً تولد تجارة البغاء، ولكن في دمشق دفع بفتيات صغار في عمر العاشرة إلى هذه التجارة من قبل والديهم ـ

آباءهم وأمهاتهم - الذين يعقدون الصفقة ويعيشون من الربح. لم يسمح للاجئين - بشكل رسمي - بتقلد الوظائف وكان عليهم أن يدبروا أمورهم باستخدام أية مدخرات يمتلكونها؛ ومع تناقص المصادر كان يدب اليأس إلى النفوس مما أدى إلى وجود هذا الاقتصاد السري.

شكلت الأسر التي تعولها نساء حوالي ربع اللاجئين المسجلين في وكالة الأمم المتحدة للاجئين. وكان لدى الكثير من النساء الأرامل أو المطلقات أو الذين انفصلن عن أزواجهن بسبب الحرب أطفال أو آباء مسنين ليعولونهم؛ وكان الجنس هو عادة الشيء الوحيد الذي يملكونه وهو قابل للتسويق.

وأصبحت دمشق - في ظل ازدهار تجارة البغاء وانخفاض سعر المومسات العراقيات الشابات في مجملهن - وجهة للسياحة الجنسية، ودخلت بيوت الدعارة الدمشقية في منافسة مع بيوت الدعارة في لبنان.

تقول أثير مدين وهي امرأة أردنية قصيرة عملت كمسؤولة حماية في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في مقرها في دمشق: «ثمة مكان هنا يسمى الشارع السعودي». هذا الشارع جزء من المدينة يقوم فيه الرجال السعوديون بتأجير شقق للعطلات ثم يتفاوضون حول أسعار الفتيات. «هؤلاء السعوديون يدفعون ٥٠٠٠ دولار مقابل الشهر مع الفتاة. يعقد الخليجيون الصفقة مع الأم، وتعقد الكثير من الصفقات عبر الهاتف النقال. ويقول بعض الكويتيين: إنهم يأتون إلى هنا كانتقام من صدام». بهذه الجملة الأخيرة رفعت أثير حاجبيها وأمالت رأسها لتتأكد من فهمي لمغزى ذلك.

انطوى العداء بين العراق والكويت على أسبابٍ عديدة. وكان صدام قد علاه الغضب أثناء محاكمته المذاعة في بغداد عندما تحولت المناقشة إلى احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م والتي كانت إحدى التهم الرئيسية التي قرأها القاضي العراقي في قاعة المحكمة.

«كيف يمكن لصدام أن يحاكم بسبب الكويت؟» قالها صدام بصوت مدو مشيراً لنفسه بضمير الغائب. «كيف يمكنك أن تدافع عن هؤلاء الكلاب؟ إنهم كانوا يحاولون تحويل النساء العراقيات إلى بغايا بعشرة دنانير» قالها صائحاً في وجه القاضي. اعتقد الكثير من العراقيين أيضاً في التسعينيات أن

الكويتيين خفضوا عن عمد أسعار النفط للضغط على اقتصاد العراق بعد الحرب الإيرانية العراقية المدمرة. كانت عبارة «تحويل النساء العراقيات إلى بغايا بعشرة دنانير» إهانة نُقلت على لسان أمير الكويت خلال أحد الاجتماعات الحاسمة مع وزير الخارجية العراقي. وبعد الاحتلال الأمريكي، أخبر صدام في محبسه أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي أن هذا كان السبب في إصداره أمر الاحتلال للكويت. كان كل العراقيين يعرفون هذه القصة. واستمر العداء بين العراق والكويت حتى بعد صدام.

تقول أثير مدين: «ليس كلهم يرغبون في فعل ذلك، ولكن الزوج يهدد. عادةً ما تتزوج المرأة فقط للخروج من العراق ثم يدفع بها إلى البغاء عندما تصل إلى هنا». ولم يؤسس برنامج مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لحماية النساء العراقيات سوى في عام ٢٠٠٧م. ولم تتمكن أثير من الوصول للنساء اللاتي يعملن في تجارة الجنس مثلما تمكنت أنا.

«كانت أصغر من رأيتها في عمر الثانية عشر. رأيت رجلين من الخليج مع هؤلاء الفتيات الصغيرات في السابعة صباحاً» كانت أثير تصطحب أطفالها إلى المدرسة عندما لفت نظرها الرجلان بأثوابهم البيضاء الطويلة وهي الملابس المميزة للرجال في الخليج. لم يكن مسموحاً لأثير كمسؤولة في الأمم المتحدة بزيارة الملاهي الليلية، ولكنها أسست برنامجاً للوصول إليها من خلال توظيف أربعين لاجئة عراقية لتعيين الحالات.

«نجدهم أيضاً في مراكز إعادة تأهيل الأحداث. أحياناً يلقي البوليس السوري القبض على الفتيات اللاتي يجدهن في الشقق، وأحياناً يكونون سبع أو ثمانية كلهن أقل من ثلاثة عشر عاماً». ولكن بالنسبة لهؤلاء الشابات العراقيات تعتبر الفرص المتاحة لتغيير وجهات نظرهم نادرة.

«نحن نمنح الدعم، وبإمكاننا أن نقدم لهم ٢٠٠ دولار في الشهر، ولكن العائلات تقول لنا: «نستطيع أن نحصل على ذلك في يوم واحد فلماذا نتوقف؟» أضافت بنبرة غاضبة في صوتها: «لدينا مشكلة في الوصول إلى العائلات، حتى عندما تخرج إحدى الفتيات من المركز فسرعان ما تختفي إذا كانت العائلة متورطة في ذلك».

هزت أثير رأسها. كانت تحاول جاهدة أن تفهم كيف يمكن لعائلات

أن تستغل بناتها بهذا الشكل. لقد عملت مع لاجئين في الأردن وسوريا. وبدأت حديثها بتوضيح أن ذلك أصبح جزءاً من الثقافة عند البعض نتيجة لعدة عوامل معقدة منها تدمير صدام حسين للشخصية العراقية وعقوبات الأمم المتحدة والاحتلال الأمريكي والعنف المستمر. لقد كانت هذه التوضيحات تضاف إلى الاضطرابات التي حدثت بعد صدام. ولكني قابلت الكثير من العراقيين الذين يحبون أطفالهم ويحمونهم حتى في أقصى ظروف المنفى. لقد عرفت الكثير من النساء العراقيات في دمشق الذين وجدوا طرقاً أخرى لإعالة عائلاتهم. واستقرت أثير أخيراً على ملخص يضم كل السلوك الصادم لليائسين من الحياة: «لقد تعلمنا مع الوقت أن العراقيين فقدوا الأمل، إنهم لم يعودوا يؤمنون بوجود مستقبل، لقد أصبحوا ناجين فقط».

* * *

نظرت أم نور إلى الساعة في يدها. لقد قارب الوقت منتصف الليل وأرادت أن نذهب إلى الملهى الليلي حتى نمضي بقية المساء هناك. بينما لم أنجح في اختبار اختيار الملابس، إلا أن التغير الذي أحدثته هي في مظهرها كان ملحوظاً. لم أكن لأعرفها في الشارع. في أحد لقاءاتنا النهارية كانت تلبس سروالاً فضفاضاً وتربط شعرها الأسود إلى الوراء ويبدو على وجهها التعب. أما الآن فشعرها الأسود الطويل كان لامعاً ومصففاً مع غرة كثيفة تحيط بوجهها؛ وتلبس قميصاً ضيقاً مليء بالترتر، وسروالاً أسود ضيقاً بحزام. وكانت شفاهها حمراء عميقة وعيناها محددة بلون أسود كثيف. كما لبست خاتمين من الألماس المقلد وبين أصابعها القصيرة والغليظة المزينة بالأظافر الصناعية هاتف نقال غالي الثمن.

رافقتني أم نور إلى الملهى، ومررنا برجال يلبسون معاطف سوداء ليلية عند الباب الأمامي. كان يمتلك هذا الملهى سوريون ويقدمون الرشاوى للشرطة السورية عند الضرورة وتستدعيهم عند وجود أي مشاكل. كان معظم الزبائن من العراقيين. كانت الغرفة واسعة ومظلمة مع كشافات موجهة على منصة الرقص. هناك فريق يعزف في الظلام خلف المنصة، مما يجعل إقامة أي حوارات مستحيلاً. هناك مئة منضدة على الأقل. جلس معظم الزبائن في مجموعات صغيرة بالقرب من المنصة يشربون ويدخنون الشيشة بطعم التفاح. وكانت العائلات تجلس في الوراء، الأمهات والآباء والفتيات الشابات. أما

النساء الوحيدات في العشرينات والثلاثينات من العمر احتلوا مقاعد في أكثر المناطق ظلمة لمتابعة المكان بشكل أفضل. اختارت أم نور منضدة بالقرب من المدخل الخلفي وأمنت موقعنا وذهبت إلى دورة المياه النسائية. مررنا بالملاك السوريين، ولم نجد بداً من مسايرة الزبائن العراقيين.

«لن أرقص حتى أُصبح ثملة» قالتها إحدى النساء. وهي تلبس ثياب قفز مطاطية مع حمالات كتف شفافة. مالت على مرآة دورة المياه لتضع محدد العيون بجانب صف من النساء العراقيات اللاتي يقفن في الوضع ذاته. يعتبر ذلك من الطقوس النسائية البحتة وهو تجمع النساء أمام مرآة دورات المياه العامة. كان المكان مزدحماً بالنساء اللواتي يلبسن الملابس الضيقة التي تُفَصِّلُ أجسادهن. شعور سوداء لامعة. أحذية ذات رقبة. وجوه شابة. أجسام مستديرة. لنلق نظرة أخيرة. هذا المقدار من محدد العيون يكفي. هل أحتاج لمزيد من البودرة؟ ثم ساد القلق الغرفة بسبب الصفقات التي ستبرم لاحقاً في هذا المساء.

امرأة أخرى اسمها عبير قالت: «حاول زوجي تهريب الأطفال إلى السودان إلا أنه ألقي القبض عليهم وعادوا مرة أخرى إلى بغداد». وقد طُلقت من زوجها عندما سافر إلى السودان، ووافقت على الانفصال وخسرت طفليها، وهي الآن تعيش مع أختها وتشعر بالقلق على أطفالها؛ وتقوم بإرسال أرباحها من الملهى لأطفالها في بلدها. ولكن لماذا جاءت إلى دمشق؟ سألتها. ما الذي جاء بها أصلاً؟ قالت: «كنت أعمل صحفية». في عام ٢٠٠٧م عملت لدى محطة تلفزيونية ومقرها بغداد. كانت تعمل مراسلة إلى أن وجدت والدتها خطاباً ألقي في حديقة المنزل: «ارحلي في غضون ٤٨ ساعة وإلا سنقتلك». كانت سوريا هي الحدود الوحيدة المفتوحة. وبينما كنت أتأمل خيارات عبير، نقرت فوق هاتفها النقال لتغلقه، ونظرت نظرة أخيرة في المرآة وتحركت تجاه الباب: «ليلة سعيدة» قالتها بلهجة سيدة أعمال لأخرى وهي تشق طريقها في ظلام الملهى الليلي.

عرفت لماذا كان هذا الملهى الليلي هو المفضل بالنسبة لأم نور، فقد لقي نظام المكافآت فيه استحسان النساء اللاتي رغبن في التمتع ببعض السيطرة على عملهن. لقد كان سوقاً للعمل الحر بدون عقد.

سرت عبر الباب الأمامي، بينما كان الزبائن يسددون رسوماً باهظة مقابل المشروبات الكحولية والوجبات الخفيفة التي تقدم على المائدة. وشرحت أم نور أن النساء كانوا يسددون للرجال السوريين على الباب في نهاية الليلة فقط إذا غادرن بصحبة أحد الرجال.

لقد سجلت أقدم مهنة من هذا النوع في التاريخ لأول مرة في بلاد الرافدين في الألفية الثانية قبل الميلاد. وقد اعترفت شريعة حامورابي - وهي أولى القوانين الثابتة للممالك في العالم القديم - بمهنة البغاء ومنحت البغايا بعض حقوق الإرث.

وتسببت عقوبات الأمم المتحدة التي وقعت عام ١٩٩١م لإجبار صدام على الكشف عن أسلحة الدمار الشامل العراقية في جعل هذا العقد من الزمن صورةً للحرمان والفساد. لم يتأثر صدام بعقوبة الحظر على التجارة والشحنات، ولكن العراقيين أصابهم الفقر والحاجة بانحلال النسيج الاجتماعي. سمعت الكثير من القصص حول هذه السنوات. حمل العراقيون الكثير من الذكريات القاسية والتي كانت واضحة ومهمة مثل الاحتلال الأمريكي الحالي. سرد لي أحد الأطباء العراقيين بعض هذه الذكريات قائلاً: «كان والدي دائماً ما يقول: بوش جعلنا نتضور جوعاً، بينما طردنا بوش الآخر من وطننا». دمر الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة والده الثري مما قلل الطعام اليومي الذي تتناوله الأسرة إلى أن اقتصر على الطماطم والخبز والبصل وقضمات صغيرة من اللحم في المناسبات الخاصة. وأصبحت أكثر الأمراض شيوعاً والتي كانت قابلة للعلاج في السابق تؤدي إلى الموت مع نفاد الإمدادات الطبية. وأخبرني أحد الأطباء العراقيين عن أمر ذكرياته التي ترجع للعقد الذي وقعت فيه العقوبات بانتقال والده إلى منزل أرخص وأخبرني عن وفاة أخته بسبب الرعاية الطبية غير الكافية. وفي هذه الأوقات اليائسة أيضاً تحولت بعض النساء العراقيات إلى البغاء للبقاء على قيد الحياة.

لاحظ صديق آخر عاش في بغداد في هذه الفترة أنه: «لا يمكنك أن تبالغ في تقدير الضرر الذي سببته هذه العقوبات على المجتمع. لقد أصبح أمراً ممكناً أن يساعد أخ عراقي أخته ويرافقها إلى أحد الزبائن الذي سيسدد

الثمن لأنه من غير اللائق أن تذهب بمفردها. وانخرطت طالبات الجامعة في ممارسة البغاء لحاجتهن للنقود لشراء الطعام. ولعب بعض أفراد طاقم العمل الإداري في الجامعة دور القوّاد».

ولم يتذكر العراقيون فقط الدمار الاجتماعي ولكن تذكروا أيضاً فترة التسعينيات عندما رفع صدام شعارات الإسلام ليدعم شرعيته وكأنه فجأة اكتسب ضمير أخلاقي جديد، فقد استبعدت حملة صدام الإيمانية القومية البغايا واشتملت على حملة عامة لوقف أنشطتهن. وأعلن صدام في التليفزيون العراقي أن هؤلاء النساء العراقيات «يجلبن العار على الدولة». وأطلق صدام من عام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠١م جيش صدام الفدائي الذي كونه ولده عديّ ليرسل رسالة مؤكدة إلى شعبه المهزوم. تم جمع عدد من النساء المتهمات بممارسة البغاء وتم قطع رؤوسهن في بغداد والمدن الأخرى. وقام الجلادون بعملهم باستخدام السيوف. وتركت رؤوس النساء المدانات على أعتاب منازلهن. أظهرت عمليات قطع الرؤوس المرعبة والإهانة العامة التي وجهت للعائلات بأسرها قسوة صدام. وأصبح جزء من العقاب متمثلاً في تشهير الدولة باسم العائلة التي تنتمي لها البغي لا سيما وأن الشرف يعتبر مفهوماً عميقاً في الهوية العراقية وتلعب فيه النساء دوراً بارزاً، ولكن بالنسبة للمشهد الأخلاقي في المنفى الذي شكلته جزئياً الحرب الأهلية الطائفية، قام البعض بالتخلي عن الشرف في صراع البقاء.

* * *

في الظلام في مؤخرة الغرفة بدت المنصة مثل كوكب مضيء، تركتني أم نور لأجلس بمفردي، وتجولت في الملهى تحيي أصدقاءها القدماء. ثم وضحت لمجموعة الرجال الجالسين خلفنا أني أوكرانية، ومن ثم فأنا لا أتحدث العربية، إلا أن ذلك لم يمنعهم من إرسال مشروبات إلى طاولتي في محاولة منهم لاستدراجي لحوار تحت تأثير الخمر. قررت أني سأكون في أمان أكثر على منصة المسرح تسلقت صاعدةً نحو الأضواء الساطعة. بدت معظم الراقصات وحيدات في الزحام.

فرقت القواعد غير المعلنة في منصة الرقص بين الراقصين. كان الرجال يرقصون مع الرجال وهم يشبكون أذرعتهم فوق الأكتاف في صفوف قصيرة،

دافعين قدماً واحدة في كل مرة في حركات دائرية؛ وكان النساء يرقصن أزواجاً أو فرادى. وفي كسر للقواعد، كان هناك ثنائي من رجل وامرأة الأمر، الذي يعتبر مبكراً وفقاً للقواعد التي تقسم هذه الليالي الحمراء.

صعد الرجال المنصة للاستكشاف وليلقوا نظرة عن قرب على البضاعة المعروضة، وكانت العروض مصممة لتناسب الجمهور العراقي، والموسيقى خليط من الأغاني العاطفية والوطنية المفضلة. أطل ممثل كوميدي على الجمهور وبدأ في سرد أسماء المدن العراقية: بغداد.. السليمانية.. الموصل... إلخ وصفقت كل مجموعة من الجمهور لمدينتهم. ألقى بالنكات حول الحياة الصعبة في دمشق، وحرك الحنين الغامر للوطن، ثم عزف الفريق نغمة أخرى مألوفة وبدأ المغني التالي في ترديد الكلمات الأولى القليلة من إحدى الأغنيات التي يعرفها صدام جيداً وهي أغنية لمدح صدام. وخرج ضوء ليزر أزرق من وسط الجماهير ليركز على وجه المغني. وفي وسط كلمات الأغنية تحول إلى أغنية تمدح فريق كرة القدم العراقي القومي منتزعاً التصفيق الحاد من الرجال الثملين.

تحركنا حول منصة الرقص، وحدقنا في التفاصيل، ونظرنا إلى الوجوه ثم رأينا نزار حسين المترجم الخاص بي يرقص أيضاً، مشبكاً ذراعيه في صف من الرجال ويبتسم ابتسامة عريضة عندما رأيته أخيراً. لم أكن أعرف أنه كان في الملهى طوال الليل. لقد كان حارسي الصامت. شعرت بالاطمئنان لرؤيته. خططنا أن نتقابل عند المدخل الخلفي ونذهب معاً في تاكسي للمنزل لمقارنة ملاحظاتنا حول ما رأيناه في هذه الليلة.

طلب مني الرجل الذي يرتدي معطف سهرة أسود ويقف عند الباب الأمامي ٥٠٠ ليرة سورية أي ما يوازي ١٥ دولار. مد يده ونظر إليّ. أراد أن يحصل على عمولته. لأني أغادر مع أحد الرجال ـ الذي كان في حقيقة الأمر مترجمي الخاص نزار ـ، فعليّ الآن أن أسدد من أرباحي المتوقعة. «ولكنه مجرد زميل!» قلتها بالإنجليزية ناسيةً تعليمات أم نور. سرت أنا ونزار سوياً واستعدنا بطاقات الهوية عند الباب الأمامي، ونحن بالنسبة للسوريين المسيطرين على المكان ما زلنا جزءاً من زبائن الملهى الليلي.

مد صاحب معطف السهرة يده مرة أخرى وكرر طلبه ـ بلهجة تحمل

إجباراً أكثر هذه المرة ـ كرر أنه يريد خمسمائة ليرة كما قال. تابعنا في السير نحو التاكسي وكان يطلبنا، وصاح بنا قائلاً: «لا تعودا إلى هنا أبداً». كان ذلك سهلاً. في الحقيقة لم أكن أرغب في أن أعود مرة أخرى. كان تيار اليأس كبيراً.

قال نزار: «رأيت أم نور تعرض صوراً في هاتفها النقال. احتفظ بهذه التفاصيل للنهاية. صور لفتيات شبه عاريات». هل كانت أم نور سيدة تتاجر بفتيات صغيرات عندما تركت الطاولة ودارت حول الزبائن في الملهى؟. ما كان ينبغي لي أن أندهش هكذا. في كل مرة أسألها عن ابنتها كانت أم نور تجيبني بفخر أن كلا طفليها في المدرسة. كانت تحاول أن تبني لهم مستقبلاً جيداً. كان أطفالها عراقيين وسيعودون لوطنهم في يوم ما.

الفصل السابع

حرب العراق اللبنانية

مَثَّلَ لبنان - الذي يحكمه نظام غير صارم - إحدى الوجهات البديلة بالنسبة للعراقيين الذين لم يستطيعوا أن يتكيفوا مع النظام الحاكم السوري الصارم، حيث تجمع حوالي خمسون ألفاً من اللاجئين العراقيين هناك بحلول عام ٢٠٠٩م. وكان هذا الرقم الرسمي مجرد تخمين. ففي الوقت الذي تمكن فيه بعض العراقيين المنفيين من الدخول بشكل قانوني مختلطين في المطار بالسائحين القادمين من الخليج، كان الكثير منهم قد دخل بشكل غير قانوني، حيث استطاع المهربون أن يأتوا بهم من الغرب، من الحدود السورية فوق المسارات الجبلية في الشمال. وقد قطع الكثيرون منهم الأميال الأخيرة من الرحلة سيراً على الأقدام. وقد قابلت في بيروت أمينة مكتبة من الموصل، وهي سيدة مسيحية متوسطة العمر وهي جدة لحفيدين وقد تلقت تهديدات من الميليشيات الإسلامية، فحملت حفيديها على ظهرها وسارت بعد الظلام في الطرق الوعرة الجبلية حتى وصلت إلى بيروت.

وكانت الرحلة إلى لبنان عادةً أكثر خطراً منها إلى دمشق، إلا أن حظر العمل كان أكثر مرونة، وكان النظام الطائفي اللبناني يمثل ميزة بالنسبة للقادمين الجدد. لقد كان المشهد الطائفي في لبنان يحتل الصورة، إلا أن هذه التعددية الشرق أوسطية قدمت ملجأ أكثر أماناً للاجئين بمجرد وصولهم.

وقد توجه الشباب الشيعة العراقيون إلى المقاطعة الشيعية الكائنة في جنوب العاصمة بيروت. وانضموا - تحت حماية حزب الله - إلى فرق عمل في مشروع إعادة بناء الأحياء اللبنانية التي دمرتها القنابل الإسرائيلية عام ٢٠٠٦م، وهكذا انتهى الأمر بلاجئي إحدى الحروب إلى العمل على إصلاح الدمار الذي خلفته حرب أخرى. واستطاع العراقيون المسيحيون الذين مثلوا

حوالي ٣٠٪ من المنفيين في لبنان الاعتماد على المساعدات من الكنائس الأشورية والكلدانية. وقام الأثرياء العراقيون من السُّنَّة باستئجار شقق في غرب بيروت، بينما توجه الفقراء إلى طرابلس المدينة السُّنِّيَّة اللبنانية في الشمال. وقد تسبب المنفيون في زيادة خطورة الانقسام الطائفي اللبناني. وبحسب المدة التي سيمكثونها ستزداد خطورة الوضع. ويعد لبنان أقل البلاد من حيث عدد اللاجئين المسجلين في مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بافتراض أن الكثير من العراقيين الذين قدموا إلى لبنان لم يسجلوا في مفوضية اللاجئين نظراً لأنهم اعتبروا لبنان ملجأ مؤقتاً.

كانت هناك مجموعة أخرى تمثل طيفاً مختلفاً من المنفيين، وهم اللاجئون من الجماعات الجهادية السلفية التي خسرت الحرب الطائفية في العراق، حيث لم يكونوا مرحباً بهم في أوطانهم الأصلية. كان هذا الخليط من المجاهدين السُّنَّة ومن قدامى المحاربين المناهضين للولايات المتحدة الأمريكية موجوداً في العراق، ولم يستطيعوا أن يعبروا الحدود الدولية بشكل قانوني نظراً لأن أسماءهم مدرجة على قوائم الإنتربول. وكان لبنان يمثل لهم ملاذاً آمناً بسبب ضعف الحكومة المركزية ورخاوة السيطرة على الحدود، كما توقع المحاربون أيضاً ملجأ طائفياً وأماناً في دولة عززت فيها أحداث العراق الحماس الديني والمذهبية المتطرفة.

ومنذ الأيام الأولى للحرب في العراق، كانت الحركة في اتجاهين عبر الحدود اللبنانية القابلة للاختراق تلوذ بالمسارات الجبلية حيث التهريب هو إحدى الصناعات المحلية الرئيسية من قبل توافد اللاجئين العراقيين بأعداد كبيرة متجهين غرباً إلى لبنان. وقد توجه الشباب المقاتل اللبناني وغيرهم من العرب قبالة الشرق، متتبعين مسارات الحركات الجهادية للتطوع ضمن قائمة المتمردين المتزايدة في العراق. وكان المقاتلون اللبنانيون من الأحياء الفقيرة في طرابلس في الشمال، ومن القرى الزراعية السُّنِّيَّة في شرق وادي البقاع والمخيمات التي تمتلئ باللاجئين الفلسطينيين. وقد كانت جميع هذه المناطق أرضاً خصبة لتوليد منفذي «العمليات الاستشهادية» في ساحة القتال في العراق.

قام أبو مصعب الزرقاوي ـ الإسلامي الأردني الذي أسس تنظيم القاعدة

في بلاد الرافدين ـ بتجنيد الناس بشكل علني في المساجد اللبنانية السُّنِّيَّة في عام ٢٠٠٤م. ولم يلحظ التجار اللبنانيون بالعاصمة عودة الناجين من العراق إلى لبنان في صورة متمرسين يتسمون بالصلابة التي ورثوها من التدريب والقتال في المدن المتحاربة. تفاعلت الدولة بمزيج من الدهشة والحذر عندما أطلق هؤلاء العائدون المسلحون حملة عسكرية من داخل مخيم اللاجئين (نهر البارد) هددت أمن دولة لبنان الضعيفة في صيف عام ٢٠٠٧م. وقد تسللت دون أن يلاحظها أحد جماعة فتح الإسلام: وهي إحدى الجماعات المسلحة السُّنِّيَّة التي تزعم ارتباطها بتنظيم القاعدة، وقد شكلت مواجهتها مع الجيش اللبناني أزمة قومية وأنذرت بخطر في نتائجها قد يطال كل لبناني.

وقد دشن اللواء أشرف ريفي مدير عام قوى الأمن الداخلي اللبناني حرباً على جيش فتح الإسلام في ٢٠ مايو عام ٢٠٠٧م. وقد تحولت المعركة إلى حصار امتد لأكثر من مئة يوم وتسبب في إزهاق أكثر من ثلاثمائة نفس من بينها أربعون من المدنيين. وكان لبنان جبهة جديدة للمجموعات المتطرفة التي تبنت نهج تنظيم القاعدة وأيدلوجيته.

لقد كان اللواء ريفي يحتفل بعيد ميلاده الرابع والخمسين في اليوم الذي قابلته فيه في بيروت، كان ضابطاً يلبس زياً مزيناً باللون البيج، مر من أمامي في غرفة الاستقبال وكان يحمل كعكتين إحداهما مزينة بالكرز الأحمر الياقوتي ويلمع بها السكر، والأخرى مغطاة بالشيكولاتة السميكة الداكنة. توجه مسؤولو الأمن اللبناني إلى مكتب اللواء ريفي ليتمنوا له عمراً طويلاً. وكانت أمنية ذات مغزى في مبنى ذي أبواب مصفحة يحمي المناطق المؤمنة وذي جدران تصطف عليها الأعلام اللبنانية وصور الضباط الذين استشهدوا أثناء قيامهم بمهامهم. وقد حضر أحد المطربين اللبنانيين وهو راغب علامة صاحب الشعر المصفف ذو القصة الأنيقة ليغني أغنية عيد الميلاد، لابساً الجينز وفي وجهه ابتسامة مشرقة. لقد كان يظهر بصورة صارخة أن علامة لا ينتمي إلى أجواء حفلة ضابط الشرطة. بعد الاحتفال القصير، خرج اللواء ريفي ومر بغرفة الاستقبال التي كنت أنتظر فيها، ومد يده لمصافحتي مجيباً عن السؤال الذي لم أسأله: «نتمنى أن نحارب الإرهاب معاً!» كان هذا التحالف بين أحد المطربين الشعبيين وأحد المسؤولين أمراً سخيفاً، وكانت

إجابة غير محتملة تعكس حقيقة مفادها أن الحرب في العراق قد ألقت بظلالها على لبنان.

قرر اللواء ريفي الرجل الأصلع الأنيق في زيه المرصع بالميداليات الرياضية اللامعة، ومظهره الذي يليق بأحد مسؤولي البوليس في مدينة كبيرة، ـ ولأنه يتحدث مع صحفي أجنبي ـ قرر أنه يجب عليه أن يدلي بحديث يركز فيه على الإيجابيات التي كان كثير منها غير منطقي. وبدأ بلفت نظري إلى سجل الجرائم في لبنان، فقال لي وهو يقرأ من أحد الرسوم البيانية التي كان قد أعدها: «فقط لأعطيك مثالاً، لدينا سبعة عشر جريمة قتل شهرياً في لبنان كله». وأضاف: «لكن هناك أوقات يكون الموقف السياسي فيها مختلفاً ممايعني إمكانية زيادة ذلك المعدل. إذاً ففي الأوقات العادية يعتبر لبنان مستقر». قالها وهو يقدم الدليل بالأرقام على أن الأربعة ملايين لبناني ليسوا عنيفين بطبيعتهم، إلا أن هذه الإحصائيات المريحة تجاهلت السجل التاريخي للحرب الأهلية التي استمرت خمسة عشر عاماً في لبنان. ففي نسخة اللواء ريفي يعتبر معدل الوفيات المبكرة منخفضاً باعتبار التفاوت الاجتماعي والاقتصادي والتوترات الطائفية في لبنان. ثم مضى مشيراً إلى أن لبنان ليس عليه لوم وأن ـ وفقاً لمنطق الدول في كل مكان ـ كل المشاكل التي ظهرت إنما وفدت من الدول المجاورة.

«إذن فالإرهاب ليس ظاهرة طبيعية في لبنان؛ إنه يأتي من الخارج أو له علاقة بالسياسة الخارجية». قد يكون ريفي رجلاً ذكياً وعقلانياً في الأمور البوليسية إلا أنه لم يكن بالكفاءة ذاتها في السياسة.

ما زالت الجهات الفاعلة في الخارج تمثل جزءاً من المشهد السياسي اللبناني عبر تاريخ الدولة المعاصر، الأمر الذي استمر بعد عام ١٩٤٣م، عندما حصل لبنان على استقلاله من فرنسا؛ واتصلت طوائف لبنان الرئيسية ـ السُّنَّة والشيعة والمسيحيون ـ بأنصار أقوياء في الخارج. فعبر السنوات، لعبت إيران وسوريا وفرنسا والسعودية بالإضافة إلى الولايات المتحدة دوراً بالنيابة في الحروب التي دارت على الأرض اللبنانية. وعادةً ما كان يلقي المسؤولون اللبنانيون باللوم على القوى الخارجية في مشاكل الدولة، إلا أنهم لم يكونوا يعترفون أن السياسيين اللبنانيين قد استعانوا بالخارج لتقوية

الجوانب السياسية الضعيفة. وطالما أن الدستور اللبناني قسم النفوذ من خلال الانقسام الديني، وطالما أن هذه الفصائل قد حصلت على مساعدة خارجية ملحوظة ودعم عسكري وسياسي واقتصادي فلم تكن الإدارة المركزية قادرة على الحفاظ على فكرة الدولة الموحدة، لأن لبنان كان يخضع للسياسات الكبرى في المنطقة والاهتمامات المتغيرة لشركاء لبنان الإقليميين والدوليين.

مع أخذهم بالاعتبار تمكين الشيعة في العراق أكد شيعة لبنان بشدة أنهم كانوا القوة الطائفية الكبرى الوحيدة في لبنان، ومع ذلك لا يتم تمثيلهم التمثيل العادل، فهم يريدون نصيباً عادلاً من الصلاحيات على حساب السُّنَّة والمسيطرون والأقلية القوية المسيحية. من جهة مقابلة تبنت المجموعات التابعة لتنظيم القاعدة في لبنان دور الحامي للمصالح السُّنِّيَّة والهوية السُّنِّيَّة تكراراً للاستراتيجية التي أنزلت كل هذا الدمار بالعراق.

واصطفت القوى الخارجية تجاه القوى السُّنِّيَّة ـ الشيعية. ساندت إيران وسورية الشيعة مقابل تحالف غربي قادته الولايات المتحدة وضم السعودية التي تعتبر القوة السُّنِّيَّة الكبرى في المنطقة.

كان جيش فتح الإسلام ـ وهوغير معروف نسبياً ـ أحد المكونات الجديدة في التركيبة اللبنانية المعقدة، الأمر الذي شكَّل قائمة من «نظريات مؤامرة» متناقضة حول وجود داعمين له في الخارج والداخل. ووفقاً لبعض الملاحظين، قامت سوريا بتوظيف جماعات مسلحة من السوريين في السجون لزعزعة استقرار الحكومة اللبنانية. واعتقد آخرون أن السياسيين اللبنانيين من السُّنَّة مولوا جيشاً من المتمردين السُّنِّيين وقاموا بتعزيزه كوسيلة لمواجهة الجيش الشيعي لحزب الله ـ واعتقد آخرون أن الأمريكان والسعوديين هم من كانوا يمولون جيش فتح الإسلام. وقد دار الجدل بلا نهاية حول كل هذه النظريات المتعارضة ومثل كل نظريات المؤامرة تضمنت هذه الآراء بعضاً من الحقيقة إلا أنها تجاهلت الملابسات الأوسع.

أصر اللواء ريفي على أن الرجال الذين جاءوا لتنظيم جيش فتح الإسلام كانوا «سوريين وفلسطينيين وأعداداً قليلة من السعوديين والجزائريين والشيشان، وفي رأيي كانوا هنا من أجل مهمة في لبنان. لقد خرجوا من

العراق من أجل ذلك». وكان من بين هؤلاء لبنانيون أيضاً، ولكن اللواء ريفي كان متسرعاً بحيث لم يضع هذه الحقيقة في حسابه.

من الصعب على وجه التحديد معرفة متى بدأ العراقيون في التوافد على لبنان، أو بالضبط متى تسلل المجاهدون العرب والعراقيون إلى مخيمات الفلسطينيين في لبنان. لم يكن ثمة شك أن هؤلاء المقاتلين استغلوا الوضع وجعلوا إقامتهم في منطقة مكتظة بمخيمات اللاجئين اللبنانية التي ترجع لعقود مضت. وقد ظلت هذه المخيمات لفترة طويلة ملجأ للمطاردين.

كانت هذه الأحياء المكدسة الضيقة من المناطق التي يحظر على الجيش اللبناني والخدمات الأمنية دخولها وذلك بسبب اتفاقية ١٩٦٩م القاضية بالتنازل عن المسؤولية الأمنية في هذه المناطق لصالح منظمة التحرير الفلسطينية. ومع ذلك ففي السنوات الأخيرة، كانت قواعد السلوك الخاصة بالقومية الفلسطينية تتهاوى أمام حركة جهادية أكثر قوة وعالمية كانت جزءاً من الصحوة الإسلامية السُّنِّيَّة التي اجتاحت لبنان والمنطقة، بالرغم من أن أيديولوجية تنظيم القاعدة هي أكثر الأيديولوجيات تطرفاً على الإطلاق.

من بين لاجئي لبنان الفلسطينين، كان شباب الجيل الثالث قد فقدوا الأمل في تحرير فلسطين وقد استعادوا بعض هذا الأمل ووجدوا بعض الاستبشار في مجاهدي البوسنة والشيشان وأفغانستان والعراق، وقد انتهى الأمر ببعض هؤلاء الجهاديين المتمرسين القادمين من معركة العراق إلى الإقامة في هذه المخيمات.

لقد كان الالتحاق بإحدى الحركات الجهادية العالمية من الطرق الفاعلة في مواجهة حالة الضعف التي سادت مخيمات الفلسطينيين. ووفقاً للعالم الفرنسي برنارد روجيي الخبير في الحركات الجهادية في لبنان: «كرست جيوش الفلسطينيين السلفيين أنفسهم للدفاع عن الحدود الوهمية للهوية». رأى روجيي أن هؤلاء كانوا «يعتبرون أنفسهم حراساً للإسلام السُّنِّي حول العالم». وكان روجيي في لبنان يراقب أحدث التطورات في شمال لبنان، وعندما تحدثنا عن نشأة فتح الإسلام وضح قائلاً: «إن الطريقة التي تحل بها مشكلة تناقض الوجود في لبنان وبدون محاربة إسرائيل أو أي شخص آخر تتمثل في إرسال الجهاديين إلى العراق ودعم مجموعات مثل فتح الإسلام».

وقد عارض روجيي بشكل مباشر اللواء ريفي في تحليله للمشكلة، لذا سألت مسؤول الأمن اللبناني: لماذا اعتقد أن الأمر كان سهلاً لفتح الإسلام في تأسيس قاعدة تدريب في شمال لبنان وعرض اللجوء للمقاتلين الأجانب والعراقيين والعرب الذين تركوا العراق؟

بدأ اللواء ريفي أخيراً في الحديث عن اللبنانيين والشباب المتعصب من السُّنَّة والرجال المتحمسين دينياً في طرابلس. لقد كانوا أول من تم تجنيدهم في فتح الإسلام، قال «جيش فتح الإسلام حركة جهادية وصدقه بعض الشباب وانضموا إليه». لقد كان اعترافاً صريحاً ـ غير معتاد ـ بأن لبنان نصيب من الإسلاميين السُّنِّيين الذين نشأوا فيه والمعروفين لقوات الأمن الداخلي. وكانت طرابلس مكاناً جيداً لتربيتهم.

وتعتبر طرابلس وهي أكبر مدينة في شمال لبنان والمعروفة بعاصمة السُّنَّة مدينة مسلمة محافظة أهمل السياسيون في بيروت تنميتها الاقتصادية. ويقول اللواء ريفي: «من المؤكد وجود الكثير من الغضب في المناطق الأكثر فقراً، وهذه هي الأماكن التي يميل فيها الناس باتجاه الإرهاب». لقد كان يعرف طرابلس جيداً. كانت موطنه الأصلي. عاشت أسرته هناك وكان يذهب يومياً إلى عمله في بيروت. لقد كانت طرابلس مدينة متطرفة ترفع الأعلام السوداء على إشارات المرور وقد كان سجلها حافلاً بصور الجهاد أو الحرب المقدسة. وفي أفقر الأحياء، أعلنت إحدى اللوحات الضخمة التي تحمل صورة صدام أن إعدامه كان طائفياً بدون محاكمة ولم يكن بسبب الإجراءات القانونية التي نفذتها سلطة الحكومة العراقية. أما في الأزقة المظلمة لأحياء طرابلس الفقيرة التي كان يسيطر عليها السُّنَّة سابقاً أشارت الكتابات على الجدران لأسامة بن لادن بـ«قائدنا». أكد اللواء ريفي: «كان الغضب الأكبر يكمن في طرابلس. بالطبع لم يتأثر السُّنَّة فقط بالعراق بل وبفلسطين أيضاً، وقد شحنتهم هذه المواقف. لذا أصبحوا عدوانيين».

أثار الاحتلال الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣م الجذوة المشتعلة في نفوس الشباب الغاضب في طرابلس والذي لم يجد مخرجاً للتنفيس عن غضبه. وعندما عاد المقاتلون اللبنانيون من جهادهم ضد الولايات المتحدة في العراق، جلبوا رفاقهم معهم ووجدوا الملجأ في مخيمات الفلسطينيين

اللبنانية والتي ظل دخولها محظوراً على الشرطة والجيش. وبهذه الطريقة، ساهمت العواقب غير المقصودة لأحد أجيال المنفى الذي بدأ في عام ١٩٤٨م في عدم الاستقرار المستمر في المنطقة. لقد كان نموذجاً مثالياً للثمن الذي يتم تكبده في حالة عدم حل أزمة اللاجئين مبكراً: إن تجاهلها لفترة طويلة سيؤدي إلى تغذية بذور الأزمات المستقبلية.

هاجم الجيش اللبناني جيش فتح الإسلام في ٢٠ مايو عام ٢٠٠٧م، ونجم عن ذلك حصار دمر مباني وثكنات مخيم نهر البارد للاجئين، ودمر حياة المدنيين الفلسطينيين الذين يعيشون فيه. الغريب في الأمر أن المخيم صاحب التاريخ الطويل مع التطرف ـ وأعني هنا مخيم عين الحلوة ـ ظل خارج المعركة. كان مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين يقع بالقرب من مدينة صيدا الساحلية ويبعد حوالي ساعة بالسيارة عن جنوب بيروت، وهو يعتبر ملجأ للجهاديين القادمين من العراق. ارتبط المتطرفون في مخيم عين الحلوة بعلاقات مباشرة مع تنظيم القاعدة. وكان لدى وكالات المخابرات العربية والأوروبية محطات تنصت في مدينة صيدا القريبة لمراقبة وتتبع اتصالات الهواتف النقالة. وكما أشار برنارد روجيي في دراسته لمخيم عين الحلوة: «عرض أحد الفيديوهات التي أذاعها تنظيم القاعدة في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٦م شاباً سعودياً ـ وهو أحد المنفذين التسعة عشر الذين لقوا حتفهم في ١١ سبتمبر ـ وهو يهدي قصيدة إلى أبي محجن الفلسطيني القائد الرئيسي لشبكة عين الحلوة الجهادية».

يعتبر مخيم عين الحلوة أكبر مخيم فلسطيني في لبنان وهو مأوى لقرابة الثمانين ألف شخص في ميل مربع من القاذورات التي ينقصها الماء النظيف منذ ستين عاماً وهو عمر تأسيسه. وعين الحلوة هو المقر الرئيس لأحد أكثر المنظمات الجهادية الراسخة المعروفة بعصبة الأنصار، وهي مجموعة إرهابية سنية أخرى مقربة من تنظيم القاعدة. وقد قام نشطاء من جماعة عصبة الأنصار باغتيال خمسة قضاة لبنانيين قبل عامين. كما ارتبطوا كذلك بتفجيرات إرهابية للسفارة الروسية ومطاعم للوجبات السريعة في بيروت.

يعتبر الدخول إلى مخيم عين الحلوة خطراً، حتى مع الحصول على التصريحات اللازمة من عقيد الجيش اللبناني الذي كان يختم مستنداتي

الرسمية، وهي خطوة للتأكد من أنه يعرف اسمي وجواز سفري في حالة عدم عودتي. تنتهي سلطات الحكومة اللبنانية في آخر نقطة تفتيش قبل مدخل المخيم. ظل مخيم عين الحلوة لزمن طويل ملجئاً آمناً لمتطرفي المنطقة بمن فيهم أحد الهاربين من تفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م في نيويورك. لقد آوى المخيم كل المجموعات العسكرية الفلسطينية ولكنه شهد تضخمَ تأثيرِ المجموعات الإسلامية داخل المخيم بسبب اتحادها مع مقاتلين أجانب من العراق. وتولت فتح وهي الفصيل الفلسطيني القومي بشكل رسمي السلطة في المخيم؛ كما كانت فتح أيضاً مسؤولة عن سلامتي.

اعتصرني رجال فتح المسلحين في المقعد الأوسط في سيارة مرسيدس مغطاة بالغبار وأخذوني في جولة قصيرة إلى المقر الرئيس. وأثناء سيرنا كان عليّ أن أفكر في أنني عهدت بسلامتي إلى خمسة رجال عليهم ملابس وضيعة حيث يلبسون زياً عسكرياً باهتاً وصنادل بلاستيكية. لقد كانوا في خطر، وأنا أيضاً.

خلت شوارع المخيم الضيقة من المارة، وأثار إطلاق النار مع الجيش اللبناني في الليلة السابقة مخاوف من انتشار المواجهات مع جيش فتح الإسلام في الشمال. وهرب الكثير من المقيمين خاصةً النساء والأطفال من المخيم وسمح لهم بالاحتماء بالحدائق العامة في مدينة صيدا، بينما ظل الجهاديون في المدينة، وقد سرنا في الشوارع المهجورة المصطفة بمجموعة الشقق الخرسانية الموصلة بأسلاك كهربائية وهاتفية منخفضة والتي شكلت شبكة من الأسلاك فوق رؤوسنا. ظهر على كل جدار من الجدران ملصقات بالاتجاهات السياسية الممثلة هنا: فتح، وحماس، والجهاد الإسلامي الفلسطيني، وعصبة الأنصار. وما زال صدام حسين المسلم السُنِّي بطلاً بالنسبة للبعض وحظي بنصيب من الملصقات على الجدران الرمادية.

تم إرشادي إلى أحد المكاتب كما تم تقديمي للجنرال محمد علي أبيت والذي قال إنه قائد حركة فتح. كان أمامه اثنين من الهواتف النقالة على مكتبه وكان عادةً ما يتوقف لاستقبال المكالمات الطارئة. بدا الجنرال في الستينيات من العمر؛ وكان زيه نظيفاً ومكوياً وحذاؤه نظيفاً ولامعاً. أظهر الجنرال الاعتزاز والسلطة في مكتبه الصغير. ولكن الشباب الأصغر من حوله

الذين احتشدوا في مكتبه للاستماع لحوارنا كانوا يلبسون زياً غير متجانس وأحذية بلاستيكية. هذه المجموعة من العوام عكست صورة حزينة لحركة في مرحلة تدهورها.

أخبرني محمد علي بين المكالمات الهاتفية أنه كان يتفاوض مع رجال عصبة الأنصار لتهدئة التوتر في المخيم وقال: «تربطنا علاقة جيدة جداً. نحن نعمل معاً لإبقاء الموقف تحت السيطرة». إلا أنه كان واضحاً أن فتح كانت الطرف الأضعف في العلاقة. ومع مرور الوقت من المحتمل أن تفقد هذه الحركة العلمانية قوتها أمام الأيديولوجية الأكثر قوة للجهاد العالمي مثلما فقدت العروبة قوتها في كافة أرجاء المنطقة عقب سقوط العراق. وبالنسبة للشباب الفلسطيني، فإن الجيوش الجهادية الملتزمة من أصحاب اللحى ومن رجال الأفعال المقاتلين المحترفين الذين عادوا من العراق هم من يمكن أن يجذبوهم ويحصلوا على ولائهم ويوفروا ملاذاً من الغضب والإحباط إثر الصراع الطويل والفاشل في سبيل وطن فلسطيني.

شُيّد مخيم عين الحلوة في عام ١٩٤٨م للاجئين العرب من شمال فلسطين الذين كان عليهم أن يفسحوا الطريق للدولة اليهودية الجديدة. ربما يكون محمد علي قائد فتح قد نشأ في المخيم وارتقى في المناصب في فتح وحارب في حملات فتح العسكرية. وكرجل أكبر سناً الآن فهو يعرف أن زمنه وزمن فتح قد قارب على الانتهاء. أرادني أن أفهم أنه ما زال يؤمن بصراعه القومي الطويل ولكنه كان ضد حقيقة الحياة الكئيبة داخل قيود هذا المكان. لقد خسر معركة الأفكار الأيديولوجية القائمة على الغضب والانتقام، بينما كانت حركة الجهاد تعد بالفردوس الأعلى في الحياة الأخرى والتي بدت أنها صفقة أفضل من الوعود الفاشلة التي وعدت فتح بتحقيقها في هذه الحياة. وقال موضحاً كيف حصلت عصبة الأنصار على الأتباع في هذا المخيم: «من أجل وجود هذه المجموعات يجب أن تتواجد ثلاثة أشياء: الفقر والجهل وفقد الأمل وهذه توجد في الكثير من مجتمعاتنا. هؤلاء الشباب ليس لديهم حل آخر. ليس لديهم وظائف، وليس لديهم مستقبل». كان عن عمد يعطيني رسالة لأخرج من المخيم أما محمد علي نفسه لن يغادر أبداً. إنه مثل فلسطينيي جيله ولد وعاش في ملجأ «مؤقت» لشعب حرم من وطنه. لم تغادر حياته المخيم. إنه يعرف أن الشباب الأصغر

منه سناً الذين ينظرون إلى تجربته لن يحتملوها. كان يكفي خمسون عاماً من الأمل المحبط.

حلل برنارد روجيي حركة «فتح الإسلام» في سياق ما عرفه عن المجموعات المحافظة في لبنان. وقد حافظ لمدة تزيد على عقد على اتصالاته مع الفلسطينيين في مخيم عين الحلوة ومع الإسلاميين العسكريين من السُّنَّة اللبنانيين في طرابلس. وقد وثّق برنارد اعتناقهم لمبدأ الجهاد العالمي.

دقت أجراس الصراع الذي كان موجوداً بالفعل في لبنان بين السُّنَّة والشيعة. كان الانقسام موجوداً بالفعل. وفي عام ٢٠٠٦م، ذهب حزب الله الذي أصبح بعد ذلك جزءاً من الحكومة الائتلافية في لبنان للحرب مع إسرائيل. صدر القرار بدون مشورة. وأصبحت القوى الشيعية ظاهرة في لبنان وأكثر قوة. ومثلما كانوا في العراق، كان السُّنَّة في لبنان دفاعيين ومهمشين.

اتهم الكثير من المتطرفين السُّنَّة حزب الله بتحويل الجنوب اللبناني إلى منطقة شيعية حصرية والإبقاء عليهم بعيداً عن الحدود الإسرائيلية. واتهم العديد من الإسلاميين السُّنَّة حزب الله بإخراجهم من المعركة مع إسرائيل ومن ثم أصبح لبنان أرض المعركة بدلاً من ذلك. وقال روجيي: «بالنسبة لهم، لا يهم أن يتم ذلك هنا أو في العراق» كما قال روجيي. «إذن فهذه هي الرياح الإقليمية وهي شديدة القوة. لا أحد يحاول أن يعيق هذه الرياح التي تعصف بهذه الدولة. وهذا هو السبب في كون الموقف خطير في لبنان، كما أن لبنان هو أيضاً مكان آخر لمحاربة الأمريكيين والغرب».

كانت هناك الكثير من الرموز القادمة من الغرب في بيروت وعبر جميع مناطق الدولة. كنا نجلس في مقهى شعبي في بيروت محاطين بالنادلين يحملون صواني القهوة العربية وأطباق من اللوز المملح والزيتون على المائدة. أما مقهى ستارباكس الذي كان يقع على الجانب الآخر من الشارع فقد كان يزدحم باللبنانيين الأنيقين الذين فضلوا الآن النسخة الأمريكية الأبسط من طقوس قهوة المساء. وافتتحت سلسلة مطاعم الهمبرجر ماكدونالدز في كل منطقة من جهات العاصمة، وامتلأ فرع وادي البقاع

بداعمي حزب الله الذين يطلبون وجبات بيغ ماك (Big Mac) والصودا من الحجم الكبير؛ وزحف الأطفال فوق تمثال رونالد ماكدونالدز المزين في حديقة المطعم المزروعة بالحشائش بالخارج. كان من الممكن التوقف عند محلات دانكن دوناتس من بيروت إلى الحدود السورية. ومن الرموز الغربية الأخرى القبعات الزرقاء الخاصة بقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة - المكونة من الجنود الفرنسيين والإسبان والإيطاليين - التي تقوم بحراسة الجنوب اللبناني كجزء من قوة دولية. وفي لبنان كانت هناك الكثير من الأهداف الغربية.

حضر القادمون الجدد في عام ٢٠٠٦م. لاحظ فلسطينيو مخيم نهر البارد هؤلاء اللاجئين الجدد الذين تميزهم اللحى الطويلة والمسدسات. انعزل الرجال الجدد ولم يبتسموا كثيراً إلى النساء أو يتحدثوا معهم، وإذا فعلوا فلتحذير المقيمين في المخيم من عزف الموسيقى أو التدخين أو لصق الصور وغيرها من الخطايا التي تعارض الدين.

من أحد أوجه السياسة اللبنانية المهمة التي تجاوزها اللواء أشرف ريفي في توضيحه للمشاكل الحالية في الدولة هو الوجه الذي يمثله هذا السؤال: كيف استخدمت الفصائل اللبنانية والمجموعات في الخارج عن عمد الفلسطينيين لتحقيق مصالحهم الشخصية الطائفية أو السياسية؟ معظم اللبنانيين غير واعين - أو اختاروا ألا يكونوا واعين - بالظروف المعيشية المدقعة للأربعمائة ألف فلسطيني الذين يعيشون داخل حدود المخيم. حظر على الفلسطينيين تقلد الوظائف أو مزاولة الحياة القومية في لبنان حتى بالرغم من أن الكثيرين منهم لم يعيشوا أبداً في أي مكان آخر. ولخص غسان مخيبر عضو البرلمان اللبناني سياسة الحكومة قائلاً: «تتمثل سياستنا الرسمية في إبقاء الفلسطينيين في أوضاع خطيرة لتقليل احتمالات التجنس أو الاستقرار الدائم». واعتبرت الحكومة اللبنانية مخيمات اللاجئين مشكلة أمنية وليست مشكلة اجتماعية. في الواقع كانت كلاهما معاً، وكانت تزداد سوءاً.

وفي شمال المخيم، اندلعت الحرب على الجماعات المسلحة عندما وظفت فتح الإسلام أحد تقنيات التمويل التي تستخدمها وهي السطو على بنك. سارت الأمور بشكل غير جيد منذ بدايتها. تعقبت قوى الأمن الداخلي

اللبنانية اللصوص إلى أحد المجمعات السكنية في أحد الأحياء الغنية في طرابلس والتي اتضح بعدها أنه ملاذ آمن لأحد المقاتلين. اقتحمت فرق الأمن المبنى عند الفجر. وعندما وصلت الأنباء بالمعركة للمخيم القريب هاجم مقاتلو فتح الإسلام وحدات الجيش اللبناني ليذبحوا أكثر من اثني عشر جندياً. صمد الجيش بقوة واستمرت المعركة أكثر من تسعين يوماً.

كان تشخيص اللواء ريفي كالتالي: «إنها مشكلة دينية وثقافية. مارسنا سياسة ضبط النفس. طلبنا من رجال الدين الحضور». اقترح علي أن أقابل أحد الأئمة الذي كان يعمل مع المقاتلين المسجونين من فتح الإسلام. تبنى لبنان نموذجاً يقوم على مشروع ناجح طورته السعودية واليمن للتعامل مع الجهاديين. كان عليهم إعادة برمجتهم. ولكن لم يبدو اللواء ريفي واثقاً من نجاحه: «لا يمكنك أن تتوقع من محارب أن يعود ليفتح محل بيع خضروات. إنهم بحاجة لإعادة تأهيل. يجب أن تغيرهم من محاربين إلى مدنيين. هؤلاء الرجال رأوا الدماء، ورأوا القوة، ورأوا الموت».

إذاً فهل كان لدى لبنان برنامج مكثف لإعادة تأهيل للتعامل مع الأفراد الذين حولتهم المعارك إلى متطرفين؟ «لسوء الحظ لا، وهذه هي المرة الثانية التي نقترف فيها هذا الخطأ. عندما ذهبوا لأفغانستان وأنهوا مهمتهم هناك لم يهتم أحد بهم. فدفعنا الثمن غالياً. تلك هي المرة الثانية، العراق. لم يبدأ أحد في التجهيز».

أعلنت الحكومة اللبنانية انتصارها على فتح الإسلام في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٧م، وبهذا انتهت هذه الحرب الصغيرة أخيراً، على الرغم من هروب شاكر العبسي قائد فتح الإسلام. وقد أعلنت وفاته أكثر من مرة، وأخيراً عرضت جثة على وسائل الإعلام ولكنها لم تطابق اختبار الحمض النووي لجثته. اختفى العبسي، وظهر مرة أخرى في الشهور التالية منذراً بالانتقام من خلال تسجيلات صوتية غامضة. نفدت القنابل التي ألقيت في الطرقات ضد الجيش اللبناني، ولكن الضحايا الأساسيين لهذا الصراع كانوا الفلسطينيين المقيمين في مخيم نهر البارد خارج حدود مدينة طرابلس. لقد طردوا من منازلهم بسبب المعركة ومرت أشهر قبل أن يتم السماح لهم بالعودة للمخيم. وحتى وقته، سُمح فقط لعدة آلاف بالإقامة في مباني دمرت بشكل جزئي في أحد الأحياء خارج مخيم نهر البارد.

وأخيراً، وصلت للمخيم بعد أسابيع من المفاوضات مع أحد الرفقاء في الجيش اللبناني. مررنا بالعديد من نقاط التفتيش التابعة للجيش في أحد الأيام المشمسة بشدة. كان محمد يوسف، ضابط القوات الخاصة الذي كان يقوم بدور في المعركة، القائد في رحلتنا عبر أرض المعركة. تم تنظيف الطرق القذرة التي كانت تفصل الأحياء، ولكن خلت المباني وامتلأت بأكوام من الخرسانة. بدت الجدران الداخلية سوداء ومحترقة، وخرقت ثقوب الرصاصات كافة الهياكل المشيدة.

قال يوسف وهو جالس في المقعد الأمامي من السيارة موجهاً السائق للمرور من الخرسانة: «لقد بدأ الأمر هنا في شارع الحمرا». لا توجد علامة تشير إلى هذا المكان أو تميز هذا الطريق المليء بالغبار عن غيره في المخيم. ولكن عرف يوسف أنه كان في أحد الأيام طريق رئيس يوصل إلى خارج المخيم حيث محطات الجيش اللبناني. «هنا ضربوا الجنود اللبنانيين لأول مرة، قتلوهم على هذا الطريق، ظلت دائماً نقطة تفتيش عسكرية».

بدأت المعركة عندما فاجأ المقاتلون داخل المخيم الجيش اللبناني والذي كان بعضه نائماً خلال ساعات قبل تغيير الوردية. وفي الهجوم قبيل الفجر، تسللوا فوق الجنود وذبحوا ما يزيد عن اثني عشر جندياً. هذا الفعل الهمجي ضرب الرأي العام اللبناني وفجر الرغبة في الانتقام بين أعضاء الجيش اللبناني الذين حيث معظمهم من شمال المدينة.

ما زال يوسف ـ الذي جاء هو أيضاً من الشمال ـ يستشيط غضباً من هذه الوفيات، ويشعر بالحنق من القواعد التي ترجع لأربعة عقود مضت والتي تمنع الجيش اللبناني من الدخول إلى المخيمات. فرضت هذه القيود عندما كانت المنظمات القومية الفلسطينية من القوة بما يكفي لتطبيق القانون والنظام داخل المخيمات، ولكن الوقت قد تغير وعبر يوسف عن إحساس الضعف الذي يطغى على الجيش اللبناني واشتكى قائلاً: «إذا كنا لم نتمكن من الدخول كان يمكن أن نوقف ذلك».

سألت يوسف ما إذا كانت طرابلس قد تعلمت دروساً مما وقع في المخيم. «تعلم الفلسطينيون الدرس هنا في نهر البارد. ولكن خارج هذا المخيم في المخيمات الفلسطينية الأخرى. . لا. ما زالت لديهم هذه الأفكار

في رؤوسهم. كان مقتنعاً أن ذلك كان مشكلة فلسطينية. لقد ربحوا بالمقاتلين، وكان عليهم أن يسددوا ثمناً باهظاً.

«قبل الحرب، ربحوا مليون دولار يومياً. كان هذا دخلهم في يوم واحد» قالها يوسف بقوة اعترافاً بأن الفلسطينيين قد تم دمجهم في الاقتصاد اللبناني وخاصةً هنا في هذه السوق الفسيحة التي اجتذبت العملاء اللبنانيين من طرابلس بالإضافة إلى العاصمة بيروت. وفي آخر مراحل الخروج من مخيم نهر البارد، مررنا بصف قصير من متاجر الخضروات والفاكهة التي فتحت أبوابها مرة أخرى. وفي وقت من الأوقات كان هناك صف أطول من المتاجر في سوق كبرى للعائلات الفلسطينية واللبنانية، فقد دمرت المعركة مع فتح الإسلام كل شيء تقريباً.

«جاء اللبنانيون من كل مكان لانخفاض الأسعار. جاء الجميع إلى هنا للتسوق. لقد فقدوا كل ذلك» قالها يوسف وهو يعكس رأياً واسع الانتشار بين اللبنانيين خاصةً في الشمال أن الفلسطينيين أصبحوا الآن غير مرغوب بهم ومنبوذين نظراً لأنهم يحملون أفكاراً متطرفة كان يمكن أن تدمر لبنان.

* * *

يقول محمد ـ وهو أحد الفلسطينيين الذي خشي من ذكر اسمه بالكامل لأنه يعمل مع إحدى المنظمات الخيرية الفلسطينية ـ: «لست خائفاً من ذكر الحقيقة». لكن يمكن لهذه الحقيقة أن تتسبب في ضرر أكبر. التقينا في مكتبه خارج المخيم بعد جولتي الرسمية في نهر البارد. كان محمد يمتلك منزلاً في ضواحي المخيم. وبعد تلقيه لتعليمه في السويد جاء إلى الوطن للعمل في معهد تعليمي فلسطيني. عاش في نهر البارد لست سنوات، ثم أجبر على الهجرة في الأيام الأولى للمعركة، ترك كل شيء للهروب من القصف وإطلاق الرصاص. عندما انتهت المعركة كان من المتوقع أن يسمح الجيش اللبناني للمقيمين بالعودة إلا أنه طال انتظار ذلك. أغلق الجيش اللبناني نهر البارد. وكان محمد يعرف أحد الجنود وهو رجل اعتبره صديقه وطلب منه المساعدة.

«وافق على الذهاب والاطمئنان على شقتي. سألني «ما الذي تريده؟» قلت: فقط الصور. هذه فقط. فأي شيء آخر يمكن أن أشتريه بالمال،

ولكني لن أستطيع التقاط هذه الصور مرة أخرى. صور أطفالي. وقد كنت محظوظاً فقد أحضر لي الصور».

وبعد أكثر من ستة أسابيع عندما فتح الجيش اللبناني المخيم للمرة الأولى، اعترض جنود نقاط التفتيش محمد وغيره من العائدين الفلسطينيين، وجاءت مظاهرات لبنانية غاضبة. لقد دمرت جميع المنازل، ومعظم الدمار كان بعد انتهاء المعركة مع فتح الإسلام.

«شاهدت بنفسي الجنود اللبنانيين يحرقون المنازل. لم يبق شيء في منزلي. لا مقعد، ولا ورقة، ولا أي شيء على الإطلاق. قضت النيران على كل الغرف».

«لم يكن حريقاً عادياً. كان بإمكاني رؤية سائل على الجدران. هكذا بدءوا الحريق. من لونه ربما يكون وقود ديزل. لم يكن يوجد شيء في دورة المياه والمطبخ ليحترق. إذن فلماذا هي شديدة السواد؟ يمكنك أن تلاحظ أنه قد سكب شيء ما». لقد قام الجيش اللبناني بشكل منظم بتدمير البنية التحتية للمخيم في محاولة لجعل عودة الفلسطينيين أمراً مستحيلاً. وَثَّقَ محمد هذا الخراب. فتح ملفاً مليئاً بالصور على الكمبيوتر. امتلأ الملف الرقمي بما جمعه وحمله الفلسطينيون الذين تسللوا إلى المخيمات.

استطعت أن أرى صور الجنود اللبنانيين في زيهم الموحد وهم يرزحون تحت ثقل الثلاجة التي حملوها من أحد المنازل الخالية. لقد اختفى كل ما تركه سكان المخيم عندما هربوا من المعركة: الذهب والنقود وألبومات الصور والوثائق. سحقت البلدوزرات السيارات التي كانت تصطف في الشوارع ودمرتها.

أثناء استعراض محمد للصور على الكمبيوتر الخاص به، رأيت صوراً لرجال يضعون أقنعة سوداء - رجال فتح الإسلام - يتدربون تجهيزاً للمعركة فور وصولهم. وثق محمد أيضاً صعود وهبوط القادمين الجدد. «كان معهم الكثير من الأموال. كان يمكنهم شراء أي شيء. كان لديهم أسلحة بمناظير ليلية وهي باهظة الثمن جداً. كيف أمكنهم أن يحصلوا على مثل هذه الأسلحة؟ وفي الوقت المحدد كان هناك مخيم تدريب عسكري وأيضاً استعراض عسكري في الطريق الرئيس للمخيم.

كانوا مؤدبين وطيبين، إلا أن ذلك ليس كافياً. لقد كانوا مجرمين». قالها محمد عن الرجال الذين تسببوا في كل هذا الخراب. «إن ما أغضبني أن معظمهم كانوا من السعودية وسوريا وغيرها من الدول العربية. فقط أربعة أو خمسة منهم كانوا فلسطينيين. كان اللبنانيون ينتقدوننا لأنهم يقولون: إننا ساعدناهم وتعاونا معهم. لماذا لا يوجهون النقد للسعودية لأنها أرسلتهم؟ لم يقولوا أبداً: إن السعوديين سيئون».

تصفح محمد الصور مرة أخرى للتأكد من أني رأيت المعرض كله. كانت مجموعة خاصة، تمثل رصيداً وثائقياً قام به المقيمون في المخيم. لم يكن هناك ثمة سبب لإخبار السلطات اللبنانية بهذه المعلومات كما أخبرني محمد، لأنه اعتقد أنهم لن يفعلوا شيئاً حيال ذلك. وكان محمد ـ بصفته رئيساً لإحدى المنظمات الفلسطينية ـ على وعي بالضرر الذي وقع على مجتمعه الضعيف بالفعل بما في ذلك الزيارات الطبية لمعالجة الأمراض الناشئة عن الاكتئاب واليأس.

وتساءل وهو يبحث عن توضيح لكيفية دخول فتح الإسلام: «كيف يمكن لمائتين من الخارج دخول نهر البارد؟» ثم أضاف: «لقد دخلوا بشكل قانوني عبر المطار. وكان على قوات الأمن اللبناني أن يعرفوا ذلك».

ركز محمد عينيه على صور الرجال الملتحين الذين يحملون المدافع. لم يكن بمنأى عن اليأس الذي اجتاح جيرانه وأصدقاءه. كان لديه من النفوذ ما يتيح له الحفاظ على الصور الشخصية القديمة، ولكن ليس بما يكفي للحفاظ على منزله. كان عليه إعادة بنائه مرة أخرى.

«انظر، ربما كان اللبنانيون يبحثون عن إحراز النصر مثل كل الجيوش العربية، إنهم لم يجربوا النصر من قبل، إنهم يظهرون أقوياء، لكنهم كانوا يحاربون ضد الجدران والأحجار، ضد المنازل الخالية. لا أظنهم احتاجوا لتدمير ستة آلاف منزل ليقتلوا مائتين من الإرهابيين. كانت فتح الإسلام مثل الدب الذي قتل صاحبه. أراد الدب قتل الذبابة التي تقف على رأس صاحبه فضربه بشدة فقتله».

* * *

وبعد عدة أيام في بيروت، ذهبت للقاء في مسجد ذي النورين الذي يشير إلى ثالث الخلفاء الراشدين الذي خلف الرسول (ﷺ). يشير الاسم إلى أنه مسجد سني. ويعتبر مسجد ذي النورين والأئمة هنا جزءاً من المؤسسة السُّنِّيَّة اللبنانية.

في الداخل، كان ينتظرنا الإمام أسامة شهاب الذي يبدو كأنه حكيم جاء من زمن قديم، بلحية بيضاء طويلة وجلباب أبيض ناعم وغطاء للرأس مشغول فوق شعره الخفيف. ابتسم ابتسامة عريضة عندما دخلت ورحب باهتمامي بعمله. كان هناك تلفاز ذو شاشة مسطحة يذيع الأخبار في أحد أركان مكتبه وكان منخفض الصوت. وضح شهاب أنه عرف الكثير عن النفس البشرية من سنوات عمله الطويلة في السجون اللبنانية. وكان هو الإمام الرسمي الذي عمل على الصلاة على الأموات. صلى لمدة خمسة عشر عاماً وبث فيهم الراحة قبل ذهابهم إلى قبورهم.

كانت مهمته الحالية في الجناح الخاص في السجن المركزي اللبناني وهو القسم الخاص بالإرهاب في السجن الرئيس. كان المقبوض عليهم من الناجين في فتح الإسلام أحدث النزلاء. وفهم أن مهمته هي نهج جديد لمحاربة التطرف في الدولة، وكان هو الذي يعيد برمجة هؤلاء الأشخاص. كان يعظ ضد التفسيرات غير الصحيحة للقرآن، وينصح بالتوسط في خطب الجمعة في بيروت. ظل يعظ ضد من يفسرون القرآن كمدافع عن الجهاد العنيف، والآن هو يحاول توصيل رسالته لجمهور من أصحاب الرؤوس الصلبة المحبوسين. كانت وظيفته هي الاستشارة والمناقشة، ومع الوقت يأمل أن يُقْنِعَ المسجونين بخطأ تفسيراتهم. على الرغم من كونه جزءاً من المؤسسة الدينية السُّنِّيَّة التابعة للدولة، إلا أنه اكتسب بعض الثقة، بل وحتى تحول البعض على يديه.

وأخبرني موضحاً عن نزلاء فتح الإسلام: «إن بعضهم لم يكن يعرف أنه قادم إلى لبنان. قالوا إنهم أحضروا من سوريا ولكن ليس عبر الحدود المعتادة بل عبر الجبال. وزعم بعضهم أنهم كانوا يحاربون ضد إسرائيل. لقد جاءوا بغرض محاربة إسرائيل ثم وجدوا أنفسهم يحاربون الجيش اللبناني دون أن يعرفوا».

لماذا جاء هؤلاء الرجال من فتح الإسلام؟

«تشعر أن بعضاً منهم لديه إحساس بالقمع. لقد لاحظوا وجود هجوم عالمي على الإسلام. إذاً فهذا التطرف ضد الإسلام صنع فيهم تطرفاً للدفاع عن الإسلام». المفاجأة أنه قال: إنه يشعر بهذا الأمر أيضاً! وكانت مهمة الإمام المتحمس إعادة برمجة الجهاديين الذين لديهم عاطفة وحافز أدى بالسُّنَّة لتبني العنف المتطرف.

بدأ حديثه قائلاً: «دعنا نتكلم بصراحة، لممارسة الإسلام في لبنان وهي دولة منفتحة وعلمانية، نشعر نحن كمسلمين أن هناك حرباً ضد الإسلام هنا». خاض شهاب وهو رجل متدين بشدة صراعاً مع ثقافته الخاصة وعلمانية بيروت والمجتمع المادي. ربما كان هذا الصراع الداخلي هو السبب في ارتباطه بالمساجين. لقد فهم الأسباب الكامنة وراء غضبهم. «يطلب منا الإسلام وقاية العائلة. لدي فتيات مراهقات، وهم يسيرون في الشوارع ويرون الصور العارية. وأنا أريد أن أحافظ على عائلتي وأخاف على أخلاقيات أطفالي».

كانت ثقافة الإعلانات اللبنانية تعرض على بعد عدة مبانٍ فقط من المسجد. وعلى اللوحات الإعلانية الكبيرة، استخدم الجنس في بيع كل شيء بدءاً من أحدث موضات الجينز إلى المشروبات الخفيفة والأثاثات؛ وتسربت الثقافة الغربية في كل أوجه الحياة تقريباً التي تحيط بالمسجد.

وأضاف الإمام: «في أحد المرات دخل رجل سكران إلى مسجدنا، وفي مرة أخرى كان أحد الرجال السكارى يجري عارياً خارج المسجد. أشعر أن هذه الأشياء موجهة ضدي، ضد ديني، نظراً لأنه لا يوجد احترام لي ولديني». أراد هذا الرجل المتعلم والروحاني أن أفهم محنته وضغط الحياة على الحياة الدينية في ثقافة علمانية. لقد كان في الخامسة والخمسين من عمره وكانت الحياة المعاصرة تمثل ضغطاً عليه.

طأطأت رأسي وقدرت ما قاله. لقد سمعت بهذه الشكوى كثيراً في بلدي. كان شهاب رجلاً لطيفاً وسطياً، قهرته القوى التي لا يستطيع السيطرة عليها أو تغييرها. أراد أن يعيش حياته كمسلم صالح، رجل يحمل إيماناً بسيطاً، وهو هدف لا يمكن الوصول إليه بسهولة في هذا الخليط العلماني

في أحياء بيروت. لقد فهم العواطف التي تدفع بالرجال الآخرين لرفع أسلحتهم مع اختلافه مع طريقتهم. كان تحديه الأكبر هو إقناع الرجال الذين قاتلوا باسم الدين لإلقاء الضوء على معتقداتهم التي أدت إلى العنف، مع الحفاظ على المعتقدات التي توصلهم من وجهة نظره إلى طريق الله. لقد فهم المأزق الذي وقعوا فيه.

ربما يكون الاختبار الأكبر لمعتقدات الإمام وهويته كإمام ديني ومسلم سني في دولة كانت تقتسم القوة فيها الشيعة والمسيحيون. إن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها حول الجناح الإرهابي في السجن هو أن كافة النزلاء من السُّنَّة، والسنة فقط. لم يتم القبض على أي شيعي أو مسيحي بموجب قوانين الإرهاب اللبنانية.

كان سؤال شهاب غاضباً وملحاً: «لماذا السُّنَّة فقط؟ هل يرجع ذلك للضغط الخارجي؟ هل بسبب أن المقاتلين في الشيشان وكشمير والعراق كانوا من حركات سُنِّيَّة؟

لا يوجد شيعة في الجناح الإرهابي؟ سألته مرة أخرى لأتأكد من أني فهمت إجابته، لا يوجد شيعي أو مسيحي واحد مسجون هناك.

ومرة أخرى، بالنسبة لأسامة شهاب، كان السُّنَّة تحت تهديد الهيمنة الشيعية في لبنان، لقد وقعت الأنظمة العربية التي تسيطر عليها السُّنَّة تحت الحصار. حتى بالنسبة لرجل الدين الوسطي، كان هذا دليلاً على تحوّل أوسع في لبنان وفي المنطقة، وهذا التحول أحد مخلفات الحرب في العراق.

الفصل الثامن

«العراقيون ألغام توشك على الانفجار»

تقدمت سيدة عراقية على رأسها خِمار أبيض والدموع في عينيها من الشرطي الأردني لتقديم التماسها وهي ترجوه قائلة: «من فضلك» مقرِّبة جواز سفرها من يده مع وضع يدها الأخرى على كتف ابنتها الصغرى في إشارة منها إلى أن التماسها هذا ليس لها فحسب، بل لعائلتها المعرضة للخطر أيضاً.

ولم تظهر على وجه الضابط الشاب أي تعبيرات. فقد استدعى حارساً آخر، لمجرد تأخير المواجهة النهائية بدلاً من اتخاذ القرار في حينها. بعد ذلك، أعاد للسيدة جواز سفرها بدون ختم الدخول الأرجواني وهو يهز كتفيه معرباً عن أسفه. وما كان على السيدة وابنتها إلا العودة مجدداً إلى العراق.

قام طبيب أسنان عراقي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً بنشر تفاصيل المعاملة القاسية التي لقيها في الأردن في مدونته باسم «آخر العراقيين».

بعد ذلك جاء الضابط إلينا وأخبرنا بأفظع العبارات المهينة بأننا لن ندخل عمَّان، ثم ابتعد عنا. وقد حاولت الحديث معه لكنه أغلق الباب في وجهي. لقد كنت شديد الغضب من الطريقة التي عاملنا بها، فنحن الآن محبوسون في غرفة صغيرة وزوجتي تخاف من الأماكن المغلقة وقد بدأت الصراخ بصورة هستيرية. حينها شعرت بأنها ستموت إذا ظلت على هذه الحالة، ومرةً أخرى لم يكن بيدي حيلة.

بدأت الأردن في إغلاق الحدود في عام ٢٠٠٥م، وذلك بعد أن وقعت ثلاثة انفجارات منظمة في فنادق أدت إلى مقتل تسعة وخمسين شخصاً ووصلت بالحرب العراقية إلى أعتاب العاصمة الأردنية. وقد تم الربط بين

الفرق الانتحارية التي نفذت الانفجارات والمجاهد المسلم السُّنِّي أبو مصعب الزرقاوي. وفي حين أن المتظاهرين في عمَّان كانوا يرددون «ليذهب أبو مصعب الزرقاوي إلى الجحيم»، إلا أنهم كانوا أيضاً على قناعة بأن الأردن، باعتبارها البوابة التي يعبر منها الغربيون إلى بغداد، قد تم استهدافها بسبب الروابط الوثيقة بينها وبين الولايات المتحدة. وكان منفذو التفجيرات الانتحارية قد وصلوا إلى الأردن مع اللاجئين العراقيين الذين يعبرون الحدود.

بعد ذلك بقليل، مُنع الرجال العراقيون ما بين سن السابعة عشر والأربعين من الدخول إلى الأردن. وكانت البلاد بالفعل ـ بشكل غير رسمي ـ على علاقة وثيقة بالشيعة العراقيين حتى قبل وقوع التفجيرات. هذا مع العلم بأن الأردن لم تخفِ خوفها من حكم الشيعة في بغداد، بل كان الملك عبد الله ملك الأردن هو أول حاكم عربي سني يحذر من خطر انتشار «المد الشيعي» من طهران إلى الأراضي العربية. وقد رأت الأردن أن في نهاية حكم صدام حسين الطويل نهاية لنظام الحكم السُّنِّي في العراق. وترتبط الأردن بعلاقات تجارية مع العراق كما تربطها روابط دم بالقبائل العربية السُّنِّيَّة في العراق التي لها فروعٌ تتخطى الحدود الوطنية. وقبل الغزو الأمريكي، كان من المعروف في واشنطن أن المملكة الهاشمية هي مفتاح الدعم المالي لصدام حسين، فقد قام الأردن بتسهيل بيع النفط بصورة غير شرعية مما عاد عليه بمليارات الدولارات كإيرادات لا تخضع للمراقبة، مما قوض من عقوبات الأمم المتحدة المفروضة منذ عام ١٩٩١م. وبعد الغزو، سُمح لبنات صدام بالاستقرار في العاصمة الأردنية. كما قام كبار القادة العسكريين العراقيين بشراء فيلات غالية الثمن والإقامة فيها بعيداً عن الأنظار. ويجعلنا هذا نقول: إن الأردن كان ولمدة طويلة بمثابة الملاذ الآمن للعراقيين، ومن ثمَّ فإن إغلاق الحدود يمثل خطوة غير عادية.

لقد ظل الأردن مفتوحاً على مصراعيه في الفترة من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٣م، كما كان الملجأ الوحيد المتاح أمام العراقيين بعد حرب الخليج الأولى في عام ١٩٩١م. وبمرور الوقت، عاد اللاجئون الذين يزيدون على المليون لاجئ، بما فيهم العمال المصريون والفلسطينيون إلى بلادهم أو انتقلوا إلى أوروبا والولايات المتحدة. وقد مُنح ما يزيد على مائتي ألف

شخص حق اللجوء السياسي واستقروا في أماكن أخرى. وبحلول عام ٢٠٠٢م، كان العراقيون الباقون قد استقروا بشكل نهائي في الأردن، وأقام معظمهم في العاصمة عمَّان.

كان العراقيون المنفيون الذين بدؤوا في الوصول في ربيع عام ٢٠٠٣م، بأعداد قليلة في البداية، من صفوة المسلمين السُّنِّيين، ومن أعضاء حزب البعث، الذين كونوا ثروات كبيرة في ظل حكم صدام حسين. وقد جاء هؤلاء الرجال الأغنياء لشراء الشقق والاستقرار بعائلاتهم في العاصمة الأردنية الهادئة حتى تتضح نوايا الأمريكيين. وقد كان بإمكانهم وبسهولة تحمل المتطلبات الأردنية الصارمة الخاصة بالإقامة القانونية في المملكة الهاشمية. فقد كان إيداع خمسة وسبعين ألف دولار في أي بنك أردني يجعل المرء يشتري الإقامة القانونية مع ما يصحبها من الراحة والأمان.

ومع ازدياد أعداد الأثرياء العراقيين الوافدين إلى الأردن بأموالهم، ازدهرت أجزاء من الأردن، فشهد مجال العقارات طفرة كبيرة وتضاعفت أسعار العقارات بين عشية وضحاها. أما سائقو سيارات الأجرة فقد وجدوا عدداً كبيراً من الزبائن الجدد غير المعتادين على نظام الطرق الأردنية المربكة. لكن في الوقت نفسه استمرت الهجرة حيث وصل آلاف العراقيين الفقراء إلى الحدود دون أن يكون لديهم أي سبيل لشراء إقامة قانونية طويلة الأمد.

إن السياسة الأردنية للحصول على الإقامة القانونية في المملكة خلقت نظاماً ذا طبقتين. فبالنسبة للوافدين الفقراء، الممنوعين من العمل والمقيمين بتأشيرات تم تمديدها زيادةً عن الحد، يمكنهم بالكاد البقاء والعيش مع الخوف من الترحيل على يد الشرطة الأردنية التي تقوم بفحص جوازات سفر العراقيين بصورة صارمة للكشف عن التأشيرات غير الصالحة التي تستلزم دفع غرامة يومية لكل شخص مقدارها نحو ٣ دولارات للإقامة بعد التاريخ القانوني. وقد أعلنت المنظمات الإنسانية الدولية التي أقامت مقاراً لها في العاصمة الأردنية عن أزمة اللاجئين ومارست ضغوطاً للحصول على مساعدات بالملايين، خاصةً من أجل نظام التعليم الأردني. لكن العديد من العراقيين لم يُدخلوا أولادهم إلى التعليم، اعتقاداً منهم بأن السلطات

الأردنية قد تتعقبهم من خلال السجلات. بل وصل الأمر أن أصبح التسجيل في مكتب المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أمراً خطيراً، فقد يتعرض العراقيون الذين يتقدمون بطلبات للحصول على حق اللجوء إلى السحب من الصف في عمليات الفحص الأمني والزج بهم في السجون، أو ما هو أسوأ، ترحيلهم إلى المطار، حيث يتم إعطاؤهم تذكرة ذهاب بلا عودة إلى بغداد.

على الرغم من ذلك، فقد كان هناك جيل من المنفيين العراقيين القدامى الذين كونوا مجتمعاً في عمَّان. ويعيش هؤلاء العراقيون في هدوء وأمان، وبعضهم لديه وظيفة في الجامعات أو المستشفيات الخاصة في العاصمة. وقد كان هؤلاء الأشخاص رجال أعمال وصحفيين وفنانين وشعراء ومتخصصين التقوا على مأدبات الكباب العراقي في المطاعم الجديدة التي تُفتح في جميع أنحاء المدينة وتقدم الأطعمة العراقية. وقد احتفلوا في هدوء بسقوط نظام صدام حسين، وقد عاد بعضهم لزيارة موطنه، لكن أحلامهم بالعودة إلى العراق بشكل دائم لا زالت معلقة لم تتحقق.

«الجميع يحلمون بالعودة، لكنه حلم بعيد المنال تماماً»، قال ذلك جواد الأسدي، وهو مؤلف وكاتب مسرحي عراقي. وقد كانت إحدى مسرحياته تُقدم في البرنامج في إحدى الاحتفالات المسرحية العربية المشهورة في مركز الملك حسين الثقافي. ويقيم جواد الأسدي ـ المتأنق في حلة بلون الزبد بشعره الأبيض الطويل وبشرته السمراء ـ خارج العراق منذ ما يزيد على عشرين عاماً. وقد قام المؤلف الشهير، الذي ينتقل بين باريس وروما، بتقديم دورات مسرحية في دمشق وافتتح مسرحه الخاص في بيروت وعمل مستشاراً لوزارات الثقافة في الخليج العربي. وهو بمثابة مثال يحتذى للمهاجر العراقي صاحب الإنجازات. وفي عمَّان، كان بإمكانه الاعتماد على وجود جمهور عراقي كبير له ولأعماله. وكانت مسرحياته تتناول تجربته العراقية وحنين جيل إلى وطنه المفقود والتجربة الأليمة في المنفى. وقد قرأت الجماهير الأوروبية أعماله وأشادت بها، لكنه كان مقتنعاً بأن الجمهور العراقي وحده هو من يستطيع فهمه حقيقةً.

في حسرة، قال جواد الأسدي: «بالنسبة لأولئك الذين يحلمون

بالعودة، أقول لهم: إن هذا الحلم قد مات في نفوس الجيل الذي بلغ من العمر خمسين وستين عاماً. هذا هو ما يصيبني بألم شديد. فأنا لا أستطيع العودة». قلت له: إن الظروف قد تتغير، ومن المؤكد أنه يمكنه العودة إلى دولة العراق الجديدة؟ ربما يعيد التفكير في الأمر في غضون سنوات قليلة؟

أجاب: «بالنسبة لي، يستحيل أن أعيش في العراق، فأنا أريد أن أرى أهلي وأصدقائي. كما أن لدي أحلاماً كبيرة بأن آخذ مسرحي معي إلى هناك. ولقد اختبرت الموقف وبعد ذلك اتخذت قراري باستحالة العودة لأنهم سيقتلونني. يستحيل أن أعيش هناك بعقليتي هذه وطبيعة حياتي هذه».

وفي أبريل/نيسان من عام ٢٠٠٣م، في اليوم الذي قام فيه الجنود الأمريكيون بسحب تمثال صدام حسين في ميدان الفردوس في بغداد، كان الأسدي يشاهد الموقف على التلفاز في غرفة أحد الفنادق في أبو ظبي. وقد أخبرني بما حدث وهو يتمايل ببطء مغلقاً عينيه قائلاً: «لقد صرخت: لا يمكنني أن أصدق أنكم قد تخلصتم منه. لقد كان حملاً ثقيلاً رفعتموه من على صدري». ولا تزال ذكرى هذا اليوم باقية بوصفها جزءاً من حكايتي.

وقد وضع الأسدي خططاً للعودة إلى العراق ثم أجل المغادرة. وقد أخبرني قائلاً: «كان الأفضل لي أن أعود في الحال، لكن بعد ذلك، عندما رأيت عمليات النهب والطريقة التي تسير بها الأمور، جعلني هذا أفكر مجدداً. وكنت دائماً ما أؤجل العودة. بعد ذلك، قررت العودة لأنني أردت رؤية منزلي وأقاربي ومدينتي». وقد وصل الأسدي إلى بغداد في نهاية عام ٢٠٠٤م، عندما كانت إشارات الحرب الأهلية باديةً بالفعل. وقد التقى بالفنانين المسرحيين وأخرج عملاً مسرحياً وتفقد المدينة في وقت خطر. كان الأسدي على اتصال بأقاربه على مدار سنوات وجوده في الخارج، وكان يعلم بأن الوضع قد يكون سيئاً، فقد سمعهم يصفون عمليات النهب التي قام بها النظام. لكن الآن، وبعد أن رأى بغداد بنفسه ورأى الظروف السيئة وآيات السخط البادية، لم يستطع التوفيق بين ذكرياته والحقائق على أرض الواقع.

«لم أصدق ما أصبحت عليه بغداد! لقد كان الأمر كما لو كان صدام قد أخذ تلك المدينة الجميلة، مدينة النور، وأحرقها ووضع في مكانها مبانٍ

ومنازل مختلفة. لقد ترك في بغداد آثاراً سيئة وشوه معالمها». لقد أصبح العراق الآن ـ تلك الدولة الغنية الجميلة التي تسلمها في شبابه ـ دولة من دول العالم الثالث. وواصل حديثه قائلاً: والشعب، شعب العراق: «العلك لاحظت كيف يتحول الإنسان إلى وحش من الداخل ويصبح شكله مرعباً من الخارج. لقد أصبحت المدينة غريبة وشعبها مختلف. لم يعد هؤلاء الناس هم من عرفتهم من قبل. هذه ليست ذكرياتي».

لقد كانت هناك فكرة سائدة في دولة صدام حسين الدكتاتورية هي أن المنفيين، حتى أولئك الذين ظلت لهم علاقات وثيقة بالدولة، لم يفهموا تماماً التغييرات الكبيرة التي قام بها نظامه الاستبدادي. إنهم يتذكرون الدولة المدنية المتحضرة والليالي التي كانوا يقضونها على نهر الفرات والأيام الغنية بالنفط قبل سنوات حروب صدام والعقوبات الطويلة القاسية للأمم المتحدة التي أفقرت الشعب من الناحية النفسية كما أفقرته من الناحية المادية. لكن هذه الذكريات لا تزال مجرد ذكريات.

وبعد أن غادر جواد الأسدي بغداد، أخذ التجربة وصاغها في عمل مسرحي. وقد اختار عنوان عمله **سنوات مرت بدونك**، وصور فيها الشخصية العراقية وقدم تصويراً درامياً للتدهور الأخلاقي والهمجية التي أصبح عليها العراق. يقول: «في هذه المسرحية عبرت عن أملي الضائع، ليس فقط في الشخصية العراقية، بل في المجتمع العراقي أيضاً. وأنا أعتقد أنه يصعب التفكير في أن العراقيين سيعودون كما كانوا مرة أخرى».

بدأت المسرحية في عام ٢٠٠٤م، في زمن الحرب في بغداد. وقد تطلبت الأجواء المسرحية وجود صخب مستمر تختلط فيه أصوات النيران والطائرات الهليكوبتر والانفجارات. وكانت الشخصيات تقيم في منزل قديم، به ثريات معلقة في المدخل وكومة من الكتب وتلفاز وأريكة في وسط المسرح. وكانت القصة تدور عن لمّ الشمل، وعن مكيدة تسببت في حدوث التوتر بين أفراد العائلة، وتصور الفجوة بين أولئك الذين غادروا وأولئك الذين بقوا. عاد الابن وزوجته الجديدة من لندن بعد قضاء ثلاثة وعشرين عاماً في الخارج، وقد لاحظا التغير في طبيعة الناس، كما لاحظا أنه «بداخل كل مواطن عراقي لغم على وشك الانفجار في أي لحظة».

ومع تطور الأحداث تكتشف العائلة أن الأب الذي كان في السابق مدرساً للفلسفة الماركسية وتحول إلى سارق، قد تمكن من امتلاك العديد من العقارات بالمال المسروق من البنوك العراقية، وأنه يجب على شريكه في الجريمة، وهو أخوه الذي عمل كجلّاد خلال حكم صدام حسين، الاختفاء في المنزل وإلا سيلقى العقاب على يد الجيران المطالبين بالثأر. أما الابنة، التي انسحبت إلى غرفتها وإلى العبادة، فقد تعرضت للاختطاف والاغتصاب. وتعد مسرحية الأسدي من الأعمال الكوميدية السوداء، وهي تمثل رؤية تراجيدية للمجتمع المتضرر الذي لم يعد ينفعه الإصلاح أو التعافي. وفي مسرحيته عرض الأسدي أرضاً خاوية تحطمت فيها أحلامه بالعودة إلى صخور الواقع.

* * *

لقد عاشت صبا الكابوس العراقي الذي صوره الأسدي في مسرحيته، فقد كانت هي وعائلتها تعيش في شارع جانبي هادئ في ضواحي عمَّان. وكان على سائق سيارة الأجرة الأردني الذي أركب معه أن يبحث عن المكان بالضبط، وقد طاف ببطء في الشوارع التي بدت متشابهة حتى قاده والد صبا في النهاية عن طريق الهاتف الخلوي إلى مجمع الشقق المحدد. وقد ظهرت الشقق المجاورة المبنية بالأحجار البيضاء والزجاج الملون سريعاً خلال فترة الازدهار النقدي التي شهدتها البلاد مع وصول أول موجة من المنفيين العراقيين. وكانت صبا وعائلتها يقيمون بصورة قانونية، لكن ليس بشكل دائم.

كان والد صبا ينتظرني على الرصيف الجانبي عندما وصلت، ورحب بي ترحيباً حاراً. لقد كان يبدو مثل الضابط العراقي العسكري السابق، فقد كان متأنقاً منتصب القامة ويخط وجهه شارب عريض. وكان هذا هو أول لقاء مباشر بيننا، لكن كانت بيننا معرفة سابقة قامت على أساس مأساة عائلته، فقد التقينا على الإنترنت، بطريق المصادفة، كنا غريبين: أحدهما في بغداد والآخر في دمشق، وكلاهما له نفس الهدف: مساعدة صبا البالغة من العمر تسعة عشر عاماً بعد أن أُطلق عليها الرصاص من الخلف.

وأنا لم أقم بأي شيء غير أني أرسلت التماسه للحصول على المساعدة

إلى إحدى الصديقات، وهي جيمي طرابي، التي كانت تعمل في مكتب بغداد للإذاعة الوطنية العامة. ولقد حققت جيمي المستحيل وتمكنت من الاتصال بأشخاص في المستشفى الأمريكي للدعم العسكري المعروفة باسم «CSH» (وتُنطق «كاش») داعيةً بأقصى ما لديها من عزيمة في مدينة بها عدد كبير للغاية من الناس يحتاجون إلى معجزة للبقاء. وقد أجرت جيمي اتصالاتها وتمكنت من إقناع الأشخاص وعملت طوال الليل لمساعدة فتاة لا تعرفها، فتاة غريبة كانت تحتضر في مستشفى بغداد. وقام آخرون بإرسال نفس رسائل التوسل، من واشنطن وعمَّان، يطلبون تقديم خدمات لهم. وقد كان بقاء صبا على قيد الحياة راجعاً في جزء منه إلى رسالة إلكترونية جابت أنحاء العالم. لكن هذه الرسالة كان مبدؤها بغداد. كانت رسالة والد صبا مختصرة ومباشرة وحزينة: «لقد نفذت الرصاصة من صدر صبا واستقرت في عمودها الفقري. إنها تعاني من نزيف داخلي ولا يمكنها الشعور بيديها أو قدميها. وهي في حاجة ماسة إلى العناية الطبية».

وقد استعان والد صبا بتدريبه العسكري وذكر التفاصيل الضرورية حول ابنته، بداية من فصيلة دمها وحتى حالة إصابتها. وكانت بغداد مليئة بحالات مجهولة تعاني هي الأخرى. لكن هذه الضحية كانت معروفة الاسم ولها والد سعى في سبيل إنقاذ حياتها، ولذلك فقد نالت فرصتها. ويمكننا القول بأن الأمل هو آخر ما يبقى كما قال ذلك ستدز تيركيل.

وفي فجر اليوم التالي جاءتني رسالة إلكترونية جديدة من المقدم جانثر هسو، وهو طبيب يعمل في المستشفى العسكري في بغداد. وكان قد عين من نفسه جهة اتصال لأي شخص في سلسلة الرسائل الإلكترونية للمنقذين، وقال: «سنفعل كل ما في وسعنا لنرى إذا ما كنا نستطيع علاج صبا في مستشفى الدعم العسكري. وهذا يتوقف على عدة درجات من الفحص بسبب تغير الورديات السياسية والإدارية للموظفين في مستشفى الدعم العسكري (فقد تم تغيير طاقم العمل منذ أسابيع مضت)، ولذلك فأنا لا أعلم تماماً سياستهم أو قواعدهم الخاصة بالتدخل في مثل هذه الحالات. ومع ذلك، فقد اتصلت بأحد أفراد الطاقم الطبي البارزين الذي سيباشر حالة صبا وسيقوم على الأقل بالتشاور مع جراح العمود الفقري».

وبعد بضعة دقائق من قراءة الرسالة الإلكترونية رنَّ هاتفي في دمشق، وكان المتحدث على الجانب الآخر من بغداد هو المقدم هسو الذي أكد لي أن صبا قد تم نقلها إلى مستشفى ابن سينا رقم ٨٦ التابعة لمستشفى الدعم العسكري داخل المنطقة الخضراء، وأنها في غرفة العمليات. وقد أرادني أن أعلم أن جميع الجراحين العسكريين العاملين في تلك الليلة من النساء وأنهم قد اهتموا بشكل خاص بحالة الفتاة العراقية البالغة من العمر تسعة عشر عاماً مصابة بطلق ناري في عمودها الفقري. وقد قال لي مسروراً: إن صبا بخير وأنه سيطلعني على المستجدات بخصوص حالتها.

وبنهاية اليوم، أرسل لي جانثر هسو المزيد من التفاصيل الطبية الشاملة: «لقد بدأت صبا تستعيد وعيها بعد الجراحة. وبناءً على كلام طاقم وحدة العناية المركزة، فهي تعاني الآن على الأقل من شلل من منتصف الظهر. وهم يبحثون خيارات إرسالها إلى الخارج (إلى مكان آخر في الشرق الأوسط) لتتلقى العلاج الطبيعي - ويفضل أن تُرسل إلى مركز متخصص في إصابات العمود الفقري».

وفي هذه المرة أرسل لي صورة حديثة لها. كانت صبا ذات الشعر الأسود تنظر مباشرةً إلى الكاميرا، وكان وجهها يعبر عن مزيج من الغضب والأسى والعدوان والألم. ولم يكن للفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً الجالسة على كرسي متحرك خيارات عديدة في العراق. كل ذلك كان بادياً من وجهها العبوس الواضح في الصورة. وقد استعادت صبا عافيتها من الجراحة الطويلة وكانت تلقى أفضل عناية ممكنة في المستشفى العسكري الأمريكي في بغداد. وقد يُكتب لها الحياة، لكنها قد لا تتمكن من السير مجدداً. ولم يكن هناك ما يمكن القيام به غير ذلك في بغداد، فقد انهار نظام الرعاية الصحية العراقي بعد أن كان أفضل الأنظمة الصحية في الشرق الأوسط. ولم يكن في الاستطاعة تقديم أي شيء بخلاف الرعاية الطارئة. وكان على صبا ووالدها الذهاب إلى عمَّان لتلقي مزيد من الرعاية.

وقد بدت صبا، وهي ترقد على سرير من الوسائد في عمَّان، أصغر بكثير من سنوات عمرها التسعة عشر. كانت تلبس بيجامة ناعمة ذات لون وردي، وقدماها النحيفتان بالكاد تملأ القماش. وكانت الغرفة التي قضت فيها صبا معظم أيامها ولياليها ذات طراز ساحر خلاب.

ثمة صور على الحائط لأميرة من أفلام ديزني وهي تبتسم، كما كانت هناك ساعة على شكل الشخصية الكرتونية «ميني ماوس» تدق إلى جوارها. وكان الحائط المجاور لها عبارة عن مجموعة من الصور التي التقطت لصبا أثناء إقامتها في المستشفى العسكري الأمريكي. وكان معها على السرير أكثر من دستة من اللعب والهدايا من الجراحين في الجيش الأمريكي الذين أنقذوا حياتها.

قامت والدة صبا بتقديم القهوة بالحليب مع الكعك المحلى، بينما كانت العائلة مجتمعة حول سرير صبا، فقد أصبح تركيز العائلة كله منصب على رعايتها. وكانت سارة، البالغة من العمر اثني عشر عاماً، ومصطفى، البالغ من العمر واحد وعشرين عاماً، هما أفضل من يتحدث بالإنجليزية في العائلة، لكن والد صبا كان يكافح لصياغة الفكرة الواحدة التي يقولها دائماً، وهي الشعور الكبير بالذنب، وهي فكرة تدور في عقله كلما تذكر اليوم الذي أصيبت فيه صبا بشكل إجرامي. فقد كان شعوره أنه أخطأ في حق ابنته وفشل في حمايتها. وقد عبر عن ذلك بطريقة بائسة وهو يهز رأسه متذكراً ذلك اليوم في بغداد قائلاً: «أنا ضابط أمن، وقد تأكدت من أن السائق لديه خطة أمنية لتوصيل صبا إلى الجامعة، وأرسلت ولدي إلى خارج البلاد للحفاظ على سلامته. إنها طفلة صغيرة، مجرد طفلة صغيرة! أنا لا أستطيع أن أتخيل أن أي شخص قد يريد إطلاق الرصاص على طفلة صغيرة».

تمكن والد صبا من العيش لأربع سنوات بعد الثورة في بغداد، فقد كان حذراً وتعلم التأقلم مع الواقع. في البداية قام الأمريكيون بفصله من العمل بالجيش مع جميع الضباط العراقيين الذين يعرفهم، وقد عانى كثيراً في هذه الشهور الأولى حيث لم يكن له أي دخل فيها. لكن بعد ذلك بقليل حصل على وظيفة رئيس أمن في وكالة مساعدات أمريكية وهي وكالة تضم نساءً غربيات جئن إلى بغداد لمساعدة النساء العراقيات. وقد أبقى وظيفته سراً عن جيرانه وعن أغلب عائلته وأبقى لنفسه على كبريائه حيث لم يحدث أن أصيب أحد أو قتل أثناء تأديته لعمله.

لقد تلقى تدريبه كضابط أمن في الجيش وأدرك أن النساء الأمريكيات

اللائي جئن إلى بغداد لتعليم النساء العراقيات قيم المساواة والحرية في المجتمع العراقي المحافظ ذي النزعة الدينية سيحتجن لخدماته ومهاراته. وقد بدأ يؤمن برسالتهن. وعلى كلٍّ، فإن لديه ابنتين: صبا وسارة. وكانت صبا هي الأقوى بين أولاده، وقد دعمها عندما التحقت بجامعة بغداد لدراسة علوم الكمبيوتر.

وفي الوقت الذي أصبحت فيه بغداد أكثر خطورة، قام بتقييم التهديدات وقرر إرسال ولده مصطفى إلى سوريا مع ما يكفيه من المال ليعيش حياته المستقلة لفترة، وذلك في ربيع عام ٢٠٠٧م، ظناً منه أنه سيكون بإمكانه العودة قريباً إلى وطنه. وكان للجيش الأمريكي استراتيجية جديدة من أجل بغداد وخطة أمنية جديدة لحماية المواطنين. وكانت العائلة تعيش في اليرموك، وهي منطقة يغلب عليها السُّنَّة، وكان العديد من جيرانهم من رجال الجيش السابقين. وفي صيف عام ٢٠٠٧م، تم فتح نقاط أمن في اليرموك عُرفت بأنها مراكز أمن مشتركة، وأصبح ضباط الجيش العراقي السابقين من السُّنَّة يسيرون في الشوارع مع الأمريكيين.

وكان والد صبا يرى في هذا اتجاهاً جديداً ومؤمِّلاً، تماماً مثل ظهور النزعات المؤيدة للأمريكيين بين السُّنَّة في منطقة الأنبار، وهي المنطقة المليئة بالعنف غربي بغداد. وكانت خطورة حدوث هجمات طائفية في بغداد لا تزال قائمة؛ فقد تم تهديد ولده، لكن اليرموك كانت منطقة أكثر استقراراً عن المناطق المجاورة لها، وبقيت العائلة في بيتها.

علق مصطفى على ذلك قائلاً: «لقد تم تهديدي أنا شخصياً». ففي جامعة بغداد في مارس/آذار ٢٠٠٧م، وهي المكان الوحيد الذي ذهب إليه مصطفى خارج منطقته: «رآني رئيس الأمن في الحرم الجامعي وأشار بيده على رقبته وهمس قائلاً: «سأقتلك».

وقد أخبر مصطفى والده أن رئيس الأمن كان عضواً في جيش المهدي (الميليشيا الشيعية المعروفة باسم «جيش المهدي») واتفق مصطفى ووالده على أخذ هذا التهديد على محمل الجد. لكن حيث إن مصطفى قد أصبح بمأمن في سوريا، ظلت باقي العائلة ـ بما فيهم الأختان ـ في بغداد حتى نهاية العام الدراسي في شهر يونيو/حزيران. وكانت العائلة تخطط للحاق

بمصطفى في سوريا في فصل الصيف والعودة إلى الديار مجدداً بمجرد أن تتحسن الحالة الأمنية. ولكن صبا لم تشعر بالراحة بمجرد وصولهم إليها، فقد أحبت الجامعة وقضاء وقتها فيها. وإذا كانت العائلة ستظل خارج العراق لمدة طويلة والانضمام إلى المنفيين العراقيين، فمن المؤكد أنها ستفقد فرصة الحصول على شهادة جامعية.

وظلت صبا طوال صيف عام ٢٠٠٧م تتابع الأخبار التي يبثها التلفزيون العراقي والمواقع الإخبارية على الإنترنت في كافيهات الإنترنت في دمشق. وكانت دائماً ما تخبر والدها بأكثر الأخبار الإيجابية حول العراق. وبالنسبة لصبا، كانت سوريا، المليئة بالعراقيين المنفيين فاقدي الأمل الذين ليس لديهم ما يفعلونه وهم على وشك نفاد أموالهم، بمثابة طريق مسدود أمامها. وقد توسلت لوالدها للسماح لها بالعودة إلى بغداد عندما بدأت الدراسة مرة أخرى في الخريف.

وقد جاءت المناقشة مقنعة بشكل غير متوقع في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ٢٠٠٧م عندما أعلن رئيس الوزراء نوري المالكي عن تقديم مبلغ ٨٠٠ دولار لكل عائلة عراقية تعود إلى أرض الوطن. وقد شاهدت صبا الإعلان على التلفزيون العراقي وتأثرت بالإعلانات العاطفية للخدمات العامة التي ظلت تُذاع بلا توقف لتعرض سعادة العائدين إلى وطنهم.

ودافعت صبا عن أسبابها للضغط على عائلتها للعودة قائلةً: «كانت هناك دائماً رغبة بين العائلات العراقية في العودة إلى أرض الوطن. لقد أخبرنا الناس أن الوضع أصبح آمناً وكنا نعرف كثيراً من الأشخاص الذين يفكرون في العودة».

وقد سألتهم عما إذا كانوا قد فكروا في التسجيل في الحافلة التي تدعمها الحكومة فأجابتني صبا: «لقد ركبنا في إحدى الحافلات، لكنها ليست حافلة الحكومة». فحتى تتمكن العائلة من العودة إلى بغداد في الوقت المناسب لحضور الأسبوع الأول من التسجيل في الجامعة، اتفقوا جميعاً على العودة قبل أسبوع من الرحلة التي ترعاها الحكومة. وعلى الرغم من ذلك، فقد فشلت صبا في إقناع مصطفى في العودة معهم إلى بغداد. فقد قرر هو أن يظل في سوريا لمدة أطول. ووصلت العائلة إلى منزلهم في ٢١

نوفمبر/تشرين الثاني، في وقت بدأت تنخفض فيه الحرارة الشديدة في بغداد بعد حلول الظلام وكان الجو في الليل لطيفاً بما يكفي للنوم داخل المنزل بدلاً من النوم على السطح.

وقد مر الأسبوعان الأولان على العائلة بعد عودتها في سرور وهدوء تام. واستمتعت العائلة بالتحسينات التي جرت في المنطقة المجاورة منذ انطلاقهم في رحلتهم إلى دمشق. فلقد كانت الكهرباء في ذلك الوقت تعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وكان هناك متطوعون جدد من السُّنَّة، يحرسون بعض المناطق المجاورة في بغداد. ولم يكن بالإمكان تصديق أن العراق قد استعاد رونقه أخيراً. ففي اليرموك، على الأقل، كانت الفتنة الطائفية التي أزهقت العديد من الأرواح قد زالت، وكان الجنود الأمريكيون قد تمكنوا من إعادة بعض الاستقرار للعاصمة وقد كان الجنرال ديفيد بتراوس دائماً ما يقول: «لقد اقتربنا من السيطرة على العنف».

التحقت صبا بالجامعة في العام الثاني لها لدراسة علوم الكمبيوتر. وقد استعان والدها برجل يثق به، صديق له يعرفه منذ أيام خدمته في الجيش، وقام بتوظيفه لتوصيلها إلى الجامعة صباح كل يوم. وقد درب الأب السائق على أفضل الإجراءات والمسارات الأمنية، ثم رتب الأمر مع عائلتين مجاورتين تذهب فتياتهما إلى المدرسة أيضاً.

وسرد الوالد الأحداث قائلاً: «في الساعة ٧:٣٠ صباحاً جاء سائق الحافلة إلى المنزل. وقد استقلت صبا الحافلة وانطلق بها السائق لاصطحاب صديقتها في نفس المنطقة. وبعد خمس دقائق تلقينا اتصالاً من صبا تقول: لقد أُصبت بطلق ناري». فقد اتصلت صبا بوالدها على هاتفه الخلوي بعد إصابتها في العمود الفقري بلحظات ودون حتى أن تفكر. وروت لنا صبا أحداث الهجوم قائلة: «لقد رأيت الدم حولي من كل ناحية، وعندما أطلق النار عليَّ لم أشعر بجسدي، فاعتقدت بأني قد لقيت حتفي، لكن كيف هذا وأنا ما زلت أستخدم الهاتف؟ حينها علمت بأنني ما زلت على قيد الحياة. وقد اعتقد والد صديقتي أنني سأموت».

كان سائق الحافلة قد جاء مبكراً بضع دقائق إلى منزل صبا لأن إحدى الفتيات التي كانت تجهز لحفل زواج في العائلة، قررت عدم الذهاب إلى

المدرسة في ذلك اليوم. وكانت الراكبة الثالثة على بعد بضعة مساكن، وعندما توقف السائق بجوار الرصيف أطفأ المحرك.

«لقد كانت الفتاة الثالثة دائماً ما تتأخر، لذلك علمنا أن علينا الانتظار» أخبرتني بذلك صبا. ولو كان والدها علم بهذا النمط المعتاد، لكان أصر على أن في هذا خرقاً أمنياً. وبينما تنتظر صبا والسائق في هدوء الصباح، رأت شاباً يقف إلى جوار نافذة السائق. وكان الشاب يلبس قميصاً أبيض وسروالاً رمادياً ويحمل حقيبة كتب ثقيلة على كتفه، وكان يبدو كطالب جامعي حقيقي. وأخبر الشاب السائق أنه يريده أن يوصله إلى كلية أخرى ويريد المغادرة في الحال، حينها قال له السائق، الذي تضايق من كلام الشاب: لا، لن يذهب لتلك الكلية. أجابه الشاب في إصرار «لكنني في عجلة من أمري»، وأخبرتني صبا أنها تتذكر نفاد صبره وتتذكر أن وجهه كان عادياً.

وواصلت صبا حديثها وهي تتذكر تفاصيل الحادث وكأنه فيلم يدور في رأسها: «وفجأة، أخرج الشاب مسدساً وأطلق الرصاص على السائق أربع مرات، بهدوء شديد، كما لو كان مستعداً لذلك».

«بعد أن قال له السائق: أنا آسف، أطلق عليه الشاب الرصاص، أربع مرات. ثم بعدها بدأ ينظر إليّ نظرة مخيفة. ثم أطلق الرصاص عليّ. ولم يكن لديه سيارة، فعندما كان يهرب بدأ في إطلاق الرصاص على الحافلة. لقد سمعت الرصاص يمر من حول رأسي. وبعد هروبه، نظرت فرأيته قد وضع المسدس في حقيبة الكتب، حينها كنت شبه واعية».

ولم يكن هناك أي أحد في الشارع، ذكرت ذلك صبا. وكان من المفترض أن يخرج السكان على صوت طلقات الرصاص إلى نوافذهم ليروا شاباً طالباً، يلبس قميصاً أبيض وسروالاً رمادياً، وهو يعدو بين المساكن ويحمل حقيبة كتب ثقيلة على كتفيه. لكن العراقيين تعلموا من التجربة المريرة التي مروا بها أن يظلوا داخل بيوتهم عند سماع طلقات الرصاص. وكذلك فعلت العائلة المقيمة في المنزل الذي تقف أمامه الحافلة مباشرة، حيث أبقت أبوابها مغلقة هي الأخرى.

وقالت لي صبا: «بدأت في الصراخ كالمجنونة، وكان والد الفتاة الثالثة

خائفاً من الخروج، ثمَّ ظن أنني سأموت، لذلك أدخلني إلى المنزل، واتصلت بوالدي مرة أخرى، وبعد عشر دقائق وصلت أمي ووالدي».

لقد كان إطلاق الرصاص في المنطقة المجاورة لليرموك أمراً يحدث في «مراسم الحداد» التي كانت تقيمها القوات الأمريكية. وقد أظهرت قصة صبا أن بغداد لا تزال تعج بحالات الانتقام، وأن الميليشيات الخطرة لا تزال تغلي بعدم الثقة في نوايا الأمريكيين وانعدام الثقة بين العراقيين أنفسهم.

وصل والدا صبا سريعاً إلى مكان الحادث بعد اتصال ابنتهما بهما. وكانت إصابتها خطيرة وتحتاج إلى عناية طارئة على الفور، لكن أخذها إلى أي مستشفى لم يكن بالقرار السهل على عائلة صبا، فلقد كانت العائلة تعلم أن المستشفى المجاور لهم يخضع لسيطرة جيش المهدي. وكان أفراد جيش المهدي يحرسون مدخل المستشفى. حينها تذكرت والدة صبا أنهم يعرفون جاراً لهم كان يعمل في المستشفى وكان أملهم أن يتمكن من التفاوض لإدخال ابنتهم المصابة إلى غرفة الطوارئ.

«السبب، أنه إذا كنت من الشمال، فأنت من السُّنَّة، وأولئك الموجودون في المستشفيات من جيش المهدي. ويجب أن يساعدنا شخص ما لتخطي الحراس وإلا فإنهم سيكملون المهمة». ولا تزال والدة صبا، وهي عراقية ذات لهجة مميزة اكتسبتها من مكان مولدها في الموصل وتحمل بطاقة هوية سنية، لا تستطيع الدخول إلى أي مستشفى في بغداد دون حماية خوفاً من أن ينتقم منها الحراس من الشيعة.

«لقد عرض علينا ضابط في الجيش المساعدة، وكان هو أيضاً من السُّنَّة». وكانت هذه هي الانفراجة الأولى، وهي نتيجة السعي وراء الواقع السياسي الجديد داخل المجتمع السُّنِّي. فقد كان السُّنَّة، الذين تم منعهم سابقاً من المشاركة في الدولة العراقية الجديدة يعملون في بعض مراكز الشرطة في المناطق المجاورة. وحتى مع ضعفها، علمت صبا أن ضابط الجيش بإمكانه إدخالهم عبر الرجال المسلحين على الباب الأمامي للمستشفى.

«أصبح بهذا لدينا ثلاثة أشخاص يساعدوننا، ضابط الجيش الذي كان مسؤولاً عن المنطقة، فقد كان معنا واصطحبنا جميعاً إلى المستشفى، ولم

يكن هو وحده، بل كانت هناك وحدة عسكرية أيضاً جاءت معنا. لقد كان والدي ضابطاً في الجيش وقد جاءوا لمساعدتنا حتى نتمكن من البقاء».

لكن المستشفى لم تكن مجهزة للتعامل مع جراح صبا الخطيرة. وقد استرجع والد صبا ذكرياته وقال: «قال لنا الأطباء: إن موقفنا سيئ، كما أرادوا منا أن ندفع لهم مبلغاً من المال. وقد ألقوا نظرة على الإصابة ونصحونا بأخذها إلى مستشفى آخر في بغداد قد يكون لديه إمكانيات أفضل لمساعدتنا. وكانت صبا تنزف من الداخل، وقد أشرفت على الموت مرتين في هاتين الساعتين. وقال لنا الطبيب في المركز: «انتظروا ليومين آخرين، فمن المحتمل أن تموت، أنا آسف».

شعرت صبا أنها تموت، فبإمكانها الشعور بنزيف الدم داخل جسمها، إلا أنه كان لديها ما يكفي من القوة لتطلب رجاءً شخصياً من الطبيب. وقد تفاجأ والداها بأنها ما زال لديها القوة لتصرخ بصوت قوي وواضح من على عربة جناح الطوارئ: «أنا أحس بثقل في جسمي، فجسمي مليء بالدم! أرجوك ساعدني!» وقد انهارت بعد هذا الجهد الذي بذلته، إلا أن الطبيب لم يتحرك ولم يكن مجهزاً للتعامل مع الأمر. كل ما فعله أن كرر كلامه للوالدين الثائرين: «انتظروا ليومين آخرين، فمن المحتمل أن تموت».

كانت هذه هي الكلمات التي جعلت والد صبا يخرج من المستشفى في ظلام الليل للبحث عن مقهى إنترنت يعمل في الليل حتى يمكنه نقل تفاصيل جراح ابنته وأحداث اليوم وتكهنات الطبيب العراقي. وقد توسل الأب طلباً للمساعدة، وضغط على الزر «إرسال» وانتظر ما يحدث. لم يكن بإمكانه العودة إلى المستشفى دون مساعدة الضابط العسكري العراقي الذي جعله يمر من الحراس. ولم يكن بيده حيلة أخرى غير الانتظار.

وعندما رأى الأب سيارة هامفي أمريكية تقف عند مدخل الطوارئ في مستشفى بغداد، علم الأب أنه من الممكن أن تكون هناك معجزة قد حدثت. فقد حصل فريق الإنقاذ على رقم هاتفه الخلوي، وعلموا أن ابنته مريضة في هذه المستشفى في بغداد. وكان فريق الإنقاذ مكوناً من جنود أمريكيين مسلحين قاموا بنقل صبا إلى المنطقة الخضراء بمستشفى ابن سينا. وكان الأب يعرف هذا المكان، فقد كانت المنشأة قبل ذلك مستشفى

عسكرياً للضباط أيام صدام حسين. والآن، يعمل بالمستشفى فريق طبي أمريكي لديه خبرة كبيرة في التعامل مع الإصابات النارية.

«بعد ساعتين، قاموا بإدخالها إلى غرفة العمليات، ولو لم يحدث هذا لكانت ابنتي ماتت»، قال ذلك والد صبا الذي ظل منتظراً خارج غرفة العمليات. وقد بقيت صبا في وحدة العناية المركزة لمدة خمسة أيام. وقد أطلق عليها الأمريكيون اسم «الفتاة التي أرادت الحياة».

كانت الجرَّاحات العسكريات العاملات يعلمن أن والد صبا كان يعمل رئيساً للأمن في وكالة للمساعدات الأمريكية، وعلموا أنه قام بحماية مجموعة من النساء اللاتي ساعدن النساء العراقيات. وبالتالي، فقد عملت الجراحات طوال تلك الليلة من أجل إنقاذ حياة ابنته، ونالت صبا مزيداً من الرعاية خلال فترة النقاهة لأن «الفتاة التي أرادت الحياة» قد سحرت طاقم العمل الطبي.

وبينما كانت صبا تقضي أيامها في وحدة العناية المركزة، أعطتني والدتها مجلداً بلاستيكياً يحتوي على السجلات الطبية لإصابات ابنتها. وأشارت والدتها إلى الكلمة الإنجليزية الوحيدة التي فهمتها «شلل سفلي» في التوصيف الطبي الذي ذُكر فيه «إصابة في العمود الفقري مع تدخل في القناة». وتضمنت السجلات أيضاً تقييماً نفسياً لصبا بعد الجراحة والمقابلة مع الاستشاري النفسي عندما علمت صبا بأنها قد لا تسير على قدميها مرة أخرى: «إن لديها ثقة بالنفس لا تتأثر، وهي ترى نفسها ذكية وودودة. وعند سؤالها بشكل مباشر عما إذا كانت ترغب في العيش إذا تبين أنها ستظل مشلولة، اغرورقت عيناها بالدموع وقالت لا».

وقد كانت الصورة التي أرسلها لي المقدم جانثر هسو بالبريد الإلكتروني قد التُقطت لها في ذلك الوقت تقريباً. وواصل والد صبا سرد الحكاية لأن الأيام القليلة التالية لذلك كانت مرعبة له مثل وقت إطلاق النار. ففي الوقت الذي تكافح فيه ابنته للتعافي من العملية الجراحية التي خضعت لها لاستخراج رصاصة من عمودها الفقري، عاد الوالد إلى المنزل لرعاية ابنته الصغرى وواجهه رد الفعل المفاجئ من الجيران.

واسترجع الوالد الذكريات قائلاً: «لقد بدأت الإشاعات بين الجيران

على الفور تقريباً، فكانوا يقولون: «يا إلـهي، أنت تعمل مع الأمريكيين». وبدؤوا القول بأنه لا بد وأن تكون صبا ووالدتها قد عملتا مترجمتين لهم. هذا هو التفسير الوحيد لقبول إدخالهم إلى المستشفى الأمريكي». ولم يكن الجيران سعداء بنجاة صبا، بل بدلاً من ذلك، اعتبروها إشارة إلى أن سر العائلة قد انكشف أخيراً.

وكان هذا أمراً خطيراً لم يفكر فيه والد صبا عندما حاول الحصول على المساعدة. فلطالما أبقى الوالد على عمله مع وكالة المساعدات الأمريكية سراً. وقد ساعدت تلك الصلة في إنقاذ حياة ابنته، لكن الآن، أصبح جيرانه المتشككون على قناعة بأن زوجته وابنته خائنتين. ولم يبالِ الجيران بأنه لا الأم ولا صبا يتحدثون الإنجليزية أساساً، أو أن بعض جيرانه قد وقعوا على عقود للعمل مع الأمريكيين في مراكز الأمن المشتركة في المنطقة المجاورة. كان دخول صبا إلى المستشفى العسكري الأمريكي هو الدليل الدامغ على أن العائلة لها علاقات طويلة مع الأمريكيين. وكان الوالد يعلم أن هذا النوع من الحديث خطير للغاية، فقد يكون ذلك سبباً في إنهاء حياته في العراق.

«بدأت أسمع هذه الكلمات السيئة من الجيران، فقد كانوا يقولون: «كان المفترض أن تموت ابنتك بعد الحادث، لكنك تعمل مع الأمريكيين». حينها علمت أن علينا المغادرة. قد أتمكن أنا من العيش في بغداد، لكن صبا لن تستطيع ذلك مع الحالة النفسية التي ستصيبها». وفي غرفة التأهيل في المستشفى، كانت صبا تبكي كلما سمعت صوت إطلاق الرصاص، وبدأت ترى رجالاً مسلحين في أحلامها.

ظلت صبا في المستشفى لمدة خمسة أيام، قام بعدها طاقم العمل الطبي بتقييم حالتها مرة أخرى لمعرفة مدى التقدم الذي أحرزته وتوصلوا في النهاية إلى أن حالتها أصبحت جيدة بما يكفي لعودتها إلى المنزل. فقد كانت حالتها مستقرة وكان هناك آخرون ينتظرون دورهم ويحتاجون إلى مكانها في وحدة العناية المركزة. لكن أين تذهب ولم تعد اليرموك آمنة بعد الآن؟ حينها اقتنع والد صبا أن إعادة ابنته إلى المنزل قد يجعل الناس ينتقمون منها. «لقد قلت: إن العودة مستحيلة، فسوف يقتلونها». لكنها لم تكن بحالة جيدة تسمح لها بالسفر، كما أن السفر بالإخلاء الطبي من بغداد

إلى عمَّان كان يكلف عشرة آلاف دولار، ولم يكن هذا المبلغ في متناول العائلة. وكم سيمر من الوقت حتى تُصبح صبا قادرة على السفر في الطيران التجاري؟ لم يكن لدى الوالد أي فكرة، لكنه طلب من المستشفى تأخير مغادرة صبا لأطول فترة ممكنة.

«طلبت من مستشفى ابن سينا إبقاءها لمدة ثلاثة أيام أخرى. وقد منحونا الأيام الثلاثة تلك، عندها حجزت تذكرة طيران على الدرجة الأولى. وقد أخبرنا الأردنيين أن هذه حالة طبية طارئة، فأعدوا سيارة إسعاف في الانتظار». كان والد صبا يعارض فكرة الهجرة لأربع سنوات، فقد كان مقتنعاً بأن بغداد ليست وطنه فحسب، بل مستقبله أيضاً. والآن، لم يعد هناك ما يبكي عليه هناك.

وقد قطعت صبا رحلتها في كابينة الدرجة الأولى وهي تعاني من آثار الانطلاق الشديد الذي كان لازماً لحماية الطيار والمسافرين من هجمات صاروخية من الأرض. بعد ذلك استأجر والد صبا شقة في ضاحية أردنية تُعرف باسم بغداد الصغيرة. وقد استأجر الوالد أخصائي علاج طبيعي ومعلماً للغة الإنجليزية من أجل ابنته. وقد كان الوالد يفهم ابنته بما يكفي ليعلم أنها تحتاج إلى الحفاظ على نشاطها العقلي والجسدي معاً. وفي اليوم الذي زرت فيه العائلة في عمَّان، ظهرت لي روح صبا المتميزة التي جعلتها تحظى باهتمام الأطباء العسكريين في المستشفى العسكري الأمريكي في بغداد. لكن الوقت لم يكن في صالحها، فمع مرور كل أسبوع، كانت قدماها تزدادان ضموراً، وكان الشلل يُثقل عقلها بالتفكير.

كانت هناك ورقة دعائية على المكتب الموجود في غرفة النوم لمؤسسة أمريكية طبية في أتلانتا بولاية جورجيا، متخصصة في علاج إصابات العمود الفقري. وكانت صفحات الورقة الدعائية تعرض منشأة تبدو كمنتجع أمريكي، مع صور للمرضى وهم يسيرون على أرضيات من العشب. ومع الآمال والتطلعات المتمثلة في «التكنولوجيا المتقدمة في إعادة التأهيل»، كان المركز متخصصاً في استعمال جهاز يحفز الأقدام غير المفعمة بالحياة. قامت العائلة بتقديم طلب في السفارة الأمريكية في عمَّان للحصول على تأشيرة طبية. وكان والد صبا على علم بجميع تفاصيل هذا الجهاز

التخصصي. وبالتالي، فقد قام بحساب الأمور المالية واتصل بأقارب له في أمريكا ووافقوا على مساعدة العائلة حتى تتمكن صبا من السير مرة أخرى. وكان هذا، من وجهة نظره، هو الحل للكابوس الذي تعيشه هذه العائلة.

«لقد رحل جميع الناس المحترمين، ولم يبق إلا المجرمون»، قال ذلك والد صبا عن جيرانه في بغداد وهو يتذكر ما عاناه حتى يُقنع نفسه ويُقنع أسرته بضرورة مغادرة بغداد إلى الأبد. وقد انتقل الوالد بالعائلة إلى الأردن بإقامة مدتها ثمانية عشر شهراً. وقد انقضت هذه الفترة كلها حتى تلقوا مكالمة من المنظمة الدولية للهجرة (IOM) التي قامت بتوجيههم إلى أتلانتا، بولاية جورجيا. ومن المفترض أن تكون صبا وعائلتها الآن بالقرب من منشأة إعادة التأهيل التي أعلنت عن تخصصها في إنعاش الأطراف فاقدة الحياة؛ على الأقل، هذا ما كانت تتوقعه صبا عندما أرسلت لي رسالة إلكترونية في شتاء عام ٢٠٠٨م:

كل عام وأنت بخير وعيد ميلاد سعيد. أتمنى أن تكونين بصحة جيدة. أريد أن أخبرك بأننا أخيراً ذاهبون إلى الولايات المتحدة، سنغادر مطار عمَّان يوم ٢٨ يناير ٢٠٠٩م ضمن برنامج منظمة الهجرة الدولية متجهين إلى مدينة نيويورك وبعدها إلى أتلانتا بولاية جورجيا، وهي المدينة التي نريد العيش فيها وبداية علاجي هناك.

مع أطيب التمنيات،،،

صبا

أبرز نجاح صبا فشل اللاجئين العراقيين الذين رُفض توطينهم في الولايات المتحدة. وهؤلاء العراقيون يمثلون تحديات بعيدة المدى للأردن، فلقد ضعفت الأردن بعد سقوط صدام حسين وانهيار التحالف السُّنِّي الإقليمي. لكن الأردن لا تزال ملجأً سُنِّيًا للواءات الجيش البعثي العراقي وطياري القوات الجوية وعملاء المخابرات ورجال الأعمال الذين عبروا الحدود في البداية للإقامة فيها بصفة دائمة.

الفصل التاسع

الجيـــل المفقود

لم يرغب نزار حسين أبداً في أن يصبح لاجئاً، فلقد رفض التسجيل في مكتب الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في دمشق. كان نزار ـ الذي أصبح أصلعاً قبل الأوان ونضج فكره بصورة سريعة بالنظر إلى سنِّه فهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ـ يضع قلادة عليها خريطة للعراق تحت قميصه: «إن الأمر لا يتعلق بأن يصبح المرء بطلاً، كل ما هنالك أنني أسأل نفسي، ما الذي أريد فعله في حياتي؟»، هذا ما قاله نزار ويشترك معه العديد من العراقيين في دمشق في ازدرائهم لعمليات تحديد اللاجئين؛ فلم يستكمل سوى عشرة بالمائة فقط من التعداد الكلي للعراقيين استمارات الأمم المتحدة. وكانت خطة نزار أن يعود في النهاية إلى بغداد. وفي غضون ذلك، كانت الحياة في دمشق تمثل معاناة مستمرة بالنسبة له، فقد انتحب كثيراً على إبداعاته التي اندثرت بسبب البطالة الإجبارية.

كان نزار، الشاب الوسيم، هو مرشدي إلى مجتمع الفنانين العراقيين الشباب في سوريا، فقد كان الفنانون مهددين في العراق. ومجدداً، انحط قدر الفن في عهد صدام حسين حتى أصبح يُستخدم للدعاية. بل في واقع الأمر، كانت جميع الأعمال الفنية العامة تقريباً في بغداد تصور صدام حسين أو تكون فيها إشارة إلى حزب البعث التابع له. وقد كان الشعر العراقي التقليدي والخطابات مصدر خطر على النظام، وتعرض الكثير من الفنانين للسجن أو تم إجبارهم على مغادرة البلاد. والآن، هناك جيل من الفنانين الشباب المعرضين للخطر من جانب السلطة الاستبدادية الجديدة في الدولة. كان التراث الثقافي العراقي خاضعاً أيضاً للحصار، فقد انهار متحف أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي الذي أسس بغداد وبناها في القرن الثامن، مع الحجر التذكاري لحزب البعث، وكان هذا كما قيل من

عمل الميليشيات الشيعية الذين رأوا في هذا التراث الفني خاصةً إهانة لهم.

كان نزار في معظم الوقت حذراً من إبداء مشاعره، وكان تركيزه منصباً على الترجمة من العربية إلى الإنجليزية لمساعدتي على نقل مأساة الآخرين. لكن عندما يستغرق في التأمل، تكون بغداد هي ما يشغل باله في كثير من الأحيان.

«لقد شاهدنا مدينة كاملة يتم تدميرها ونهبها وحرقها، لكن رد فعلنا لم يكن متناسباً مع عظم الحدث». كان نزار يتحدث وهو يلوح بيديه في الهواء موجهاً كلامه بلهجة تأكيدية لأصدقائه وعائلته ـ العراقيين ـ الذين يعتقد أنهم فشلوا في الوقوف في وجه تحويل العراق إلى شيء لا يمكن تحديد شكله.

واسترجع نزار أحداث اليوم الذي وصل فيه الأمريكيون إلى المنطقة المجاورة له في بغداد خلال ربيع عام ٢٠٠٣م. «بدايةً وقبل كل شيء، عندما رأيت الأمريكيين، انتابني شعور مزدوج، فقد كنت سعيداً وغير سعيد في الوقت نفسه. وكان السؤال الذي يدور في ذهني في ذلك الوقت هو: ما الذي سيحدث بعد ذلك؟».

وقد تذكر أول جملة إنجليزية نطقها بصوت عالٍ: «إن إعادة إعمار هذه المدينة أمر سهل، الصعوبة تكمن في إعادة الحياة لها» كانت هذه هي الجملة التي قالها لطاقم إخباري غربي أوقفوه في الشارع للحديث معه. وكان نزار، مثله مثل العديد من العراقيين من جيله، قد تعلم اللغة الإنجليزية من شرائط الأغاني والأفلام الأمريكية غير المرخص لهم باستخدامها. وقد اشتملت الجملة الإنجليزية الأولى التي نطقها على الملأ على ملاحظة عميقة. فلقد وصف المهمة الضخمة غير المعترف بها للولايات المتحدة في العراق. وهذه المهمة هي إعادة إعمار المجتمع الذي تدهور في ظل حكم صدام حسين ونظامه. وقد اعترف بأنه اقتبس هذه الجملة ولم يخترعها حيث قال: «لقد كانت هذه الجملة في أحد الأفلام التي شاهدتها».

كان نزار على يقين من أن الغزو الأمريكي سيحرره من الحصار العقلي الذي يفرضه عليهم صدام حسين. وكانت أقصى رغباته هي نيل الحرية الشخصية. إن الديمقراطية أمر جيد إذا كان ذلك هو ما يريده العراقيون، لكن على حد علمه فإن السياسات التي وضعها الأمريكيون الذين جاؤوا

ليحكموا العراق كانت سيئة للغاية: «لقد وضع الأمريكيون هذا المجلس الحاكم، وفي كل شهر يكون لدينا رئيس جديد. ياللعجب، لقد مر علينا تسعة رؤساء، كل رئيس لمدة شهر واحد. ما هذه المهزلة؟ نظل خاضعين لحكم شخص واحد طوال خمسة وثلاثين عاماً، ثم نخضع لحكم رئيس كل شهر. نعم نحن نرغب بشدة في تغيير الرئيس، لكن ليس بهذه الطريقة».

حينما كان نزار طالباً في الجامعة، كان عضواً في حركة سرية للفنانين اسمها جماعة ناجين، حيث اجتمعت مجموعة من منتجي الأفلام والممثلين والرسامين والفنانين الاستعراضيين مع بعضهم بعد حرب الخليج الأولى ليكونوا تلك الجماعة. وقد درس معظم أعضاء هذه الجماعة في معهد الفنون الجميلة في بغداد. وظلت الجماعة تنظم العروض المسرحية على مدار عقد من الزمان في المنازل الخاصة والشقق الطلابية لتفادي التعنيف والاستهجان من وزير الثقافة في نظام صدام حسين. كان أحد «الناجين» قد طُرد من الكلية لرفضه نحت تمثال لصدام حسين في مشروع تخرجه.

ومع وصول الأمريكيين، أصبح هدف جماعة «الناجين» ـ المتمثل في الحرية الشخصية والفكرية ـ أمراً ملموساً. فقد آمن هؤلاء الأشخاص بأنه يمكنهم بناء دولة العراق «الجديدة» من خلال الفن وإنعاش الثقافة العراقية «الحقيقية». وخلال الأيام المضطربة التي تلت سقوط صدام حسين، تجمع أعضاء «جماعة الناجين» بشكل سريع وانتقلوا إلى مسرح الرشيد في بغداد في حين كانت المدينة تعج بالسارقين الذين كانوا ينهبون ما تبقى من الدولة العراقية أو يحرقونه. ويعد مسرح الرشيد أشهر المسارح في بغداد وهو كنز وطني فتح ذراعيه للمرة الأولى لهؤلاء الفنانين المنشقين على الرغم من الفتحات في سقفه والأنقاض التي ما زالت غاصةً برائحة الدخان.

شرح نزار ما حدث قائلاً: «عندما وقفت داخل المسرح، أردت أن أبين للجميع أن العراقيين لا يهتمون بالنهب فحسب». لقد اتخذت جماعة «الناجين» وقفة ضد الفوضى التي تعم بغداد وأخذت على عاتقها حماية مسرح الرشيد من أي أضرار أخرى بحراسته على مدار الساعة. وقد كان هذا تصرفاً رمزياً، كمحاولة لاستعادة وحماية جزء من التراث الثقافي العراقي من أي شيء.

وقد احتفلت الجماعة بنجاحها في حملة حماية المسرح بكتابة وإنتاج مسرحية أطلقوا عليها اسم «**لقد مروا من هنا**» وظهرت للوجود لأول مرة في ٤ مايو/أيار ٢٠٠٣م. وكانت الموسيقى المصاحبة للأداء المسرحي هي موسيقى فرقة بيتلز (Nowhere Man)، وهو وصف مناسب لشباب عراقي في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من العمر اعتبروا أنفسهم جزءاً من «جيل مفقود»، تم فصله عن باقي العالم وخرج من نظام العولمة بسبب صدام حسين والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة عليهم طوال عقد من الزمان. كان هؤلاء الشباب في سن الطفولة عندما اندلعت الحرب الإيرانية العراقية، وفي سن الصبا عندما غزا صدام حسين الكويت، وفي سن المراهقة طوال تسعينيات القرن العشرين خلال السنوات الكئيبة التي عانى فيها العراقيون من الفقر بعد فرض العقوبات من الأمم المتحدة، وفي سن الشباب عند وصول الأمريكيين إلى العراق.

إن هذا «الجيل المفقود» يمثل الغالبية العظمى في العراق. ففي وقت الغزو الأمريكي، كان ما يقرب من نصف المواطنين من الشباب تحت سن الواحدة والعشرين. وبخلاف نزار، قرر العديد من قرنائه الانضمام إلى الميليشيات الشيعية أو الثورة السُّنِّيَّة أو تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين، بما فيهم بعض أصدقائه من أيام الجامعة.

وفي مسرح الرشيد في بغداد، وضعت «جماعة الناجين» خطة لإنتاج أول فيلم عراقي بعد الحرب. وبدأت كتابة الفيلم في ٢٠٠٣م، وأصبح الفيلم حقيقة واقعية عندما استخدمت المجموعة كاميرا من نوع (Ariflex) عمرها واحد وعشرون عاماً من شركة للإنتاج التلفزيوني والمسرحي في بغداد. وجاءت الانفراجة التالية بعد ظهور فيلم كوداك مكون من مئات البكرات مقاس ٣٥ ملليمتر في سوق بغداد، في علب تمت سرقتها من وزارة الثقافة. وقد اقترضت الجماعة المال لشراء الفيلم بالكامل. وكانت عبوة الفيلم تحمل الختم الرسمي للحكومة بتاريخ شراء يرجع إلى عام ١٩٧٣م. وبعد إرسال رجاء عبر البريد الإلكتروني، وافق أحد المسؤولين في شركة كوداك على مساعدتهم، وجاء في رده عليهم أن التصوير باستخدام فيلم قديم يعد تصرفاً غبياً أو شديد الذكاء. وقد أوضح المصور السينمائي العراقي زياد تركي الأمر ببساطة قائلاً: «قد تتساءلون عن سبب تصويرنا باستخدام فيلم

قديم وكاميرا عتيقة الطراز، والإجابة ببساطة أننا لا نمتلك شيئاً آخر».

واختارت المجموعة للفيلم عنوان (Underexposure) أو «**غير صالح للعرض**»، كإقرار منها بنتيجة التصوير باستخدام فيلم قديم كهذا، يبلغ من العمر أكثر من ستة عشر عاماً. وقد حصل طاقم العمل على تعهد من شركة كوداك بتركيب خلطة خاصة من المواد الكيميائية في معمل الصور المتحركة في كوداك في بيروت. وعندما تم استخدام الجزء التجريبي في العملية، أرسل أفراد المعمل رسالة مفادها: «لا تعرضوا الفيلم للضوء الشديد أثناء التصوير». كانت مخاطرة، لكنها كانت حيلة ذكية أيضاً. وكانت قصة تصميم المجموعة على البداية بالمواد المتاحة لهم مفيدة جداً في التسويق للفيلم. ففي عام ٢٠٠٤م، حصلت المجموعة المنتجة للفيلم على دعم من الحكومة الألمانية. كما أُرسلت رسالة أخرى إلى المؤلف الموسيقي اللبناني غابرييل يارد لتأليف موسيقى الفيلم. وكانت موافقة غابرييل، بما له من باع طويل في تأليف موسيقى الأفلام، منها فيلم Cold Mountain (الجبل البارد) وفيلم The English Patient (المريض الإنجليزي)، هي التي أقنعت جماعة «الناجين» بأن الوقت قد حان لتبدأ من جديد صناعة السينما في العراق. وفي مقابلة أُجريت مع مخرج الفيلم في ذلك الوقت، قال: «أنا عربي مسلم، وقد عشت تحت حكم صدام حسين. وهذه أسباب كافية ليُسجن الشخص من أجلها لأكثر من ثلاثين عاماً. وما زلنا نتحسس طريقنا بعد الظلام الطويل الذي عشنا فيه».

وأصبح الوضع أفضل بكثير في العرض الأول للفيلم في عام ٢٠٠٥م في المهرجانات السينمائية في جميع أنحاء العالم وفي حفلات التكريم، وكان هذا انتصاراً كبيراً لجماعة «الناجين». وقد سافر بعض أفراد فريق العمل إلى الخارج لعرض الفيلم في جمهورية التشيك واليابان وسنغافورة وهولندا وجنوب أفريقيا وألمانيا والهند وأسبانيا. وقد صحب إطلاق الفيلم آراء كثيرة بدت وكأنها العلاج المناسب للإحباط المتزايد الذي كان يخيم على بغداد. ووضع أحد المواقع الأسترالية على الإنترنت عنواناً مثيراً عن الفيلم: «أول فيلم عراقي بدون رقابة بعد أكثر من عقد من الزمان!». كان الفيلم عبارة عن «مجموعة من الشخصيات يملؤهم اليأس - صانع أفلام لا يمل من العمل باستخدام فيلم منتهي الصلاحية، وشاعر بليغ أصابه السرطان

بالضعف، وجندي مصاب ملفوف بالضمادات على شفا الموت، ورجل عجوز مليء بالذكريات عن بغداد التي تحولت الآن إلى مجرد أشواق وحنين إلى الماضي، والأهم من ذلك كله، مدينة أصبحت أنقاضاً ولا تزال مليئة بالآمال والحب والمودة». وفي داخل هذا الفيلم، يعرض الكاتب قصة صانع أفلام يوثق حياة أصدقائه وجيرانه طوال فترة الغزو الأمريكي وما بعده. ويلقي الفيلم الضوء على تدمير بغداد بالرصاص المتطاير في كل مكان في المدينة التي أصبحت مجرد أنقاض. ولم يكن بالإمكان تسجيل السمات الخضراء والحمراء للعاصمة العراقية على الفيلم القديم المستخدم في التصوير؛ فقد كانت ألوان الفيلم مغبرة وخافتة، كما لو كانت تعكس ردود الأفعال الأولى تجاه الاحتلال الأمريكي، كما كانت المشاهد الصفراء المتعكرة للمدينة تعكس هي الأخرى الوقت الذي كانت تمر به المدينة، في عصر ضاعت فيه كل الاحتمالات.

وعندما سُمح بعرض الفيلم لأول مرة في بغداد، في ربيع عام ٢٠٠٦م الذي كان مليئاً بأعمال العنف، كان عصر الاحتمالات قد ولى. فقد بدأت الحرب الأهلية في الاشتعال، وبدأت عمليات الاغتيال بعد عرض الفيلم بوقت قصير، وكان الهدف الأول لهذه العمليات هو الممثل العراقي الشاب سمر قحطان، الذي لعب دوراً رئيسياً في الفيلم. والجريمة التي ارتكبها، على حسب كلام نزار: «أنه كان يشرب الخمر في الفيلم، وأنه كان يلعن الحرب ويلعن الميليشيات العسكرية. فقط لأنه كان يشرب الخمر ويلعن الميليشيات. كما ظهر في أحد المشاهد وهو شبه عارٍ مع زوجته، التي كانت هي الأخرى شبه عارية». حينها سألته، من الذي استاء من هذا؟ فأجاب «الجماعات الإسلامية، أو غيرهم، لا أعلم». وصرف نزار وجهه بعيداً للحظة، منتظراً السؤال التالي.

فسألته «كان هذا في عام ٢٠٠٦م، أفلم تكن تعلم أن هذا سيحدث؟» فاستغرق وقتاً قبل الإجابة، ثم قال بعد وقت: «نعم، لم يكن الأمر سراً».

واسترسل في الكلام وهو يهز رأسه قائلاً: «لقد كان ما قمنا به أمراً شديد الأنانية، وهو أن ننتج فيلماً. فما الذي غيرناه؟» «لقد استغرق تصوير الفيلم منا أكثر من عشرين شهراً. وكانت المدينة تنهار والميليشيات تأتي

إليها. لقد رأينا هذا كله. وكان كل ما يدور في بالنا أن هذه هي آخر فرصة لنا».

«كلنا كاذبون، فلقد كنا جميعاً نعلم ما قد يحدث عندما قمنا بعرض الفيلم في بغداد»، أكد نزار على هذه النقطة حتى لا أسيء فهمه. وكان نزار قد رفع اسمه من السجلات الرسمية. «إن الخيار دائماً فيما تريد أن تفعله يكون في يديك. فإذا كنت تفكر في الهرب، إذا كنت تفكر في اللجوء إلى أي دولة، فستتخذ الخطوات المناسبة لتحقيق ذلك. لا بد وأن تتخذ الخطوات التي توصلك إليه».

ولم أتفاجأ بقول نزار: إن طاقم الفيلم كان يتوقع سلاسل الاغتيالات التي ستحدث، وأنهم كانوا يسعون بشدة للحصول على سبب موثق لمغادرة العراق. لقد كان صدام محترفاً في تعليم الأجيال العراقية كيفية البقاء من خلال اتباع أسلوب الخداع، وفي بعض الأحيان يكون خداع النفس، ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى أصبح معظم العراقيين يمارسونه دون تفكير. فلقد أطلق صانعو الفيلم على أنفسهم اسم «الناجين»، وكان هدفهم هو النجاة فحسب، وتبين أن سعيهم للحصول على الحرية الشخصية لم يكن مرتبطاً بدولة معينة. فقد كانت العراق مقوضة، ولم يكن الجدول الزمني لإعادة الإعمار محدداً، لذلك بدؤوا في إعداد العدة لمستقبلهم في مكان آخر. كانوا قد شاهدوا العراق وهو يتحول إلى مجتمع غارق في العنف، واستخدموا هذا في الحبكة الدرامية للفيلم، ثم استخدموا الفيلم نفسه للخروج من هذا المجتمع.

لقد كان الفيلم بمثابة تذكرة للاستيطان في مكان آخر. وقد تكون سلسلة الاغتيالات المحققة مفيدة لتحقيق هذا الغرض. فقد ظل العراقيون يهربون من البلد طوال ثلاثة عقود من الزمان؛ وكل عائلة تقريباً لها قريب يمكنها اللجوء إليه في الخارج. وكانت الوثائق اللازمة للإقامة في أي دولة أخرى معدة جيداً. وكانت سلسلة الاغتيالات دليلاً مهماً على أن البقاء في العراق غير ممكن.

لكن نزار حسين لم يقم في الخارج، فقد آمن بأنه لو قبل الإقامة في مكان آخر وأدار ظهره لبغداد، فإنه لن يكون فناناً. وكان نزار ممزقاً بين

عالمين، فلم يكن يشعر أنه في منزله في دمشق، على الرغم من أنه محاط بالعديد من «الناجين» الذين غادروا بغداد لكنهم يرغبون في الانتقال إلى أبعد من ذلك.

لقد حصل مخرج الفيلم على حق اللجوء السياسي إلى ألمانيا بعد دعوة للعمل هناك تلقاها من المسؤولين الألمان الذين ساعدوا في تمويل الفيلم. وتقدم آخر من أفراد فريق عمل الفيلم بطلب للحصول على منحة دراسية في كلية السينما في جامعة كاليفورنيا، بولاية لوس أنجلوس، في مسابقة عبر الإنترنت، وتمكن من الفوز بتلك المنحة الدراسية. كما انتقل مدير التصوير هو وزوجته وأولاده إلى مدينة الزبداني، خارج دمشق، ووقع على طلب توطين لدى الأمم المتحدة. ولم يعد إلا عضو واحد من «جماعة الناجين» إلى بغداد. وبعد خمسة أيام من عودته، لقي مصرعه في حادث سيارة خارج بغداد. ولم يكن أحد متأكداً مما إذا كانت وفاته مستهدفة أم كانت قدراً. وعلى كلٍ، فقد كانت وفاته بمثابة تحذير بأن الوقت لم يحن بعد للعودة.

وفي دمشق، كان نزار يكافح حتى يقبل عقله أن كل ما كان يحبه في العراق قد ذهب. فلقد أصبح العراق دولة مختلفة. حتى إن السلام في العراق لا يمكنه تغيير هذه الحقيقة الواقعية. وقد اعترف بأن بغداد فيما سبق لم تكن مكاناً يسهل الإقامة فيه. وله في هذا ذكريات عديدة، فعندما كان طالباً في كلية الفنون الجميلة خلال حكم صدام حسين، تم سحبه من مدرج المحاضرات واعتقاله وتعذيبه طوال ثلاثة أسابيع في سجن أبو غريب. وقد أخبرني أنه تعرض للتعليق من كتفيه والضرب، ولا تزال مفاصله تؤلمه عندما يرفع ذراعيه. وفي ذلك الوقت، كان أصدقاؤه مقتنعين بأنه لن يعود مرة أخرى. وقد شرح الأمر لي بأنه «كان مجرد خطأ في الهوية»، وهو السبب الذي جعله يخرج حياً من هناك. وقضى نزار ثلاثة أسابيع في السرير ليتعافى من آثار التعذيب الذي تعرض له. لكن هناك ذكريات سعيدة للغاية في حياته القديمة ـ عائلته وأصدقاؤه والشوارع والأحياء التي ألفها في بغداد. لقد كان متأكداً من هويته هو. لكن أين عراقه؟

* * *

كان أصدقاء نزار حسين في دمشق تتملكهم رغبة العثور على طريقة للخروج من الشرق الأوسط. وكانت الإقامة القانونية في الولايات المتحدة خياراً للقليل جداً منهم. فالعراقيون كانوا يبحثون عن أي أماكن أخرى ـ لكن لم تقبل أي دولة باستقبالهم. كان نزار قد كتب لي قبل أسابيع قليلة من عودتي إلى دمشق: «أنا على يقين من أنك تعلمين هذا، فهو ليس بالأمر المفاجئ لأي شخص يقرأ الجرائد». وطلب مني نزار الالتقاء براقصين من الشباب من أصدقائه، كانا هما أيضاً عضوين في «جماعة الناجين» وكانا في انتظار الحصول على تأشيرة للسفر إلى هولندا.

وقد اعتذر لي مهند رشيد ـ الراقص الرئيسي ـ عن الوشم المرسوم على راحة يده، وذلك بعد أن رآني أنظر إلى الحروف السوداء المكتوبة عليها حينما كان يزيح شعره الأسود عن وجهه. وكان مهند نحيفاً ووسيم الشكل، وكان يلبس سروالاً رياضياً وقميصاً بنصف كم وسترة من الجلد. وكانت الحروف السوداء المنقوشة على يده هي «الحياة شيء تافه». وقد سألته: «منذ متى رسمت هذا الوشم؟». فأجابني: «عندما كان عمري سبعة عشر عاماً. وعندما رسمته، كان هذا هو رد فعلي على حياتي. أنا أعلم أنه خطأ، وفي يوم ما سأتخلص منه». وبعد برهة من الوقت قال: «إن الحياة ليست تافهة. لقد تغيرت أفكاري، فيجب علينا احترام الحياة، ولم يكن هذا سوى رد فعل على ما كان يحدث حينها. ينبغي علينا أن نعيش الحياة وأن نحقق أحلامنا».

وقد لخص مهند، وهو سنّي من عائلة مرموقة في بغداد، حلمه في هدف واحد بسيط، الخروج من العراق، والخروج من الشرق الأوسط. وقام بحشر يديه في جيبيه للشعور بالدفء في هذا اليوم البارد، مسترجعاً ذكرى الوقت الذي سطر فيه بحذر تقييمه الكئيب للوضع خلال السنوات الأخيرة في حكم صدام حسين. بعد ذلك قطعت محادثتنا ألحاناً من الموسيقى مع نغمتين طويلتين من البيانو، حيث انبعث صوت مهندسي الصوت وهم يختبرون النظام الصوتي في المسرح من أجل الرقصة الحديثة التي سيؤديها مهند في آخر الأمسية. كانت هذه إشارة له بأن ينضم إلى راقصين آخرين لأداء تمارين الإحماء خلف خشبة المسرح. وكان المسرح، الذي يقع خارج أسوار المدينة القديمة في الأصل فيلا دمشقية تم بناؤها حول ساحة صخرية

تنبعث منها رائحة حامضة من أشجار الخشخاش الطويلة التي تنمو على جدرانها الرمادية.

في هذه الليلة، كانت خشبة المسرح محجوزة لرقصة مهند «الأجساد العراقية»، وكان طاقم العمل العراقي يفحص نظام الصوت والإضاءة ويضع مدفآت بالقرب من الصفوف التي تجلس على الكراسي البلاستيكية البيضاء لمواجهة برد الشتاء الشديد الذي انبسط على الأرضية والجدران الصخرية.

* * *

كان مهند خائفاً من إفشاء التفاصيل الشخصية عن سبب وجوده في دمشق. فهذه التفاصيل، مثلها مثل الوشم المرسوم على يده، كلها جزء من حياته الماضية التي أغلق صفحاتها وانطلق بعيداً عنها. وعندما سألته عن سبب مغادرته بغداد، أجاب ببساطة: «إن الحياة أهم بكثير من الفن، وأنا لم أرِد أن أموت هناك».

وأخبرني مهند أنه كان مديراً للرقص، وقال بأنه انضم إلى أول شركة للرقص الحديث في بغداد في عام ٢٠٠٣م، بعد شهور قليلة من وصول الأمريكيين. وقد كان لديه اهتمام كبير بالرقص الياباني عندما عاد أحد العراقيين في تلك الشهور الأولى، بعد أن كان هاجر إلى السويد في تسعينيات القرن العشرين، وذلك بعد التحرر وأقام هذا العراقي جلسات تدريب على الرقص الحديث. وكانت هذه هي تجربة مهند الأولى في العولمة وقد غيرت تلك التجربة مسار حياته.

انضم مهند إلى «جماعة الناجين» في الكلية. وكان أخوه الأكبر، عدي رشيد، هو كاتب ومخرج فيلم «**غير صالح للعرض**». وكان لمهند نصيبه الخاص في الفيلم، بصفته المسؤول عن تحميل أصوات التصفيق والمهندس الصوتي. لكنه كان شغوفاً بالرقص ومغرماً به. وقد خطط هو وبعض الرجال العراقيين الآخرين في الجماعة، أحدهم أخوه الأصغر، لطلب اللجوء السياسي إلى هولندا. فهم يأملون في أن يصبحوا من المواطنين الغربيين: لقد أدار الفنانون ظهورهم للعراق، وربما يكون ذلك إلى الأبد.

«لقد تلقينا دعوة للذهاب إلى هولندا للرقص في مهرجان سيُعقد في أمستردام، وبعد ذلك سينتقل إلى روتردام. والآن، نحن نعمل في دمشق، لكنني لا أرى أي مستقبل لي هنا». كان مهند لا يشعر بالراحة بخصوص الحديث حول مستقبله بمزيد من التفصيل. كان تركيزه منصباً على الوقت الراهن ومراجعة رقصة المساء حيث كان أصدقاؤه يجهزون ساحة المسرح.

لقد عمل مهند بجد للحصول على دعوة لحضور مهرجان للرقص الأوروبي. إن تكوين رقصة متناسقة يعني: أن عليه الخروج من حالة الخمول العاطفي التي كان يفضلها معظم العراقيين. لقد أصبح شغله الشاغل في حياته هو التمرين وأداء الرقصات لعله يجذب حشد السفارة الغربية. كان مهند قد التقى براقصة هولندية في دمشق رتبت له الحصول على الدعوة لحضور مهرجان في أمستردام. وكان موضوع المهرجان هو «الرقص على الحافة»، وهو أسبوع من الرقصات والمناقشات حول الرقص الحديث في الشرق الأوسط.

كان رشيد ينتظر التأشيرة من السفارة الهولندية بأعصاب متوترة، وكل أمله أن يتمكن من إقناع المسؤولين المتشككين بأنه يخطط للذهاب إلى المهرجان والعودة إلى العراق، على الرغم من أنه لم يكن لديه أية نية للعودة. وبالنسبة له، كانت نهاية حكم صدام حسين قد حركت عواطف بداخله لا يمكن إشباعها، لذلك كيف يمكنه العودة إلى مجتمع مبني على القيم القبلية والطائفية؟ لقد حاول أن يعبر عن هذه العواطف في رقصة استمرت تسعين دقيقة أطلق عليها اسم «البكاء على أمي».

وقد شرح لي مهند الفكرة التي كان يحاول توصيلها بحركات بسيطة منضبطة على خشبة المسرح، جمعت بين الفن الياباني والرقص العراقي قائلاً: «إنها تدور حول ثلاثة أشخاص أشقاء، وهناك مشكلة بينهم، فهم يتقاتلون لكنهم لا يعرفون سبب القتال فيما بينهم، ما هو السبب؟ لا نعلم. وبعد ذلك نجد واحداً منهم يقتل الآخر».

«لقد أردت القول إننا السبب الأساسي للمشكلة. إنه خطأ في ثقافتنا. يمكننا دراسة التاريخ، لكن المشكلة الأساسية تكمن فينا نحن العراقيين. وأنا أحاول وصف المشكلة، مشكلة ثقافتنا. لماذا نحاول قتل بعضنا

البعض؟ إنني أعرف الكثير من العراقيين الذين لا يوافقونني، لكن هذا هو ما أريد توصيله للناس».

ومن وجهة نظر مهند، فإن معظم ما حدث منذ الغزو الأمريكي للعراق كان سببه الطبيعة الذاتية للعراقيين. يمكننا إلقاء اللوم على الأمريكيين، لكن لا بد وأن يتحمل العراقيون اللوم أيضاً لأنهم هم الذين روجوا للعنف طريقةً للتفاوض في حياتهم اليومية.

«هناك الكثير من العراقيين الذين يعانون من هذه المشكلة، حتى أنا أعاني منها أيضاً، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نقتل بعضنا. أنا أفهم أن هناك قوات أمريكية في العراق، لكن نحن الذين يجب علينا علاج هذه المشكلة».

لقد طرح مهند جميع الأسئلة التي كانت تدور في ذهني منذ زيارتي الأولى لبغداد بعد الغزو الأمريكي. ما الذي سيصبح عليه العراق؟ وكيف يمكن للعراقيين التسامح بعد العنف الذي استشرى بينهم؟ كيف يمكنهم محو الفجوة السُّنِّيَّة الشيعية من بينهم؟ ما هو المستقبل لهذا المجتمع الجريح المتشكك المنبعث من عقود من الكبت تحت حكم صدام حسين؟

لقد نشأ مهند رشيد ـ مثله مثل نزار حسين ـ فرداً من أفراد الجيل المفقود خلال السنوات القاسية لحكم صدام حسين، وهي فترة تكاد تكون متسمة بالحرب والفقر دائماً. والآن، وضع مهند تصوراً من وجهة نظر فنية للمعضلة الأساسية التي يعاني منها وطنه. إنه يعتقد أن الأمر سيستغرق سنوات لخلق جيل متعلم يمكنه الارتقاء بالدولة بعد أن هرب معظم الشباب السني. وقد كان من الواضح أن نظام الفردية الذي اتسمت به الديمقراطية التي ترغب أمريكا في نشرها بعيداً عن منال الجيل الجديد في العراق.

ويمكن اعتبار إجابة رشيد نفسه على الأسئلة التي طرحها أنانية؛ فالعراق يريد منه العودة للمساعدة في إعادة إعمار الدولة، وهو يريد بدء حياة جديدة، على الرغم من الشكوك التي يواجهها في المنفى وخطورة مرور أيام إبداعه دون أن يحقق شيئاً في منفاه، لكنه لا يزال شاباً ولديه الوقت لاعتناق ثقافة جديدة وتعلم لغة جديدة. وقد تبين أن الفن وخاصةً الرقص وسيلة ناجحة.

وأخيراً وصلت التأشيرات الهولندية قبل أداء الرقصة بأيام قليلة، مما منح وداع مهند مزيداً من الطاقة العاطفية. كان أغلب الجمهور الحاضر في المسرح من السوريين، لكن كان من بينهم أيضاً أفراد من العاملين في الأقسام الثقافية في السفارات الغربية وبعض العراقيين من خارج دائرة أصدقائه. صعد مهند وأخوه دريد عباس إلى خشبة المسرح ووقفا لتحية الجمهور بينما خفتت الأضواء وانطلقت أصوات الموسيقى. وقدم مهند رقصة عن أخوين قاتلين وأدى الجزء الخاص بنقد العراق وإلى جانبه أخوه. وسيذهبان إلى هولندا معاً، وحينها سيصبحان من الناجين.

بعد المشهد الأخير تجمع عدد قليل من الأصدقاء لوداع مهند وداعاً شخصياً، ونظم نزار حسين حفلاً بعد تصوير الرقصة الأخيرة، وقاد المجموعة عبر الشوارع المفروشة بالحصى في المقاطعة المسيحية داخل جدران المدينة القديمة في قلب دمشق. وقد جلس الجميع في بار خالٍ تقريباً، وكانت المفاجأة أنه أعد نظاماً صوتياً جيداً ومكتبة جيدة من نغمات الراب الأمريكية حيث رقصنا لساعات ونحن نتناول السجائر الأمريكية.

وبعد ليالٍ قليلة، في شقة نزار حسين المكونة من غرفة واحدة، قام مهند وأخوه دريد بالترتيبات النهائية قبل مغادرة رحلتهم إلى هولندا. وقد شاهدتهم وهم يفرزون متعلقاتهم ويحزمون حقائب صغيرة من أجل المرحلة التالية في حياتهما. وقد استغلا آخر دقائق من رصيد هاتفهما الخلوي لتوديع العائلة في بغداد وفي المنفى في دمشق. ولم يحتفل نزار برحيلهما على الرغم من أنه ساعدهما على حزم أغراضهما.

«إنني أحب أصدقائي كلهم جداً، فأنا أعتبرهم عائلتي وجزءاً من نفسي. وأنا سعيد لأنهما سيتمكنان من السفر وتقديم طلب للحصول على اللجوء السياسي وجوازات السفر، لكن قلبي يتقطع في الواقع عندما أفكر في أنني لن أكون معهما».

وبعد بضعة أيام وصلت مجموعة أخرى من العراقيين بعد ركوب الحافلة من بغداد لمدة أربع عشرة ساعة قبل أن يغادروا إلى أوروبا في تلك الليلة. وكانت هذه المجموعة قد تلقت دعوة لحضور مهرجان سينمائي في ميلان بإيطاليا، وجميعهم كانوا يخططون لتقديم طلبات لنيل اللجوء السياسي بمجرد انتهاء المهرجان.

في زاوية إحدى الشقق الصغيرة الهادئة، كان هناك خمسة شباب عراقيين يجلسون ويتبادلون الروايات والذكريات المصورة التي قاموا بحفظها على أجهزة كمبيوتر «ماك» المحمولة البيضاء. وكانوا يضحكون من تأشيراتهم الإيطالية، ومن الكتابة بخط اليد في جوازات سفرهم لأن الطابعة في المكتب الحكومي في بغداد كانت معطلة، لكن تلك الكتابة أقنعت المسؤولين السوريين على الحدود. كان هؤلاء الشباب يستمعون إلى أغاني شعبية حزينة من مكبر الصوت في جهاز الكمبيوتر ويتطلعون إلى صور عائلاتهم ويتذكرون بأسى أصدقاءهم الشبان الذين لقوا مصرعهم. كان هؤلاء «الناجون» مصممين على البدء من جديد في مكان آخر.

هؤلاء الشباب العراقيون نشأوا في زمن «جيل المعلومات»، الذي يعد كل واحد بحرية الاختيار وبعالم مفتوح لا حدود له. وقد أرادوا أن يكونوا جزءاً من الشبكة العالمية وأن يتخطوا حدود العراق التي يغلب عليها طابع صدام حسين. وكانت المشكلة التي تواجه هؤلاء الشباب ـ المتحمسين البالغين من العمر ما يزيد عن العشرين ببضعة أعوام ـ تكمن في هذا السؤال: ما الذي سيشترونه في دمشق من أجل حياة جديدة في أوروبا؟ وكانت قبعة لعبة البيسبول المرسوم عليها صورة جيفارا هي أكثر المبيعات الشائعة لتزيين خزانة الملابس بها. يبدو أن هؤلاء الشباب لا يزالون يعتبرون أنفسهم ثوريين.

كان نزار حسين يراقب الموقف في هذه المحطة التي تمثل بوابة عبور للخروج من الشرق الأوسط. وعلق على الموقف قائلاً «لقد ظننا أننا سنعيد إحياء السينما في الشرق الأوسط؛ والآن، نحن مجرد لاجئين نضيع وقتنا». لكنهم كانوا محظوظين، فقد كان الفن هو تذكرة خروجهم من العراق.

على الرغم من ذلك، لم يكن بإمكان نزار أن يتخيل أن له مستقبلاً في أوروبا. «إنهم يقيمون هناك لمدة خمس سنوات ويحصلون على وثائق جديدة وجواز سفر وجنسية مختلفة. إنهم يستفيدون، لكنهم بهذا يكونون أنانيين. إنهم لا يتحملون المسؤولية الواجبة عليهم. أنا لا أقول: «نذهب إلى بغداد ونموت، لا، بل لنكن أذكياء، مجرد أذكياء». إنني أقول: «لنذهب ولنكن أذكياء». إنني أحبهم بالفعل. لكن ما أعنيه أنهم قد اختاروا طريقهم. لكن

اختياري مختلف عنهم». ومع كل شخص جديد يغادر، كان نزار يغرق في مزيد من الكآبة - كان يشعر بالعجز التام الذي يقول العديد من المنفيين إنه أصعب نتيجة لترك الوطن. لم يكن نزار يريد أن يصبح مجرد مهاجر آخر إلى أوروبا بعيداً عن العراق، لكنه لا يستطيع العودة أيضاً.

قد يعتمد شباب عراقيون موهوبون على نفاق سياسة اللجوء الرسمية الأوروبية التي أغلقت الباب أمام إقامة أعداد كثيرة منهم، وبشكل غير رسمي فإن الأوروبيين يختارون الأفضل لمنحه حق اللجوء السياسي. وقد تحول مجتمع المنفيين إلى هجرة غير شرعية - وهي موجة ظهرت في عام ٢٠٠٧م عندما كان العراقيون يحاولون الخروج من الشرق الأوسط بكل الطرق اللازمة.

كان المنفيون العراقيون يخاطرون بحياتهم حين يلجئون إلى التهريب بدلاً من المخاطرة بانتظار وعد تحسن الأمن في العاصمة العراقية. وكانت تكلفة تذاكر الهجرة غير الشرعية تدل على الموارد الخفية في مجتمع المنفيين. لقد كان المهربون يتقاضون ما يقرب من ١٥،٠٠٠ دولار عن كل شخص للسفر في الدرجة الأولى جواً إلى أوروبا مع الحصول على جوازات سفر مزورة وتأشيرات حقيقية. ومن الخيارات الأخرى، التسلق إلى داخل خزان إحدى الشاحنات لمشاركة تلك المساحة المظلمة مع عشرين شخصاً وسيدة وطفلاً، وتكلفة هذه الطريقة ١،٥٠٠ دولار. وكل واحد منا يعرف شخصاً تمكن من النجاح بهذه الطريقة. فالمسارات معروفة للجميع، فهي منشورة على مواقع الإنترنت، وتتم مناقشة فرص النجاح والفشل وفحصها بدقة.

لا تزال ماليزيا وإندونيسيا تمنحان التأشيرات إلى العراقيين، وهذان البلدان أصبحا البوابة إلى أستراليا. وقد كان طريق تركيا هو أكثر الطرق التي استخدمها العراقيون للخروج. ويبدأ العراقيون هذه الرحلة بركوب قوارب صغيرة قابلة للنفخ تأخذهم عبر بحر إيجه إلى الجزر اليونانية بالقرب من الساحل التركي. وفي عام ٢٠٠٧م، ارتفع عدد طلبات اللجوء السياسي في اليونان بمقدار ٢٠٥ بالمائة. ومن المسارات الأخرى طريق بحري فتحته سوريا مؤخراً من مدينة لاتاكيا الساحلية إلى ميناء في الجزء التركي من

قبرص. وكان هذا الخط البحري تعبيراً عن علاقة الصداقة الجديدة بين سوريا وتركيا. ففي الصيف، يتجمهر السائحون السوريون من أجل قضاء الإجازات. لكن بحلول شتاء عام ٢٠٠٧، كان معظم المسافرين من العراقيين ليس لديهم أي نية للرجوع.

عندما زرت الملحق التركي في مكتبه في لاتاكيا، تفاجأت بصراحته حينما قال لي بأن الخط البحري أصبح الآن منفذاً للمهربين. ووضح كلامه بينما كنا نستشعر دفء نيران المدفأة: «لأي سبب آخر قد يسافر أي شخص في الشتاء عبر هذا الخط؟» وبين لي أن العواصف الشتوية والأمواج العاتية عادةً ما تؤخر الرحلة لأيام عدة؛ ومع ذلك، كان المركب محجوزاً لأسابيع قادمة. وقد أخبرني أحد الشباب الذين التقيت بهم أن المهربين يتقاضون ٥٠٠٠ دولار على الرحلة التي تنتهي بالقرب من ساحل قبرص. بعد ذلك يسبح العراقيون إلى الشاطئ في المياه المتجمدة مع وضع وثائقهم وملابسهم الجافة في أكياس بلاستيكية محكمة الغلق. وقد ينقلهم المهربون من الجانب التركي من الجزيرة إلى الجانب اليوناني من قبرص، الذين يعتبرون أنه الخطوة الأولى في اللجوء إلى الاتحاد الأوروبي.

بطبيعة الحال هناك حكايات مرعبة حول عمليات النصب والعراقيين الذين يموتون على الطرق السريعة في تركيا. كما أن بعضهم يختفي دون أي أثر أو يظهرون من جديد في بغداد وهم مفلسون، ورغم هذا فهم مصممون على تجميع المال للمحاولة من جديد. البعض الآخر يَعْلَقُ في نيجيريا أو كمبوديا دون وثائق ويقضون وقتاً في السجن قبل ترحيلهم. وهناك آخرون يفشلون في المرور بجوازات السفر عندما لا تكون لديهم قصة مقنعة لشرح عدم استطاعتهم الحديث بلغة الدولة التي يدعون أنهم ولدوا فيها بحسب جواز السفر.

ومع ذلك، لا تزال هناك قصص نجاح جعلت إحصائيات اللجوء إلى الاتحاد الأوروبي في ٢٠٠٧م ترتفع بنسبة ١٠ بالمائة. ولقد صمم جيش المهاجرين العراقيين غير الشرعيين، الذين يبلغ عددهم أكثر من خمسين ألفاً، على عدم العودة إلى بغداد. وفي ٢٠٠٩م، بعد استنفاد كافة السبل القانونية، تم تحويل بعض العراقيين إلى سلطات الهجرة لترحيلهم إجبارياً، لكن غالبية المهاجرين العراقيين يعيشون في منازل بسيطة في أوروبا.

وقد وافقت السلطات الهولندية على منح مهند ودريد حق اللجوء السياسي في غضون أسابيع من أداء الرقصات في أمستردام وروتردام. وقد حصل الأخوان على مبتغاهما سريعاً ومُنحا شقة في مجتمع اللاجئين. ويحصل كل منهما على راتب من أجل مصاريف المعيشة. وأصبحت لهما الحرية الكاملة في السعي لتحقيق أحلامهما. وإذا كانا نادمين على مغادرة العراق، فإنهما لا يقولان ذلك عندما يتصلان بنزار حسين في دمشق، بل في واقع الأمر، كانت معنوياتهما عالية في التأقلم مع شوارع أمستردام الغريبة. وقد شاركهما نزار متعتهما معرباً لهما في الهاتف عن اشتياقه لهما. وبهذا تكون «جماعة الناجين» قد غادرت العراق في نهاية المطاف.

لقد وصل صدى رقصة «البكاء على أمي» إلى الدائرة الفنية في هولندا واليونان ولبنان وإيران. فلقد تمكن هؤلاء الفنانون العراقيون الشبان من تشخيص الخلل الذي تعاني منه الدولة، لكنهم لم يقدموا أي حل بعيداً عن الرقص. وفي مقابلة مع مهند في بداية رحلته الأوروبية في ٢٠٠٩م، قال: «لم يكن إحساسي بهويتي أثناء الحرب يمثل مشكلة؛ لأنني وقتها كنت عراقياً حتى النخاع. وعندما غادرت العراق، أدركت أنني لم يعد لدي أي مشاعر تجاه المكان».

الفصل العاشر

خلف كل طبق يقبع عالم وثقافة وتاريخ

ما السبب وراء غرام العراقيين بالمطبخ العراقي؟ لقد سألت عن ذلك محمد يحيى ـ وهو أحد اللاجئين العراقيين، أثناء انتظارنا لتناول عشائنا في مطعم مشهور بكثرة رواده من مجتمع المنفى ـ فأجاب: «لأنه لذيذ جداً». ولم تكن إجابته تنضوي على تهكم وكانت تدل ضمنياً على أن سؤالي كان سخيفاً. إن العراقيين يحبون مطبخهم الذي يركز على لحوم الضأن والدهون والأرز والبصل والطماطم. وقد لاحظت أيضاً أنه كلما ازداد مكث العراقيين في المنفى، كلما ازداد تركيزهم على الطبق العراقي. ويرى يحيى، ومعه الكثير من العراقيين في المنفى، أن المطبخ العراقي يشبه متابعة منتخب كرة القدم العراقي، كلاهما يعبر عن الوطنية من زاوية استعادة الحنين للوطن ومن زاوية الشعور بالهوية، أضاف محمد وهو يشرح لي: «عندما يتذوق السوريون طعامنا، يعرفون أيضاً أنه أفضل». الطريف أنه لم يكن هناك أي سوري في الغرفة، فقد كان كل الزبائن الذين يحيطون بنا يتحدثون باللهجة العراقية المميزة.

في سنوات قليلة، تحولت مجاورة المنفى العراقي في دمشق إلى أماكن استجمام بغدادية. وقد اتخذت الشوارع السورية أسماء عكست المدن والفصائل العراقية. وقد كانت التحية المفضلة هي: «شكو ماكو»، وهي مفردات عامية عراقية تعني: «ما أخبارك؟» وهي لهجة أكثر خشونة من اللهجة السورية الأنيقة. وقد فتح أكثر من ثلاثين مطعم بغدادي فروعاً في دمشق بأسماء معروفة تدل على أطباق عراقية معينة مثل: الباتشا، والمسكوف، والقوزي والكص. وكانت المطاعم والمقاهي تشكل أرخبيلاً ينتمي إلى الثقافة العراقية في العاصمة السورية. وفي هذه المنشآت، كان الطهاة العراقيون يعدون الأطباق باستخدام بهارات عراقية خاصة، وبالفاصولياء

والأرز العراقي، والأهم أنها كانت تقدم الصمون الطازج والساخن، وكذلك الخبز المميز الذي أصبح طعاماً يومياً لمجتمع العراقيين في المنفى.

كان مطعم زرزور في دمشق ممتلئاً معظم الليالي، مع وجود صفوف طويلة من الناس في الشارع في رمضان. وهذا ـ أي مطعم زرزور ـ العراقي الأصلي، الموجود على الطريق السريع في الفلوجة، هو أفضل مطعم كباب في البلد، ويستحق عناء رحلة الوصول إليه والتي كانت تستغرق ساعة كاملة من بغداد، وقد دمرته البحرية الأمريكية في معركة عام ٢٠٠٤م، الأمرالذي تم اعتباره مصيبة قومية، وكان كبار الطهاة العراقيين في دمشق الذين كانوا يشوون السمك لطبق المسكوف الأصلي يصرون على استيراد أسماك نهرية من بغداد إلى أن أحسوا أن طعم الأسماك تلوثه الجثث الميتة الملقاة في نهر دجلة. بعد ذلك، أصبحت مطاعم المسكوف تحضر سمك الشبوط من الأسواق السورية.

لم تكن سوريا تفتقد وجود مطبخ خاص بها، بل كان السوريون يفتخرون بميراث الطهي لديهم. وكانت فئة جديدة من الرأسماليين الذين تحرروا مع تخفيف قيود الاقتصاد الاشتراكي السوري تحت حكم بشار الأسد، قد افتتحوا عدة مطاعم ذات مستوى عالمي، كانت تقدم الأطباق الخفيفة التي تعكس التاريخ الثري لسوريا. وقد تم تقديم عروض لكتّاب كتب طعام أوروبيين مشاهير بالقيام بجولات عشاء في دمشق، وقد ذاق المسافرون المتحمسون عينات من الأصناف المبهجة في أشهر مطاعم المدينة. يمكنك مثلاً الحصول على طبق الكباب المليء بالفستق وبذور الصنوبر في مدن شمال سوريا، مع تأثرها بدورها التاريخي كعاصمة للطريق التجاري «طريق الحرير» وبموقعها في منطقة الهلال الخصيب، وقد حازت المدينة جوائز من الأكاديمية الدولية لفنون الطبخ في باريس. كما أن تفضيل الأطباق العراقية في مجتمع المنفى لم يكن مسألة تتعلق بالسعر، فالطعام يعد سلعة رخيصة نسبياً في سوريا. حيث تعد هذه الأسعار حجر زاوية للسياسة الاقتصادية المحلية التي تدعم الخبز والوقود، فالأمر بالنسبة للعراقيين كان مسألة ذكريات واعتزاز وطني.

في الخيال وفي الواقع، زعمت بغداد أن لها دوراً كبيراً في تحديد

المطبخ العربي. وقد تمت كتابة وصفات الطعام منذ أكثر من ألف عام حينما كانت بغداد أغنى مدينة في العالم، مع وجود أطباق سميت بأسماء الخلفاء العباسيين الذين كان لديهم ذوق في الأطعمة والذين حققوا عصراً ذهبياً لفن الطبخ. وقد حكم العباسيون شعباً متنوعاً ساهم في إثراء أنواع الطبخات وبهاراتها ومكوناتها، وقد تأثرت أيضاً بأذواق الفرس الذين قهروا الدولة العباسية. وقد كتب المؤرخون أنه قد تم استحداث أطباق الخضروات بأوامر أطباء الخلفاء، وبخاصة المسيحيين النسطوريين الذين كانوا مقتنعين بالمنافع الصحية لها، كما حدثت ثورة في نظام الغذاء المعتمد على التمر واللبن فقط قبل الإسلام، حيث وضعت الإمبراطورية الحضرية جوائز للطعام الجيد وخلدت الأطعمة الجيدة في أشعار بلاط الملوك. وكان طبق اليخنة المعقد هو الطبق المفضل، وهوطبق ملائم لأرض اتسعت لتشمل العديد من الاختلافات.

وفي عصرنا الحديث، ازدهرت في بغداد ثقافة غذائية سببها الأراضي الزراعية الخصبة التي يرويها نهرا دجلة والفرات. حينما أتيت لأول مرة إلى بغداد منذ أكثر من عقدين، في أوج حكم صدام في الأعوام الأولى من الحرب الإيرانية العراقية، كانت مطاعم أسماك المسكوف والحديقة المزدهرة والملاهي الليلية تصطف على جانب نهر دجلة، والتي تفتح متأخراً ليلاً لمجموعة من السكان الذين يعتبرون السمك المشوي الطازج كنزاً وطنياً. وفي هذا المجتمع المقموع، كان الصحفيون الغربيون دائماً تحت رقابة «حراسة» من وزارة الاستعلامات، وتعد الليلة التي يتم قضاؤها في شارع أبو نواس زمناً للهروب والاسترخاء وقضاء ساعات قليلة في المجتمع العراقي دون وجود موظف حكومي يقوم بدور الحراسة.

كان التنوع في سكان العراق هو الذي حدد الثقافة والمطبخ في العراق، لكن هذا التنوع كان أيضاً سبباً لمآسي عظيمة في البلاد. فالطائفية لها تاريخ طويل في العراق. وحتى تحت حكم صدام، كان يمكن استخدام الطعام للتعبير عن التعصب في الانقسام الطائفي. فقد أشار إلى شيعة العراق باعتبارهم «شعب الفسنجون»، وهو تشويه الهدف منه الدلالة الضمنية عن الدونية والتشكيك في أصولهم لأن مجتمع الشيعة كان يفضل الأطباق المتأثرة بالثقافة الفارسية التي تتميز بصوص (Sauce) الرمان والجوز. وكانت

هذه التسميات إعادة إنتاج للطائفية التي أفسدت البلاد منذ عام ١٢٥٨هـ، حينما غضب مجتمع السُّنَّة في بغداد على وزير شيعي لأنه فتح أبواب المدينة للمغول وسلمهم إياها أثناء حصارهم لها. وقد ذكرت القصة في كتب التاريخ المدرسية.

وقد ازدادت حدة مخاوف العراقيين بالمنفى. وقد قالت كلوديا رودين ـ وهي صحفية من أصل مصري مختصة بالكتابة عن ثقافة الطعام ـ: إن العلاقة بين الطعام والمعنى قد وردت في تمهيد كتاب ريتشارد تابر وسامي زبيدة «طعم الزعتر: ثقافات الطبخ من الشرق الأوسط». حيث «هناك الكثير من الأطعمة التي يمكن أكلها وطبخها. وخلف كل طبق يقبع عالم وثقافة وتاريخ. فالأطباق لها معنى اجتماعي؛ ولها مغزى عاطفي ورمزي».

إن قوة الغذاء، إن وجدت في المنفى يتم استحضارها من ذكريات الماضي المتعلقة بالأطعمة والأصدقاء والوطن. لقد كان العشاء في المطاعم العراقية في الأغلب هو طعام لأشخاص في المنفى لا حول لهم ولا قوة، يختارون طعامهم من قائمة مريرة، فهم الخاسرون في الحرب الطائفية التي أعادت تشكيل بغداد. لقد كانت المطاعم تجذب الجمهور ليلاً ونهاراً ـ وكانت جميعاً تعد أماكن عراقية خالصة في العاصمة السورية.

كان محمد يحيى يعاني من بيروقراطية التعامل الدولي مع اللاجئين والتي كانت تبعث على الإحباط لبطئها الشديد. ففي العام الذي أجبر فيه محمد على اللجوء إلى المنفى في ٢٠٠٧م، اعترفت وزارة الخارجية الأمريكية بعدد ١٦٠٨ عراقي فقط من اللاجئين.

كان يمثل جهة الاتصال في وزارة الخارجية في هذا الوقت السفير جيمس فولي، وقد اختارته وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك كوندوليزا رايس بعناية. وقد أصبح الواجهة الرسمية للجهود الأمريكية لحل أزمة اللاجئين العراقيين، بعد أن حل بديلاً لإيلين سوربري الذي كان غير فعال وغير كفء سياسياً، وقد تعهد بإعادة توطين ٢٥ ألف من العراقيين في الولايات المتحدة خلال العام المالي ٢٠٠٧م. وقد استخدمت مجموعات حقوق الإنسان هذا الرقم الذي لم يتحقق بوصفه دليلاً على الفشل الذريع.

* * *

حينما نظرت حولي في المطعم، تعجبت كيف أن العديدين قد وقعوا في نفس لعبة الأرقام تلك. فقد تقدم محمد يحيى بطلب للحصول على وضع لاجئ وعلى إعادة توطين لدى مكتب المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بمجرد وصوله إلى دمشق. وقد انتظر في صف طويل في مركز معالجة الطلبات الموجود في ضواحي دمشق من أجل تقديم طلبه وإجراء المقابلة. وهناك قالوا له: عُدْ بعد ثمانية أشهر. وحينما حصل أخيراً على أول موعد له، والذي في أثناءه كان يتم فحص طلبه لتحديد وضعه كلاجئ (بمعنى شخص لديه «مخاوف مبررة من المقاضاة») أخبره الموظف الذي يتسلم الأوراق في المفوضية العليا لشؤون اللاجئين أنه يجب أن ينتظر مرة أخرى. ثم تم استدعاء محمد مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر لحضور مقابلة ثانية في مايو/أيار ٢٠٠٨م. وتم إخباره أن عليه أن ينتظر مرة أخرى. وفي مايو ٢٠٠٨م، قبلت الولايات المتحدة ١١٤١ لاجئاً عراقياً آخر لإعادة توطينهم، وكان هو أعلى رقم تقبله الولايات المتحدة في شهر واحد. إلا أنه كان هناك الآلاف غيرهم في الانتظار.

ومثل معظم اللاجئين العراقيين الآخرين، اعتمد محمد على مدخراته من أجل إعالة أسرته، لكن بعد أكثر من عام في دمشق كانت أمواله تنفد، وقد ارتفعت أسعار الخبز إلى الضعف، وكانت الحكومة السورية تلغي تدريجياً دعم الوقود. وبالنسبة لمحمد كانت هناك مصروفات إضافية لوجود طفل في الطريق. وبالتالي أصبح محمد مع الوقت يشعر باليأس. وبالرغم من مزاعم تحسن الأمن في العراق، إلا أنه لم يجرؤ على العودة إلى بغداد حتى بعد وفاة أمه فجأة. حيث حذره والده من أن الميليشيات في مجاورته تنتظره وتتوقع حضوره للجنازة.

لقد عرفت العقبات الكثيرة التي واجهها بالرغم من أنه خاطر بحياته في العمل في المشروع الأمريكي في العراقي. فالكثير من العراقيين الذين تتشابه حالاتهم تم رفض إعادة توطينهم في الولايات المتحدة. وكان جزء من المشكلة هو تفسير حكومة الولايات المتحدة لحظر «الدعم المادي للإرهاب»، والذي وسع مفهومه الكونجرس الأمريكي كجزء من «قانون باتريوت الأمريكي لمكافحة الإرهاب» والذي تم إقراره بعد أحداث ٩/١١ مباشرةً. كان الحظر يمنع إعطاء حق اللجوء للمهاجرين اللذين يحتمل أنهم

قدموا دعماً لجماعات إرهابية مثل القاعدة. ومع ذلك فإن من طبق الحظر على الجميع لم يتوقع المشاكل الكبيرة التي واجهت اللاجئين العراقيين كالخطف مثلاً. فالعديد من العراقيين قد دفعوا فدية لإطلاق سراح من يحبونهم ممن خطفتهم المليشيات أو العصابات الإجرامية، أحياناً بدافع الانتقام الطائفي وأحياناً أخرى بدافع الربح. وقد اعتبرت حكومة الولايات المتحدة دفع فدية في مثل هذه الحالات ـ بغض النظر عن الظروف ـ يمثل «دعماً مادياً» للإرهابيين، وبالتالي منعت الأسر التي نجت من الاختطاف بعد دفع فدية من إعادة توطينها في الولايات المتحدة.

وكانت وزارة الأمن الوطني هي الوكالة الأمريكية المسؤولة عن تفسير معنى حظر «الدعم المادي للإرهاب» في قانون باتريوت الأمريكي لمكافحة الإرهاب، وكانت معظم الأحكام الصادرة من الوزارة تتسم بأقسى درجات الصرامة في التفسير. وفي إحدى الحالات، كان أحد اللاجئين العراقيين على قائمة المطلوبين للقتل نظراً لأنه فتح مطعماً في المنطقة الخضراء في بغداد في ٢٠٠٣م. وقد تمتع هو وأسرته بأمان نسبي حينما كانوا يعيشون داخل المنطقة التي تقدم أطعمة تروق للذوق الأمريكي. لكن في عام ٢٠٠٤م حينما عاد إلى مجاورته القديمة يوماً ليبيع سيارته، تم اختطافه واستجوابه وتعذيبه بالصدمات الكهربائية، وفقاً لشهادته في نموذج طلب المفوضية العليا لشؤون اللاجئين. وقد أقر أنه دفع ١٥٠٠٠ دولار إلى مختطفيه كفدية مقابل إطلاق سراحه، فتضمن ملفه في المفوضية العليا لشؤون اللاجئين ملاحظة بأن دفع الفدية سيمنعه من إعادة التوطين في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما أخطر العقبات التي تقف أمام إعادة التوطين في الولايات المتحدة الأمريكية فهي إقرار اللاجئ نفسه أنه ينتمي إلى جماعة إرهابية، حيث إن قانون باتريوت الأمريكي لمكافحة الإرهاب يوسع بشدة التعريف هنا أيضاً. فبموجب هذا القانون فإن أي «مجموعة من شخصين أو أكثر سواء كانت منظمة أم لا» اشتركت في أي صورة من صور «الأنشطة الإرهابية» تعتبر منظمة إرهابية. وقد كان لدى المحاورين من المفوضية العليا لشؤون اللاجئين حرية كبيرة في تعريف لاجئي العراق بأنهم إرهابيين سابقين وبالتالي منعهم من دخول الولايات المتحدة الأمريكية؛ وبالتالي أصبحت تلك الأحكام البيروقراطية شاذة وغريبة في معظم الأحوال.

وقد زعم أحد اللاجئين العراقيين أنه قد تم تهديده بعد عمله في شرطة كربلاء، وقد وثقت وحدة «الحماية الوطنية بكاليفورنيا» تدريبه في عام ٢٠٠٣م. وهو أرمل ولديه أربعة أطفال وقد تقدم بطلب لإعادة توطينه معتقداً أنه مؤهل لكي تنظر الولايات المتحدة في طلبه نظراً لتعاونه الوثيق مع القوات الأمريكية في العراق، إلا أنه بالرغم من هذا قد تم رفض طلبه. وكان خطاب الرفض الذي وقعه مدير المكتب الميداني الأمريكي، يحتوي على مربع ينص على أن «أيَ تنازل غير متاح لأن الآتي نصه يمنع السماح له». وكان النص هو «اشترك في نشاط إرهابي، فقد حرض على الانتفاضة ضد الحكومة العراقية».

لقد كانت سخافة الرفض مؤلمة: فقد حرم إعادة التوطين في الولايات المتحدة ليس بسبب أنه شارك في انتفاضة ضد الحكومة العراقية الحالية التي تدعمها الولايات المتحدة ولكن لأنه شارك في انتفاضة ضد نظام صدام حسين بعد حرب الخليج الأولى في عام ١٩٩١م. وقد وضعه طلب إعادة التوطين الذي تقدم به على قائمة المشاركين في انتفاضة ١٩٩١م، وهي انتفاضة معظمها شيعية وقد كانت تمثل السند والمشجع الحقيقي للرئيس جورج دبليو بوش في حربه ضد صدام. وفي خضم تحليل البيروقراطية في وزارة الأمن الوطني، تم حرمان لاجئ عراقي من دخول الولايات المتحدة لمحاولته الإطاحة بنظام صدام قبل سبعة عشر عاماً من قيام إدارة بوش بهذه المهمة.

«لقد قابلنا الأعداء، وهم نحن». لقد كان ذلك هو حكم عضو مجلس النواب جاري أكرمان، وهو مدير اللجنة الفرعية للشرق الأوسط ووسط آسيا في مجلس النواب في جلسة استماع حول تأثيرات قانون باتريوت الأمريكي لمكافحة الإرهاب على برنامج اللاجئين العراقيين.

لقد تحولت هذه القصص إلى أساطير في مجتمع اللاجئين، فقد حفظ محمد هذه التفاصيل المثبطة عن ظهر قلب. وكذلك الآخرون الذين كانوا يدخنون ويحتسون الشاي ويأكلون ويتساءلون وماذا بعد. كانت خروجاتنا لتناول العشاء هي الأوقات الوحيدة التي يكون فيها محمد هادئاً نفسياً. وقد ملأ النادل المنضدة بالأصناف التقليدية: حساء بالفلفل الأحمر والحمص

بزيت الزيتون والباذنجان المشوي والبصل الأسود الموجود في صلصة طماطم، وصينية عليها الخبز الساخن. وكان اسم المطعم «قاسم القسام عبد الكص» وهو يعني حرفياً «قاسم الجزار والد الضأن المشوي». والجوص هي الكلمة العربية العراقية للحم الضأن المتبل الذي يتم تقديمه على طبق كبير أو في ساندويتش. وفي مقدمة المحل توجد قطعة من اللحم تكفي أربعة رجال ومحاطة بالدهون، ويتم تقليبها أمام شواية بلهب بغاز مفتوح. وكان النادل، الذي يلبس قميصاً أبيض اللون وبنطلوناً أسود، يقدم أطباقاً ممتلئة باللحم المشوي على مناضدنا.

وقد قال أحمد القوصي مدير المطعم حينما انضم إلينا على المنضدة «إنني أتذوق فقط لكنني لا أطبخ»، «ليس ضرورياً أن تكون طاهياً ولكن ينبغي أن تعرف المذاق الجيد فقط». ولم يكن يبدو على القوصي أنه مدير للمطعم. وهو ذو وجه ممتلئ وذو كرش ضخم ورأسه يشبه الكرة وعيونه خضراء ضيقة وأصابعه سمينة بها خاتم ذهبي. وقد عين القوصي نادلات وخبازين وطهاة. وكان هذا جانب من شخصية القوصي ولكن كان للقوصي جانب آخر.

فقد أخبرني أحمد القوصي أنه كان عقيداً في جهاز استخبارات صدام. وقد فقد وظيفته في عام ٢٠٠٣م أثناء «عملية الفصل الكبيرة» لكل أفراد الجيش العراقي الذي أمر به بول بريمر، الحاكم المدني الأمريكي السابق في بغداد. وكان هناك شك في أنه عضو في مجموعة متمردة سنية. وقد سجنه الأمريكيون لمدة ثمانية عشر شهراً، وكان من أوائل من سُجن في أبو غريب ثم في مخيم بوكا في جنوب العراق. وبعد إطلاق سراحه، اكتشف أنه كان مدرجاً على قائمة مستهدفين. «لقد حاول الشيعة قتلي مرتين حينما خرجت من السجن. لقد كانوا يتعقبون الضباط [السابقين]. وكانت هناك قائمة بالأسماء وكنت على هذه القائمة». وبعد اختطاف والده وأخيه التوأم ترك أحمد بغداد وانتقل إلى دمشق.

«يجب أن يضع الإنسان ثقته في وطنه وأسرته وأمواله. أما حينما لا يستطيع الإنسان أن يدافع عن هذه الأشياء، فإن البديل الأفضل أن ينتقل إلى مكان آمن». كما وجد أحمد أيضاً مكاناً آمناً في دمشق لمن ظنهم طاقم عمله

من ضباط الجيش والمتمردين السابقين. لقد انسحبوا من القتال ورضوا بأن يعملوا في تقديم الطعام للزبائن العراقيين. وقد قال أحمد القوصي: «إنني ضقت ذرعاً بالعراق».

وكان محمد يحيى يعمل مع الأمريكيين في الوقت الذي كان أحمد القوصي يحاربهم، لكن الطعام أصبح هو القاسم المشترك بينهما. فقد استدعى محمد مدير المطعم ليجيب عن سؤالي حول الضأن المشوي على الطبق الذي أمامي، ما الذي جعل هذا طبقاً عراقياً؟ لماذا كان الطبق مختلفاً عن الطبق السوري الأمر الذي يجعل الزبائن العراقيين يبتعدون عن الطبق المحلي؟ وربما سألت أيضاً عن الفارق بين السمك البريطاني ورقاقات البطاطس المقلية وبين طبق أسماك القد المليئة بالزبد مع البطاطس بالبقدونس الفرنسية.

وقد أوضح أحمد ذلك قائلاً: «نباتاتنا أكثر خضرة، الخرفان أفضل، توابلنا هي الأفضل. لا نفقد شيئاً في المطبخ العراقي»، حيث رسم رسماً تقريبياً لخروف على المنديل، ورسم أسهماً إلى أجزاء الخروف المستخدمة لكل طبق ـ الصدر والفخذ والربع الخلفي من الذبيحة والذيل المليء بالدهن ـ. ليس هناك اختلاف. فهناك «الكوزي» مصنوع من الرقبة والعمود الفقري، و«التكا» من لحم الفخذ، و«الباتشا» من الرأس والأقدام. وكان أحمد مسؤولاً عن شراء المنتجات واللحوم كل يوم، وهي المهمة التي تحتاج إلى الكثير من المهارات اللوجيستية.

«هناك أماكن نشتري منها. إنها بالقرب من الحدود العراقية في المناطق القبلية السُّنِّيَّة التي تمتد على الحدود الوطنية. فالنباتات هناك أكثر خضرة وبالتالي تكون الحيوانات بنفس الجودة الموجودة في العراق». وكان أحمد متعنتاً بشأن جودة اللحوم الموجودة في الأسواق السورية فكان يقول «الغنم السوري رائحته كريهة!» ولكنني لا أرجح فكرة الرائحة الكريهة للغنم السوري؛ فقد أكلت مراراً واستمتعت بالمطبخ السوري، وهذه تهمة متكررة لكل الأطعمة «المختلفة»، وهي تهمة يستحيل عليك أن تفندها.

كان أحمد يشرف على إعداد لحم الضأن من خلال حفظه في الثلج

لمدة ثلاثة أيام. وكان يصرعلى وضع الليمون على اللحم حيث هذه هي الطريقة العراقية في حفظه. مكونات هذا الطبق على وجه الخصوص كان ٢٥٪ منها من دهون ذيل الضأن المخلوطة باللحم. وكانت هناك قطعة أخرى من دهن الضأن في أعلى اللحم المشوي، حيث يتم وضع اللحم المشرب بالليمون في مادة شحمية لامعة بينما يتم تقليبها ببطء أمام النار. ثم كانت هناك توابل تصل كل يوم من سوق بغداد، وهي خليط معقد معروف منذ فترة الحكم العباسي.

«إنها مكونات سرية، حتى إنني لا أعرف الخليط تحديداً. فهم يطلقون عليه البهارات الهندية. وهي لا تستخدم إلا للجوص. فهي مصنوعة في محلات خاصة في بغداد. لكن السائقين الذين يجلبون اللاجئين يحضرون التوابل من بغداد». وبالرغم من كل الثورات في العراق وأخطار الطريق من العاصمة العراقية إلى مطعم هذه المجاورة في ضواحي دمشق، إلا أن السائقين لم يتخلفوا يوماً واحداً عن هذه المهمة، فهم يسلمون شحنة الأشخاص بالإضافة إلى التوابل الهامة التي يبدو أن العراقيين لا يستطيعون الاستغناء عنها.

«إذا لم تكن لدينا هذه التوابل ـ سيعرف زبائننا ـ سيظل «الجوص» كما هو، لكن زبائننا سيعرفون ذلك». لقد كان أحمد متحمساً بشأن إعادة عمل نفس الطعم الموجود في بغداد من أجل الحفاظ على الذكريات. وفي مؤخرة المطعم، على موقد الصمون، قدم لي أحمد الخباز قائلاً: «إن سيرته الذاتية توضح أن عائلته كانت تصنع «الصمون» في بغداد منذ عام ١٩١٥م!».

ربما كان العنف قد هز بغداد بشدة بعد الغزو الأمريكي لها، وقد تغيرت بغداد بعد أن سيطرت عليها حكومة الشيعة، ولكن بالنسبة لأحمد القوصي، فإن مكونات المطعم البغدادي لن تتغير وستستمر في دمشق.

* * *

هل كان العراقيون دائماً مهتمين بشأن الطعام؟ لقد أعدت هذا السؤال مرة أخرى على سامي زبيدة ـ وهو شاب عراقي ـ في مطعم لندن الذي يمتلكه، فأجاب قائلاً: «نعم دائماً». كان زبيدة أيضاً أحد العراقيين في

المنفى، لكنه من جيل أقدم. «إن العراقيين في الوطن كانوا مهتمين جداً بشأن الطعام. كان هذا من سمات المناطق الحضرية. وبخاصة بين أبناء الطبقة البرجوازية»، صب أحمد الشاي الأسود في فنجان ثم عرض ماءً ساخناً من أجل تخفيفه بالطريقة العراقية.

وكان سامي زبيدة خبيراً بالثقافة الغذائية في العراق وفي المناطق المحيطة به. وقد كتب كتباً حول هذا الموضوع وقدم أوراقاً أكاديمية بشأن ثقافة الغذاء وتعقب أصول الأعراف الغذائية. وقد كان مدرساً فخرياً لعلم الاجتماع في جامعة لندن، وكان تخصصه هو الشريعة، ولكن يبدو أنه كان يستمتع أكثر بمناقشة أبحاثه حول أصول الثقافة الغذائية.

وماذا عن المسكوف؟ سألته عن أسماك نهر دجلة التي يتم شقها من المنتصف وشَيُّها على الحطب في الهواء المفتوح والتي تذوقتها لأول مرة في بغداد.

«إنك ترى إشارات لها في العصر العباسي في القرن العاشر الميلادي. إن كل كتب الطبخ الأولى في المخطوطات العربية من العراق. لقد كان هذا طعاماً أرستقراطياً في قصر الخليفة، كما كان من الأطعمة الحضرية في العصر العباسي».

وماذا عن «الباتشا»، اليخنة المصنوعة من رأس وقدم الضأن؟ إن في بغداد العديد من المطاعم التي تحتوي لافتاتها على رؤوس أغنام كبيرة. فأجاب بضحكة خفيفة «نعم! الباتشا» ـ ربما كان يسترجع وجبة خاصة ـ «إنه طبق مشهور في الإفطار. يحتوي على الكثير من البروتين للعمال. وهو عبارة عن رؤوس وأقدام في حساء، والذي يحدث عادةً أن الأغنياء الذين يسهرون ويشربون في الحفلات طوال الليل، يذهبون في الصباح الباكر إلى هذه الأماكن، ليتناولوا عشاءً متأخراً، وبالتالي يفيقون من آثار الكحول».

ثم تابع بكثير من المعرفة العميقة والحديث الساحر والضحكة العالية، موضحاً أنه في العصر العثماني وما بعده كانت العادات المرتبطة بأنماط الطعام وأطباق الطعام سمة الطبقة الوسطى الحضرية في بغداد. فكان الطعام هو الذي يحدد المقاطعات؛ وكانت الأطباق التقليدية التي تشترك فيها المجتمعات الدينية والطائفية ترمز إلى التاريخ العالمي لبغداد من العصر

العباسي إلى العصر الحديث. وقد أصر زبيدة على أن الجوهر الحقيقي للروح العراقية ليس كما كنت أظن أني أعرف ـ بلد تقسمه الحدود الطائفية والصراعات الدينية ـ لكنه بلد يربطه اهتمام مشترك بالطعام.

لقد دعاني إلى مطعم عراقي في لندن، لتجربة عينة من «الكبة»، وهي أقراص مصنوعة من طبقة خارجية رقيقة من القمح أو الأرز وحشو داخلي من اللحم المفروم، ويكون عادةً لحم ضأن. وقد طلب زبيدة «كبة بطاطا» ليس لأنه جيد ولكن لأنه كان يرمز إلى التاريخ العراقي. لقد كانت «كبة البطاطا» تحتوي على طبقة إضافية من البطاطا المهروسة، وهي إحدى المحسنات التي تمت إضافتها إلى الوصفة العربية في حقبة الاستعمار البريطاني للعراق، وكانت تمثل الذوق البريطاني. إن الطعام تاريخ.

كما كانت هناك أمثلة أخرى على الطعام كخريطة للماضي العراقي الثري. لقد أرسل زبيدة إليّ بريداً إلكترونياً بتفاصيل أحد الكتب الموجودة في مكتبته الواسعة، وهو كتاب للطبخ من عام ١٩٤٦م، نشرته الحكومة العراقية. وهو كتاب «**وصفات من بغداد**» ويفتتح بمقدمة من الملكة الأم للعراق. «إن المؤلفين ماي بيتي مع بيديا أفنان ورينيه الكبير» كانوا يعكسون التنوع العراقي، فقد كان رينيه الكبير رجلاً يهودياً معروفاً كما أشار زبيدة. وكان الكتاب قد تم نشره كوسيلة لجمع تبرعات للصليب الأحمر في بغداد. ومع قائمة الأطباق كانت توجد تفاصيل حول العادات والتقاليد من المجتمعات العراقية المتنوعة بالإضافة إلى إرشادات للأطعمة الغربية التي يفضلها المجتمع البريطاني في البلد. وكان هناك فصل يتناول مقاييس تتضمن تحذيراً للطباخين غير العراقيين يقول: «من الصعب في بغداد أن تحصل على الأكواب القياسية للقياس أو ملاعق القياس التي يتم استخدامها عادةً في الغرب، لكن وُجد أن علبة تسع ٥٠ سيجارة ممتلئة تعادل كوب القياس الأمريكي القياسي».

ولقد عجبت من توجيهات الطهي التي تدل على الهوة الثقافية بين الغربيين الذين يقرؤون الوصفات من الكتب والعراقيين الذين لا يحتاجون إلى أجهزة قياس للوصفات التي تنتقل من جيل إلى آخر.

هذه العناصر التاريخية من العراق ـ كتب الطهي وجمع الأموال

والمشاهير اليهود والتشابك الاجتماعي والأشخاص الذين يتعلمون تقاليد الطوائف الأخرى من خلال مشاركة تناول الطعام في العطلات ـ تعكس كلها مجتمعاً يعود ماضيه إلى أكثر من ستين عاماً، ولكن في تقدير زبيدة المتفائل، مازالت عالمية العراق موجودة، فكان يقول: «حتى مع المنفى، هؤلاء هم الأشخاص الذين يمثلون العراق العالمي، وسيظلون هم الطبقة المتوسطة المتعلمة في لندن وفي باريس والآن في عمان ودمشق». إن العراقيين ليسوا متجولين بالمتوسط مثل اللبنانيين العرب.

إن خبرة زبيدة قد قادته إلى معرفة عميقة بعواقب السكان المهاجرين. فقد حذر ـ في مقال منشور وفي مؤتمرات تتناول مابعد الغزو الأمريكي ـ من الضغط على الصفوة في بغداد وجعلهم «تحت الهجوم الشديد، وهم يحملون أحلام الديمقراطية الحقيقية» ولكن في هذا الوقت، كانت بالفعل هناك هجرة كبيرة للمتعلمين العراقيين، وقد ذهب زبيدة إلى توضيح أن هذه ليست أول هجرة للطبقة المتوسطة العراقية؛ فقد حدث ذلك مرتين في القرن العشرين.

«كانت أول هجرة للمجتمع اليهودي في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١م، فحتى أواخر الأربعينيات كان اليهود جزءاً بارزاً من الحياة في بغداد، حيث كان يعيش فيها الأغلبية الكبيرة من اليهود العراقيين الذين كان يقدر عددهم بحوالي ١٢٠٠٠٠ عراقي. لقد كان اليهود موظفين في الحكومة ومدرسين ورجال أعمال وخبراء في الطب والقانون والصحافة والموسيقى. لكن نشأة دولة إسرائيل والحرب مع الحكومات العربية جعلت الحياة أكثر صعوبة أمام اليهود، والأغلبية العظمى هاجرت».

وكانت الهجرة الثانية أثناء فترة حكم صدام حينما تم تطهير التجار الشيعة. وقد أوضح زبيدة أن الشيعة «قد حلوا محل اليهود في الأسواق في الخمسينيات. وقد طرد صدام عدداً كبيراً من الشيعة في السبعينيات والثمانينيات وكانت أسبابه أنهم إيرانيون. وقد كان الكثير منهم تجاراً ومهنيين تمت مصادرة ممتلكاتهم لصالح النظام وعملائه».

ثم هاهي الهجرة مرة أخرى جارية، ولكن بأعداد أكبر بكثير مما حدث أثناء عمليات التطهير. فكثير من اللاجئين أيضاً قد جاءوا من الطبقات التجارية والمهنية في العراق وكذلك المتخصصين السُّنَّة وعائلات العسكريين

بالإضافة إلى الأقلية المسيحية الباقية. وقد دعا زبيدة إلى إعادة بناء الطبقة المتوسطة المستقلة في العراق، لكن لم تكن هناك خطة لذلك سواء في واشنطن أو في بغداد.

وكان هؤلاء الذين يعيشون في المنفى من الجيل الأقدم يرتبطون بوطنهم فقط من خلال الحنين إليه. لقد كانت العراق تلفظ التنوع على مدار ستين عاماً: طبقات اليهود والتجار الشيعة، وبينما تم طرد العديد من التجار الشيعة بواسطة صدام، فقد عادوا بعد عام ٢٠٠٣م، والآن يتم طرد السُّنَّة، مع الأقليات الأخرى، بما في ذلك اليزيديين والمجتمعات المسيحية من الأرثوذكس اليونانيين، والأرمنيين والمندائيين، وتتحول العراق إلى بلد ذي ثقافة واحدة. إن التسامح مع الأديان الأخرى والطوائف الأخرى يمكن المناداة به كسياسة عامة أو يتم تعليمه في المدارس، لكن لم تكن هناك دروس حقيقية على أرض الواقع عن التسامح في مجاورات بغداد «التي تحتوي على فصيل واحد» مؤخراً. فالمسؤولون الدينيون الشيعة ينادون بمناهج مدرسية جديدة تبرز تاريخ الشيعة. وقد رفضت وزارة التعليم العراقية الكتب المدرسية الأمريكية المصممة لطلاب المدارس الابتدائية وترجمتها إلى العربية والتي تتضمن مفهوماً بارزاً مفاده أن الناس لديهم أديان مختلفة لكنهم سواء.

في ذكريات سامي زبيدة، يرى أن الطعام كان جسراً بين الطوائف المختلفة في العراق. فقد كتب عن عالمية بغداد حيث كانت الأعراف الدينية تصاحبها أطباق تقليدية: «فالجيران، الذين تجذبهم روائح الطعام، يتم إرواء فضولهم بإرسال أطباق من الأطعمة بين المنازل، والتي يتم تبادلها بنفس الأطعمة أو ببعض الحلوى الأخرى»، لكن الطائفية المسمومة قد هيمنت على الأمور الآن وهرب كثير من الناس إلى المنفى، وحتى الطعام لم يعد قادراً على جمع العراقيين والتقريب بينهم.

إن تجربة زبيدة الخاصة توضح أن النفي هو عادةً تذكرة سفر بلا عودة. كان هذا حينما سألته عندما تقابلنا لأول مرة في لندن: هل تحلم بالعودة مرة أخرى؟ فأجاب: «كلا لأنني يهودي، فالأمر غير وارد، إن البعض قد عاد ثم اضطر إلى الرجوع إلى هنا مرة أخرى» كان يقول ذلك وهو يسترجع ذكريات

الأيام الأولى للاحتلال الأمريكي حينما كان لا يزال ثمة أمل بين مجتمع المنفى الأقدم. واستطرد: «إنني أعتقد عن نفسي أنني لن أفكر في العودة إلى العراق، فقد كانت آخر مرة رأيت فيها العراق في عام ١٩٦٣م. وكان كل شيء جيداً في هذه اللحظة، ثم في أثناء حرب عام ١٩٦٧م [بين إسرائيل وجيرانها العرب]، سادت عمليات إرهاب واعتقال اليهود العرب وقد قُتل والدي بعد أن قبض عليه ثم مات في السجن، ثم غادرت باقي أسرتي». لقد كانت قصته تشبه الكثير من القصص التي سمعتها مؤخراً في دمشق وبيروت وعمان.

كيف ستكون دولة العراق؟ سألته هذا السؤال يوماً حينما كنا في لندن وكنا حينها نتناول الشاي، فأجاب: «إنني لا أجرؤ أن أفكر في هذا»، لقد خانه في هذه اللحظة تفاؤله وخانته ضحكته المعتادة.

الفصل الحادي عشر

عناصر الميليشيا من أشرف الأعراق

في خضم الحرب السياسية اليومية التي تسود منطقة الشرق الأوسط كان من السهل تماماً العجز عن إدراك الصورة الكلية للأمر. وفي أوقات أخرى تأتي الصورة الكلية إلى الضوء وبؤرة التركيز بكل حدة ووضوح.

«سني أم شيعي؟»

أتى هذا السؤال في شكل تهديد قوي. وقام القناع الذي يرتديه المهددون بإلقاء المزيد من ظلال الخوف، حيث قام مجموعة من الرجال الذين يحملون الرشاشات الآلية وقاذفات الصواريخ والمسدسات والقنابل اليدوية باستجواب السائق الذي معي، والذي كان اسمه ـ ولن تصل أحلامكم إلى اسم أكثر مناسبة لهذه الحادثة من هذا الاسم ـ جهاد. وقد وافق هذا السائق على أن يقلّني من بيروت إلى الحدود السورية. وفي أحد أيام فصل الربيع في عام ٢٠٠٨، تعرضت السيارة التي تقلنا إلى التوقيف الجبري من أجل أن يرد السائق على واحد من أشهر الأسئلة التي تميز منطقة الشرق الأوسط في فترة ما بعد حرب العراق.

في اليوم السابق لذلك اليوم كان الجيش اللبناني قد قام بإغلاق الطريق السريع المكون من أربعة مسارات الذي يصل بين العاصمة اللبنانية ومنطقة عبور الحدود، ولكن السائق المحنّك جهاد الذي يقلني بسيارته كان يعرف طريقاً جبلياً بديلاً، يمتد عبر المدن اللبنانية ذات الطبيعة الخلابة، ثم نزولاً عبر الطرق المتعرّجة ذات المنعطفات المتكررة التي تقع بعد الحقول الزراعية الغنية في منطقة وادي البقاع. وبمجرد وصولنا إلى قرية مجدل عنجر، إحدى القرى الزراعية السُنِّيَّة التي كانت تحتل موقعاً استراتيجياً، رأيت مجموعة من الشباب يقفون خلف مجموعة من الإطارات المشتعلة وهم مسلحون بعدد من

الهراوات والبنادق الآلية. ولم يكن هذا المشهد إلا مجرد معاينة مبدئية للمشهد المشوه على الحدود التي لا تبعد عنا سوى أميال قليلة.

على بعد مائة متر من الحدود نفسها كانت هناك مجموعة مسلحة تتحكم في الطريق. تم استخدام جرار زراعي لتضييق الطريق وعمل نقطة تفتيش غير رسمية لسيارات الأجرة والحافلات والسيارات الخاصة، حيث يتم إجبار الركاب على جمع متعلقاتهم وأمتعتهم والسير بها إلى مكتب الحدود. صاح في وجهنا مجموعة من الشباب الذين ينتمون لقرية مجدل عنجر والذين يسيطر عليهم الغضب والشك، وقد صوبوا أسلحتهم وشحذوا بنادقهم الآلية نحونا. وسرعان ما تجمعوا كأسراب النحل دون أي أدب تجاه الركاب والسائقين على حد السواء.

«سنّي أم شيعي؟» سؤال أطلقه أحد الرجال المسلحين الآخرين بينما كان يقوم جهاد بتنزيل حقيبتي من صندوق السيارة. زفر جهاد، بكل أدب وهدوء، واسترد أنفاسه عندما أجاب عن السؤال للمرة الثانية. سافرت أنا وجهاد معاً مرات عديدة قبل ذلك. وقد عرفت عنه من تلك الصحبة المتكررة أنه رجل متدين يصلي الأوقات الخمس يومياً. غير أن السؤال الذي طرح عليه لم يكن اختباراً لمدى إخلاصه والتزامه بالإسلام، وإنما كان متعلقاً بمدى ولائه وتعصبه الطائفي. فلقد تبنى لبنان طقوس نقاط التفتيش واللغة التهديدية الطائفية التي تسود العراق. و كانت هناك روابط مباشرة وقوية تربط بينه وبين العراق.

كان أولئك الشباب العابسون الموجودون على الحدود اللبنانية ينتمون إلى إحدى القرى الزراعية السُّنِّيَّة التي أرسلت بعض الشباب السنّي للقتال أو للقيام بالعمليات الاستشهادية ضد الحكومة الشيعية التي تساندها قوات الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد. كانت تلك القرية بمثابة «مركز جهادي» يقوم بتمويل بشري لتنظيم القاعدة بالإضافة إلى كونها حلقة وصل معروفة لتهريب المجاهدين «الأجانب» في طريقهم إلى العراق. كان الزعماء الدينيون والمشايخ في مجدل عنجر يدعون إلى نظرية أصولية تفيد بأن المسلمين الشيعة كفار.

فقد كان يتم إعداد أبناء قرية مجدل عنجر للقتال من أجل استرداد سيادة

السُّنَّة في العراق ضد ما اعتبروه انحرافاً وزيغاً لدى حكومة عربية شيعية تحت رعاية وحماية أمريكية. وقد كشفت أحداث ذلك الشهر ـ مايو/أيار ٢٠٠٨ ـ عن مزيد من التطابق الصارخ بين لبنان والعراق: ففي لبنان كان النظام الإسلامي السني أيضاً قد بدأ يتهاوى ويحل محله تنظيم سياسي شيعي أكثر قوة تحت رعاية إيران هذه المرة.

كان الغضب قد ازداد اشتعالاً على الحدود اللبنانية منذ أيام قليلة مضت، عندما قام حزب الله وقوات الميليشيا الشيعية اللبنانية بإغلاق الطريق إلى مطار بيروت، ثم تحولت هذه الميليشيات إلى السيطرة على شوارع غرب بيروت الأمر الذي اعتبر تحدياً ساخراً لقوات الميليشيات السُّنِّيَّة المتطوعة التي تم استدعاؤها من القرى المنتشرة في الشمال، وتم تسليحها مؤخراً بواسطة القوى السياسية السُّنِّيَّة الموجودة بالعاصمة.

وعلى الحدود، لم يكن الشباب السني في مجدل عنجر على اتصال بالنخبة السُّنِّيَّة التقليدية أو الميليشيات أو حتى الأحزاب السياسية التي ادّعت أنها تمثل وتدافع عن المصالح السُّنِّيَّة. فقد قامت هذه الجماعات الصغيرة بالاستيلاء على الطريق بالكامل من تلقاء نفسها كرد على إغلاق حزب الله لطريق المطار. وبمجرد وصول الأخبار المتعلقة بالاستيلاء على الحدود إلى بيروت، لم يعد من الممكن أن تجد أحداً من السائقين الشيعة يتجه إلى طريق الحدود.

كان جهاد ـ سائقي ـ سُنِّيًا. ولقد تأكدت من ذلك حين سألته قبل مغادرتي لبيروت، وهو السؤال الذي لم أحتج إلى طرحه عليه قبل ذلك مطلقاً، قمت أنا وهو بالانضمام إلى طابور الناس الذي يمشي نحو منفذ الحدود ونحن نجر أمتعتنا فوق الممر الترابي المؤدي إلى الحاجز الضيق، وكنا نمر في طريقنا على محلات الوجبات السريعة وأكشاك تغيير العملة، وكذلك على كبار الرجال المسلحين الجالسين على الكراسي البلاستيكية، ونمر على الصبيان الصغار الذين جذبتهم كهرباء العنف المنتشرة في الهواء.

كان الجيش اللبناني قد استقر بالجوار في أحد الأزقّة، محتمياً خلف جدار خرساني لأحد المباني الخالية. وقد رأيت الجنود جالسين أعلى حاملات الجنود المصفّحة، في غاية الاسترخاء وهم يدخنون السجائر. فقد

ظلت القوات النظامية على الجانبين تشاهد تلك الفوضى التي تحدث بالمكان. ولم يبذلوا أي جهد أو محاولة لفتح الطريق أو مواجهة الميليشيات السُّنِّيَّة المنتشرة على جانب الطريق. وأما عن شرطة الحدود فقد انسحبت إلى مكتب مراقبة جوازات السفر لتحمي نفسها من المخاطر والمشكلات المتوقع اندلاعها في أي لحظة. وأصبحت تقوم بختم أي وثائق سفر دون النظر إليه أو مراجعتها.

كان يُسمح لسائقي سيارات الأجرة السوريين الذين يتسكعون على الجانب الآخر من الحدود بالانتظار على الجانب اللبناني. وعلى طريقة الشرق الأوسط رأى مسؤولو الحدود طريقة لتخفيف الفوضى حين قام الرجال المسلحون بمنع سائقي سيارات الأجرة اللبنانيين من عبور الحاجز الترابي المؤقت، وقد كانت هذه الطريقة فرصة تجارية لسائقي سيارات الأجرة السوريين الواقفين على الضفة الأخرى وخدمة حاسمة للركاب اللبنانيين العالقين. ولم يلبث السائقون السوريون أن بدأوا في الهتاف «سوريا؟ سوريا؟» واستعد الركاب للخروج من عاصفة الطائفية اللبنانية.

وقد بقيت الحدود مفتوحة لبضعة أيام رغم الحصار، وزيادة احتمالات العنف في معظم الأنحاء. وقد أجبر الجيش اللبناني الشباب الغاضب على العودة إلى مجدل عنجر. وكما يقول تيمور جوسكيل وهو مسؤول سابق في الأمم المتحدة ومحاضر في الجامعة الأمريكية ببيروت حالياً: «في أي نظام قبلي يُعد إدراك القوة أهم من القوة نفسها، لذا يجب عليك أن تدق على الطاولة بقوة». مؤكداً أن مظاهرة الحدود كانت وسيلة للدق على الطاولة، ولكنه صار صوتاً للهزيمة.

كان اللبنانيون من السُّنَّة يخسرون. في الوقت الذي فاز فيه حزب الله والطائفة الشيعية في الجولة الأخيرة، حتى عند خسارتهم المقاعد البرلمانية في الانتخابات الوطنية في عام ٢٠٠٩م كانوا متمسكين بقوتهم في السيطرة على الحكومة اللبنانية. وقد أثارت المواجهة في شوارع بيروت الغربية أسئلة جوهرية حول مستقبل لبنان وهويته. وقد ساد المؤسسات السياسية اللبنانية النظام الطائفي الديمقراطي الموجود في البلاد الذي أدى إلى حالة من التوتر وكادت أن تصل بالدولة لدرجة الانهيار.

قال جوسكيل: «إن الشيعة لما أرادوا المزيد من السلطة كانوا يرون أنه لابد من القتال المسلح للحصول عليها». وللأسف كما أخبرني فإن الكثير من تلاميذه شاركوا في هذا القتال. وكان العديد من رجال الميليشيات ممن درسوا سابقاً بالجامعة الأميركية في بيروت. وينحدر هؤلاء من أفضل العائلات. وقد واجهتني مشكلة في تصور أن بعض هؤلاء الرجال المسلحين في شوارع بيروت كانوا يجلسون في فصل إدارة النزاع الذي يدرّسه جوسكيل.

ولم تبدُ بيروت التي تتمتع بحرية الحركة مدينةً تعبر عن مجتمع طبقي. ورغم الروح العتيقة التي لا زال لبنان يحتفظ بها بوصفها جزءا من بلاد الشام، إلا أنها تبدو مدينةً موغلةً في الحداثة كذلك، مما يجعلها خليقةً باهتمام من يعتبرونها جسراً ممتداً بين الشرق والغرب.

وقد أُنشأ في شارع الحمراء ـ حيث الحي التجاري ـ الكثير من مقاهي الإنترنت ومقهى ستاربكس والحانات التي تبقى لوقت متأخر من الليل والمقاهي الليلية التي توافق معظم الأذواق في المدينة.

ولبنان دولة قد بُنيت على أساس النظام الطائفي الذي أُسس بواسطة الفرنسيين ـ القوة الاستعمارية التي استمرت حتى الحرب العالمية الثانية ـ وقد اقتطع لبنان من المدن الممتدة على ساحل البحر المتوسط مروراً بجبال لبنان وحتى وادي البقاع الخصب من الأراضي السورية، وقد وُضعت لتوفير ولاية محمية للمسيحيين الموارنة في الشرق الأوسط ذي الغالبية المسلمة.

في عام ١٩٤٣م تضمن الميثاق الوطني أنه يجب أن يكون الرئيس وقائد الجيش من المسيحيين الموارنة، ورئيس الوزراء من السُّنَّة، ورئيس البرلمان من الشيعة، ونائب رئيس البرلمان: من المسيحيين الأرثوذكس. كما دعت الاتفاقية المسيحيين الموارنة أن يقبلوا لبنان بوصفه بلداً عربياً لا بلداً غربياً، وأن يتخلى المسلمون في لبنان عن تطلعهم للاتحاد مع سوريا. وهذا الوضع يعكس توزيع السلطات والهيمنة المسيحية الديموجرافية التي أكدتها دراسة أُجريت في الثلاثينيات، ولكن منذ ذلك الوقت تغير السكان في لبنان بشكل دراماتيكي. وقد ادعى المسلمون الشيعة أنهم أصبحوا

الطائفة الأكبر وطالبوا بما اعتبروه نصيباً عادلاً في السلطة. وكانت «قوانين العراق» العاملة في لبنان تقول: إن الهوية الطائفية تشكل الحماية عندما تكون الدولة المركزية ضعيفة.

* * *

أصبح لبنان في صيف عام ٢٠٠٨م نموذجاً آخراً من العراق بعد الحرب من حيث التوترات الطائفية المشتعلة، والميليشيات، والتهديد بحرب أهلية. وكان لبنان أيضاً جزءاً من الصراع على السلطة الإقليمية، ويعد هذا الصراع وجهاً آخر من الحرب الدائرة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران لبسط النفوذ، وتُعد النتائج الحراك السياسي مترابطة بين مايحدث في لبنان وما يحدث في العراق.

وقد تصاعدت حدة التوترات في لبنان والتي بدأت بعد انسحاب وزراء الحكومة الشيعة الممثلين لحزب الله وحركة أمل. ومع غياب التمثيل الشيعي فقد صرح تحالف حزب الله وحركة أمل بعدم شرعية الحكومة المتبقية. فتوقفت بعض مؤسسات الدولة عن العمل. وقد تراجع باقي أعضاء مجلس الوزراء جنباً إلى جنب مع رئيس الوزراء السني إلى السرايا الكبير المقر الرئيسي المجدد للحكومة العثمانية في وسط بيروت. وقد قام مسؤولو الحكومة بممارسة حياتهم وعملهم متحصنين بالسراي، وأنهوا أعمال الحكومة من وراء الأسلاك الشائكة وتحت الحماية المسلحة. وقد صَعَّدَ حزب الله من المخاطر بتنظيم مظاهرة ضخمة، وأقام هو وحلفاؤه مخيمات اعتصام كبيرة وسط بيروت، ما تسبب في غلق المحلات ذات الأسماء التجارية العالمية، والمطاعم، والحانات في الحي التجاري الرئيسي لأكثر من سنة.

وقد بدأت المواجهة في مايو/أيار ٢٠٠٨م عندما أصدرت الحكومة اللبنانية المدعومة من الولايات المتحدة قراراً بتفكيك شبكة الاتصالات الهاتفية الأرضية الآمنة الخاصة بحزب الله والتي يعتبرها من القواعد الرئيسية في منظومته العسكرية التي يعتمد عليها في أي مواجهة محتملة مع إسرائيل، إضافة إلى قرار الحكومة. وقد أعطى حسن نصرالله زعيم حزب الله رده على قرار الحكومة في مؤتمر صحفي مباشر ظهر فيه مبتسماً ومسترخياً من قبو آمن

تحت الأرض في بيروت مجهز بنظام تنقية الهواء ووصلة ألياف بصرية منفصلة، ووبخ الحكومة اللبنانية وقال: «الأيدي التي ستمتد إلى سلاح المقاومة سوف نقطعها». وبعد الخطاب انطلق مقاتلو حزب الله للسيطرة على العاصمة بيروت.

وبعد مرور ساعة، قام سعد الحريري ـ رئيس حزب المستقبل واجهة الحركة السياسية السُّنِّيَّة ـ بإعطاء جواب الحكومة. وقد طغت على رسالته الرمزية في الدقائق القليلة الأولى من ظهوره التلفزيوني المباشر: حيث أظهرت أول صور البث للحريري وهو بدون حراس ينظر بعيداً عن الكاميرا مع قطع في الصوت، لقد كان على النقيض من ثقة نصر الله.

وقد كان تيار المستقبل الخاص بالحريري في مركز قوى ١٤ آذار الحاكمة، والتي استمدت اسمها من يوم ثورة الشعب الحاشدة التي ساهمت في الضغط على سوريا لإنهاء ثلاثة عقود من بسط نفوذها. وقد أججت المظاهرات العفوية التي أعقبت عملية اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء السابق ذي الشعبية إيمان الكثير من اللبنانيين بأن سوريا هي المسؤولة عن موت الحريري. وقد تعهدت سوريا تحت وطأة الغضب الشعبي في لبنان والضغط الدولي بسحب كل قواتها بحلول ٣٠ أبريل/نيسان ٢٠٠٥، ووافقت على فريق المراقبة الخاص بالأمم المتحدة للتأكد من الانسحاب. وقد تم دعم قوى ١٤ آذار الحاكمة بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية في إطار سعيهم للحفاظ على السلطة الرسمية السياسية في لبنان من الذهاب إلى أيدي حزب الله والرعاة: إيران وسوريا، وهو السعي الذي تعثر بعد ذلك في شوارع العاصمة في مايو/أيار ٢٠٠٨.

وقد قام مقاتلو حزب الله الشيعي أثناء البث التليفزيوني لخطاب نصرالله بالهجوم على غرب بيروت السني، ناقلين المعركة إلى الشارع. وحدث أثناء مكوثي في فندق بجوار شارع الحمراء، أن وقع إطلاق نار كثيف قريب جداً استطعت أن أشم رائحة الرصاص فيه، كما قام مدير الفندق باقتياد ضيوفه إلى الصالة الرياضية بالبدروم للحماية من الرصاص والزجاج المتناثر. وقد تمكنت من رؤية مجموعة من اللبنانيين في شرفات العمارات السكنية المطلة على شارع الحمراء يتابعون العرض.

لقد كانت هناك لحظة درامية في صالة الفندق الرياضية عندما نزل رجال حزب الله المسلحين على السلالم ليواجهوا المجموعة الخاصة بنا المكونة من نزلاء متعبين ومرعوبين. وقد ظن المحققون العسكريون أننا ربما كنا نأوي قناصاً، وجاءوا لاستجوابنا وهم مسلحون بقاذفات قنابل صاروخية ووجوه صارمة.

وأعقب سماعنا لوقع الأحذية الثقيلة والأصوات العالية، نزل بخطى ثقيلة مقاتلو الخطوط الأمامية في حزب الله من الجنوب بكامل زيهم وبوجوه حليقة واكتشفوا حشدنا المختلط، والذي تضمن أستاذين، وصحفياً أمريكياً، ورجل أعمال كولومبي، ورجل اقتصاد هندي، وزوجة مدير الفندق وابنين صغيرين ـ وكنا كلنا واقفين في الصالة الرياضية في البدروم حول مقاعد رفع الأثقال وآلات الجري. وعند النوم، قام الجنود بفصل النساء عن الرجال، وصادروا هواتفنا المحمولة، ورمقونا بنظرة طويلة وقاسية، ثم صعدوا السلالم مغادرين ليكملوا قتالهم بالخارج. وبعد حوالي نصف ساعة، عاد إلينا قائد الوحدة ليعتذر، قال: آسفون لإزعاجكم، ولقد كان اجتياح حزب الله لبيروت بمثابة استعراض قوة موجه للجمهور اللبناني، وهيكل السلطة السُّنِّيَّة في بيروت والعالم العربي العريض. لقد كنا محميين ولا صلة لنا بالموضوع.

بهذه الطريقة، في شوارع غرب بيروت، أظهر حزب الله أنه المهيمن على المشهد السياسي اللبناني. وقد كان نجاح حزب الله نجاحاً لإيران. وخلال أسبوع اتفقت الفصائل اللبنانية المتحاربة على المفاوضات الرسمية، وقاموا كلٌ على حدة بالتوجه للدوحة عاصمة دولة قطر كمكان محايد للمحادثات. وفي طريق المطار أظهر اللبنانيون العاديون تعبهم الذهني بلافتات تقول: «إذا لم تتفقوا فلا تعودوا»، وكان من الصعب التوصل لاتفاق. وقد قام وليد جنبلاط زعيم طائفة الدروز اللبناني بالاتصال بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يغادر الدوحة، وأخبر السفير: «أن الولايات المتحدة أخفقت في لبنان»، مضيفاً «أنه يجب علينا الانتظار لنرى القوانين الجديدة التي سيضعها حزب الله وسوريا وإيران، فإنهم قادرون على فعل ما يحلو لهم».

وقد قامت الجامعة العربية وأمير قطر ـ الراعون للمحادثات ـ بضمان دور لحزب الله في حكومة متضمنة سياسيين يميلون للغرب، مما يعطي لحزب الله حق نقض أي قرار لا يتفق مع سياسته.

وإذا كان الغرب يحترم حلفاءه في لبنان، فسيضطر لقبول شرعية سياسة حزب الله. ولقد كان هذا بمثابة جائزة كبرى لمجموعة تم التعامل لفترة طويلة على أنها منظمة إرهابية مدعومة من الإيرانيين. وبحلول عام ٢٠٠٩م، أعربت بريطانيا عن رغبتها في استئناف اتصالاتها مع الجناح السياسي لحزب الله ـ والمتوقفة منذ عام ٢٠٠٥م، بينما أنكرت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل أن يكون لحزب الله وجود سياسي منفصل عن العمل العسكري فيه. وكذا قام حزب الله ببراعة بتقسيم الحلفاء الغربيين.

في الحكومة كان لحزب الله حق نقض أي قرار يُتخذ في مجلس الوزراء اللبناني. وقد استمر لبنان بدون رئيس للبلاد لمدة ستة أشهر. وقد نصت القواعد الجديدة للجلسة الطارئة للبرلمان على انتخاب رئيس، وهو جنرال جيش مسيحي يتمتع بعلاقات ودية مع دمشق. وقد تجنب لبنان الوقوع في حرب طائفية، ولكن اتفاقية الدوحة كما يُسمونها عرفتنا على ميزان قوى جديد في لبنان وفي المنطقة. وقد ساد حزب الله جنباً إلى جنب مع راعيه وداعمه إيران. وبدون شن حروب، قامت إيران بحنكة بتوسيع نفوذها السياسي في أماكن كانت قبل عام ٢٠٠٣م تحت الهيمنة العربية، متضمنةً لبنان والعراق وفلسطين. وفقد العرب ـ قبل كل القوى السُنِّيَّة ـ أرضاً في كل مكان. حتى الحركات السُنِّيَّة الراديكالية، مثل حماس والإخوان المسلمين، كانوا يعتمدون بشكل متزايد على طهران.

وقد كان كل من الرئيس المصري حسني مبارك والعاهل السعودي الملك عبد الله غاضبين من النمو الإيراني الذي وصل لقلب العرب، ولكن ما الذي كان بوسعهم فعله حيال ذلك؟ وقد قام الغزو الأمريكي بنقل العراق ـ في موازين القوى ـ من الجانب السني بالمنطقة إلى ناحية طهران. وقلقت القوى السُنِّيَّة من مجرد التفكير في العيش تحت سطوة الملالي الشيعة المدججين بالأسلحة المتقدمة.

* * *

بعد يومين من واقعة البدروم مع حزب الله، وأثناء عودتي على الطريق السريع لدمشق، أدركت أن الحرب الطائفية المفتوحة في لبنان قد وصلت إلى الطرق السورية المفتوحة، الأمر الذي تمثل في لوحات تحمل صورة الرئيس السوري بشار الأسد. كان الأسد على درجة كبيرة من الوعي بالتوتر المتزايد جراء حكمه عند أغلبية سنية مع تزايد تحالفه مع إيران في وقت تتزايد فيه حدة التوتر السني الشيعي في المنطقة كلها.

وفي يوم انتصار حزب الله في الدوحة، أكدت حملة إعلامية منسقة في كل من دمشق وتل أبيب وأنقرة أنه بدأت محادثات غير مباشرة بين سوريا وإسرائيل برعاية تركية. وكان بشار الأسد، الحليف الروحي لإيران، يتطلع لخرق هذا الحلف، فكيف سيكون رد فعل طهران؟ في منعطف آخر من مشاهد الشرق الأوسط، لم يعد التحالف السوري الإيراني يبدو آمناً.

وقد تم تحذير الأسد لدوره في لبنان. وبعدها سيكون الأسد في باريس في غضون ستة أشهر، بدعوة من الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، وهي دعوة ساعدت سوريا والرئيس السوري على الخروج من العزلة الأمريكية.

وقد ركزت الصور الإعلامية لرحلة باريس على أسماء الأسد، وهي فتاة شقراء وجميلة في الثالثة والثلاثين من العمر ظهرت ـ بزي راق وشعر مكشوف قصير تم قصه بعناية ـ مع زوجها بشار وهي مبتسمة، وقد قدمت وجهاً جميلاً لسوريا. وقد دعا ساركوزي الرئيس السوري لاجتماع قادة الشرق الأوسط. وكانت مجموعة الشرق الأوسط من اختراع الرئيس الفرنسي، وقد عزم على أن تتضمن سوريا وإسرائيل.

في الواقع، فإن الدعوة قد عكست أن محاولات عزل سوريا ـ وهي سياسة أمريكا منذ عام ٢٠٠٠م ـ قد فشلت. حيث كان هناك حديث عن خطة حقيقية لتكون سوريا هي قطعة الدومينو التالية في سلسلة سقوط الدكتاتوريين.

مع تضاؤل إدارة بوش، كان هناك تزايد في الاعتقاد أن سوريا لاعب صعب ولكنه ضروري في الشرق الأوسط، لاعب له دور في النزاعات المتشابكة. وقد انتهى عهد بوش الذي كان مطبوعاً بالقوة الأمريكية الثورية، والتي كانت تسعى عسكرياً من جانب واحد لإعادة تشكيل الأراضي العربية

والإسلامية. ومع الأخطاء الاستراتيجية في لبنان وسوريا والعراق ضعفت قدرة الولايات المتحدة على تشكيل الأحداث. وقد عرّف الرئيس الفرنسي المنهج السياسي الجديد بسؤاله «كيف يمكنك صنع السلام إذا كنت لا تتحدث مع أصحاب وجهات النظر المختلفة؟». جاء هذا السؤال في سياق توضيح أبعاد قراره بدعوة الأسد لاحتفالات يوم الباستيل في مدينة النور.

وقد حصل بشار الأسد على مكافأته لإجرائه محادثات سلام غير مباشرة مع إسرائيل عبر وساطة تركية، ولإقامته علاقات مع دولة العراق الجديدة (كونه واحداً من القادة العرب القلائل الذين فعلوا ذلك)، ولتعهده بفتح سفارة في لبنان، ولاعترافه بدولة لبنان لأول مرة. كما لعبت استضافة اللاجئين العراقيين دوراً في إعادة تأهيل الأسد في العواصم الأوروبية. وقد قام بفتح بلاده لعمال الإغاثة بالأمم المتحدة، والمنظمات الغير حكومية، وأخيراً لمسؤولين أمريكيين من إدارة الأمن الوطني. وقد كان هذا الانفتاح السياسي على سوريا مقابل أمور عديدة منها ما قدمته سوريا من ضيافة واستعدادها لتحمل العبء الاقتصادي للعناية بالأزمة الإنسانية الناجمة عن الحرب في العراق.

كانت رحلة باريس جائزة للأسد. لقد اكتسب بعض الاحترام وتخلص من صورة وريث يُعتبر نسخة أقل صلابة من والده. وفي باريس، وعد الأسد بشرق أوسط أكثر تحضراً، بينما لا تزال شرطته السرية في الداخل تقوم باحتجاز دعاة الديمقراطية وتحكم عليهم المحاكم بالزج في السجن.

بالنسبة لعمر أميرالاي ـ والذي كان جزءاً من دعاة «المجتمع المدني» ـ كان من الصعب عليه أن يغير نظرته للأسد طالما أن دعاة الديمقراطية لا يزالون بالسجن.

ولكنه قال بصراحة: «نعم إن سوريا تتغير» وقد يبدو في بعض الوقت أنها تتجه اتجاها إيجابياً، لكنها لا تلبث أن تعود أدراجها للمسار القديم. وهناك إصلاحات رئيسية في مجال القضاء وفي النظام المصرفي وفي الإعلام لا تزال معلقة، ومازال هناك غياب كامل لأي حماية قانونية للمواطنين السوريين. ومع ذلك، يبدو أن أميرالاي الذي كان لفترة طويلة معارضاً للبعث في سوريا، كان قد تفاءل لبعض الوقت أن هناك عصراً أوشك على

الانتهاء. وقال: «لقد أصبح البعث من الخيال، لقد مات». ومع موت البعث انتهت أيدولوجية القومية العربية «بالقتل الرحيم» طبقاً لأميرالاي. فعندما وافق الأسد على فتح سفارة لبنان، أصبحت خطوة باتجاه تأسيس علاقات دبلوماسية بين الدولتين لأول مرة، وقد أعلن ضمنياً الحداد على الحلم البعثي بسوريا الكبرى.. سوريا التي لا حدود لها.

وأضاف أميرالاي: «لقد عايشنا التتابع الزمني لنهاية الإمبراطورية العثمانية وقرارت البريطانيين والفرنسيين» مشيراً إلى الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو وإلى البريطاني سير مارك سايكس، اللذين قاما في عام ١٩١٥ ـ ١٩١٦م بالتفاوض على اتفاقية تقضي بإنشاء مجال لبسط النفوذ البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط، والذي بدوره أدى لرسم الحدود الاستعمارية للدول العربية ولتحديد سيطرة الغرب على النفط. ولمدة أربعين سنة رفض السوريون الاستعمار ورسم الحدود الذي تم في العشرينيات على يدهم.

وقد أكد أميرالاي أنه حتى الآن «قامت سوريا باتخاذ الخطوة الأخيرة لتنفيذ معاهدة سايكس بيكو». «ولأول مرة، اعترفت سوريا بأن سايكس بيكو أمر واقع. ولم يحدث أن فعلوا هذا من قبل. وبقيت هناك نقطة تحديد الحدود. وعندها يمكننا القول إن سايكس بيكو اكتملت. ولطالما كانت سوريا المعقل الأخير لهذا الرفض». ولأجيال من السوريين كانت مسألة عروبة سوريا أكبر من حدود الغرب المفروضة عليها وهذا جزء من هويتها. وبالنسبة للبنان، عبر السوريون عن وجهة نظرهم بقولهم: «شعب واحد في بلدين».

وقد عانى حزب البعث من نهاية عنيفة في العراق عندما وصل الأمريكيون لبغداد، لكنه يتراجع بوتيرة أبطأ في سوريا. وكانت فكرة العروبة أيضاً تتراجع. إنها لم تعد قادرة حتى على إعطاء هوية لقبائل وشعوب المنطقة ولا حتى تحقيق انتصار واحد في الحرب أو السلام مع إسرائيل. وعوضاً عن ذلك، ظهر الإسلام السياسي كنظام حديث على الساحة. وكان استقرار سوريا الضارب بجذوره في الفكر العلماني لم يعد بالإمكان ضمانه في منطقة تئن تحت وطأة العداوات الطائفية.

في أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٨، تم دعوتي للعشاء في إحدى المناطق السورية من قبل صديق قديم. كان مواطننا سورياً من طراز خاص، وكان أيضاً مطلعاً على بعض الأسرار الداخلية لنظام الأسد. لم أكن مدركة بشكل أكيد إلى أي مدى كان اطلاعه، ولكننا كنا دائماً نتقابل عندما آتي دمشق. وهكذا تجري الأمور في الشرق الأوسط، خاصة في سوريا: علاقات مبنية على ثقة تراكمت بمرور الزمن، ونظام سري للغاية كما كان في الكرملين القديم، نظام تخضع فيه السلطة لحفنة من الناس، معظمهم إما من عائلة أو من المخلصين لها والمرتبطين معها بشبكة مصالح تاريخية. لقد كان صديقي محقاً في الكثير من الأمور. لقد كان يتشارك في مخاوفه من علاقات سوريا المتنامية مع طهران. كانت دمشق بلا شك في حاجة للاستثمارات الفارسية. وفي الثمانينيات والتسعينيات، كانت سوريا واحدة من أسرع الدول في تزايد عدد السكان في العالم. وصار الأطفال الذين ولدوا في هذه العقود يتدفقون على سوق العمل، وكان على الاقتصاد أن يتوسع ليتم استيعابهم في الوقت الذي بدأت فيه حقول النفط السورية في الجفاف. كانت العلاقات الاستراتيجية تعمل في الغالب لمصلحة إيران، عازلةً سوريا العربية السُّنِّيَّة عن بقية العالم العربي. والروابط التاريخية مع السعودية ومصر ضعيفة طوال الوقت. وكان صديقي متخوفاً أيضاً من تنامي المليشيات الإسلامية في الخفاء في بلاده، وهي نتيجة خطيرة لما حدث بالعراق. وبالنسبة لسوريا أصبحت العراق مكاناً ملائماً للتخلص فيه من الجهاديين المتحمسين في البلاد، ولكنه كان نجاحاً قصير المدى، حيث ضعفت قدرة وكالات الاستخبارات السورية على مراقبة الميليشيات المتشددة. كان صديقي هذا غالباً ما يحدثني عن ضغط الرئيس السوري لفتح قناة مفاوضات غير رسمية مع إسرائيل. لقد أهملت كشفه المبكر حتى أصبحت الاجتماعات بين الطرفين شبه معلنة. وكنت دائمة التطلع لدعوته للعشاء لمعرفة وجهة نظره كمطّلع على بواطن الأمور في البلاد.

ضيف المساء المميز، توم داين، الذي كان من الصعب سابقاً تصور وجوده في دمشق. كان داين معروفاً في واشنطن، ففي الثمانينيات تولى منصب المدير التنفيذي لأيباك، وهي لجنة الشؤون الأمريكية الإسرائيلية العامة. وعلى مدى السنوات الثلاث عشرة التالية قام بتحويل اللوبي المؤيد

لإسرائيل إلى قوة سياسية رئيسية. وقد أوردت صحيفة وول ستريت في تقريرها في عام ١٩٩١ أن أيباك عملت جنباً إلى جنب مع إدارة جورج بوش الأب لتمرير تصويت الكونجرس بشرعية حرب الخليج الأولى. وقد صرح داين للصحيفة قائلاً: «إذا جلست على الخطوط الجانبية فليس لك صوت». وفي عام ٢٠٠٢ استخدم هذا الصوت ثانية منضماً إلى ريتشارد بيرل والمحافظين الجدد الآخرين ليشكلوا لجنة تحرير العراق، مشجعاً للرئيس جورج بوش الأب على الإطاحة بصدام حسين.

داين الآن صار في دمشق، وكان لديه سبب مغاير تماماً: «مهمتنا هي تطبيع العلاقات مع سوريا» وقد فسَّر داين ذلك بأن مجموعة من الأمريكيين والسوريين جاءوا ومعهم خطة استراتيجية لتطبيع العلاقات خلال سنة، مخالفاً بذلك سياسة العزل التي تبنتها إدارة بوش.

رأس داين المجموعة الأمريكية السورية والتي كانت فكرة وليدة لمنظمة تسعى للبحث عن أرضية مشتركة. وكان للمجموعة التي اتخذت من واشنطن مقراً لها تاريخ طويل في حل النزاعات الدولية، وقد طلبت منه أن يرأس المبادرة الجديدة في سوريا. وكانت مجموعة عمل داين تتألف من ثمانية أشخاص على أعلى مستوى من البلدين، متضمنةً سفيراً أمريكياً سابقاً، بالإضافة لمستشارين للحكومة السورية.

كان العشاء في دمشق في منزل رجل الاقتصاد سمير سيفان، أحد أعضاء فريق العمل السوريين. وفي هواء الليل المنعش، على التلال خارج العاصمة، قامت زوجة سيفان بتقديم وليمة من الأطباق السورية في الهواء الطلق، إضافة لأكواب من المشروبات والسجائر. ورغم أن ثمة شهر يفصلنا عن الانتخابات الأمريكية، إلا أن المحادثات تركزت على المرشح باراك أوباما. هل يمكن أن يفوز؟ كان السوريون متشككين. هل سيُغير النهج الأمريكي تجاه سوريا؟ هل يمكن لأوباما أن يرفع العقوبات الاقتصادية المفروضة على سوريا؟ وقد أعطى داين تقديراً أميناً، والذي أشركني معه فيه لاحقاً، آخذاً في الاعتبار عشاء تلك الليلة والاجتماعات التي أعقبتها مع مجموعة العمل. فقد كان يُؤمن أن المباحثات يجب أن تكون قائمة على الأمانة والصدق، وقال: «يجب ألا ننسى أن العلاقات الأمريكية السورية

سيئة للغاية.. وأننا إذا لم نتعامل في هذا الأمر مع القضايا الست جميعها (العراق، وإيران، وحزب الله، وحماس، ولبنان، وإسرائيل) فليس هناك فرصة لإصلاح الأمور.

وقبل عدة أشهر من توليه لهذه المهمة، كان يقود توم داين اعتقاداً واضحاً: «لقد كنت غاضباً من سياسة عزل بوش لكل من إيران وسوريا. ولقد شعرت لمدة طويلة أنها لم تكن مثمرة، فلم تُسفر عن شيء للولايات المتحدة».

هذه الرؤية انتشرت على نطاق واسع بين النخب السياسية في واشنطن. ولكن داين قرر أن يفعل شيئاً ما حيال هذا الأمر، وفي الشهر الذي بدأ تراجع إدارة بوش عن هذه السياسة، وباستخدام اتصالاته ومهاراته المنظمة المعتبرة في واشنطن أراد أن يبطل سياسة «العصا الكبيرة» الخاصة ببوش على مر السنين، ويضيف المزيد من «التحدث بلطف»، وقد كان يأمل أن يترك المحادثات مفتوحة حتى تأتي إدارة جديدة. «أنا لا أفعل هذا من أجل سوريا. بل أفعله من أجل الولايات المتحدة. هكذا أحدد المصالح الأمريكية. لقد قضيت العقود الأخيرة مشاركاً في النهوض بالمؤسسات السياسية».

لقد أمضى أكثر من عقد في صنع القضية الإسرائيلية في واشنطن، وشعر أن وجهات نظره تتماشى مع لاعبين بارزين في السياسة الإسرائيلية: «إن المؤسسة الأكثر مصداقية في البلاد تتفق مع ذلك، فالجيش ووزارة الدفاع أدركوا أن محور اللعبة هو إيران».

لقد تغير النطاق السياسي بشكل ملحوظ منذ أول لقاء تجريبي لداين في سوريا. وبمجرد توليه المنصب، تحركت إدارة أوباما لتغيير الوتيرة ـ إن لم تكن السياسات ـ والتواصل مع الأصدقاء والأعداء على حد سواء. كان المصريون والسعوديون على المحك، يتحدثون مرة أخرى مع السوريين عن ثلاثة: إيران، وإسرائيل، والعراق، من حيث نمو نفوذ إيران في المنطقة على حساب الولايات المتحدة، والانسحاب من العراق، والواقع الإقليمي من قدوم حكومة يمينية جديدة في إسرائيل.

ولم يكن سراً أن مضمون هذه الأحضان الحارة بين واشنطن ودمشق هو

بُعد الأخيرة عن طهران. وهذا ما أراده السعوديون، وهو نفسه ما أرادته إدارة أوباما بعد ذلك، والاستقطاب في المنطقة كان يحركه في جزء منه إدارة بوش، فقد دُفعت سوريا لأحضان إيران فصارت أقرب من أي وقت مضى. ولكن ما المقابل الذي يجب على دمشق أن تحصل عليه لتدير ظهرها لحلف الثلاثين عاماً؟

* * *

فجأة وصلت الدعوة المصنوعة من ورق راق إلى صندوق بريدي بنيويورك. كانت الدعوة من السفير السوري في واشنطن عماد مصطفى، لقد تمت دعوتي للاحتفال باليوم الوطني لسوريا في ١٧ أبريل/نيسان ٢٠٠٩. كانت الحفلة فاخرة وفي هذا دلالة على أن سوريا عادت لتكون لاعباً في واشنطن، وكانت المرة الأولى ـ خلال ثمانية أعوام ـ التي تقوم فيها السفارة السورية بتنظيم استقبال فخم، منذ أول سنة في إدارة بوش عندما كان من الواضح أن دعوة أي مسؤول أمريكي كبير سيواجه بالاعتذار.

في قاعة كروية بفندق بجوار الكابيتول، كان الضيوف مزيجاً من الدبلوماسيين العرب، ومشاهير الإعلام، والمحللين السياسيين، والمستشارين. وقد نجح السفير السوري عندما وضع قائمة ضيوف تضم دبلوماسيين من العراق، ولبنان، والسعودية، مما أعطى انعكاساً بتغير النهج في المنطقة وفي واشنطن. ولكن كان الضيوف الأكثر أهمية هم من المراتب العليا في وزارة الخارجية الأمريكية: فريدريك هوف، خبير إقليمي والذي عمل مع جورج ميتشيل مبعوث الرئيس للشرق الأوسط، وجيفري فيلتمان القائم بأعمال مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وسفير سابق في لبنان. ووجود مثل هؤلاء المسؤولين الأمريكيين من الدرجات العليا في محفل ترعاه سوريا هو أمر غير ممكن أثناء إدارة بوش. وكان فيلتمان ناقداً بشكل صريح للنظام السوري عندما كان يتولى منصب السفير في لبنان أثناء فترة حكم بوش. وكان دائم التحدث بازدراء عن وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة السورية فيما اعتبرته دمشق تدخلاً في الشؤون اللبنانية، والآن يُعتبر ممثل الرئيس أوباما في حفل الاستقبال، ويتصافح بحرارة مع السفير السوري عند مدخل الحفل الأمامي. وكان السفير عماد مصطفى يبتسم في زهو. لقد تغير الزمن بالفعل.

كان أوباما قد تعهد بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع سوريا، وكانت إدارته تبلى بلاءاً حسناً في تنفيذ هذا الوعد وفقاً لسياسة «جزرة واحدة في وقت واحد» والجزرة الأولى واضحة جداً.

تأثرت شركات الطيران الحكومية في سوريا بشدة بالعقوبات الأمريكية القاسية التي فرضتها إدارة بوش عليها. وكان بعض الأسطول السوري المحلي الذي أصابته الشيخوخة من المستحيل إصلاحه ومن الخطير جداً أن يطير. في الوقت الذي كانت فيه قطع غيار الطائرة الأمريكية الصنع بوينج ٧٤٧س محظورة طبقاً للعقوبات الأمريكية. في واحدة من الإيحاءات ذات المغزى لدمشق، وافقت الولايات المتحدة على السماح لبوينج باستئناف بيع قطع الغيار للخطوط الجوية السورية. وكان ذوبان الجليد أمر ضروري جداً في سياسة أوباما، والتي كانت تُعرَّف بشكل عام بأنها السيطرة على مناطق التعاون مع احترام أن للدول مصالح ممكن أن تضعها على خلاف مع الولايات المتحدة.

كانت سوريا تُستخدم كاختبار لهذه السياسة. لقد قرأت الإدارة الجديدة مكانة سوريا في المنطقة بشكل صحيح، سوريا التي تعد بمثابة ورقة ضغط بين إيران ذات النفوذ المتزايد والبلاد السُّنِّيَّة العربية. وقد قدم الأسد نفسه كورقة ضغط أيضاً، ولكنه لم يكن يلعب وفقاً للقوانين الأمريكية. ولماذا ينبغي عليه فعل ذلك؟ فتحالفاته مع إيران، وحزب الله، وحماس قد أثبتت إستراتيجية ناجحة، سمحت لسوريا أن تلعب فوق وزنها. فأصبحت سوريا ـ التي كانت دولة قليلة الموارد، ذات جيش ضعيف، وذات سجل سيئ في الإدارة وحقوق الإنسان ـ ممسكةً بالأوراق الرئيسية في جميع ألعاب المنطقة. ولم تكن دمشق قادرة على تشكيل الأحداث، ولكنها كانت قادرة على العرقلة، وأن تكون مفسدة لخطط الشرق الأوسط الجديد المليئ بالصراعات.

ما هي معوقات تسوية النزاعات في الشرق الأوسط؟ بالتأكيد ليست ضمن إطار زمني مدته أربع أو ثماني سنوات لرئيس أمريكي، حتى الرئيس الذي أدرك الصراعات السياسية الرئيسية، والذي تمتع بشعبية وشرعية كبيرة، والذي أراد أن يبدأ العمل الشاق في بداية فترة رئاسته، بدلاً من الانتظار

للأيام التي ستتراجع فيها إدارته باحثاً عن إرث خلّفه ممارسات سلفه.

كان خيار إعادة إسرائيل للالتزام بفتح محادثات مع دمشق أكثر خيار واعد في أجندة الشرق الأوسط الصعبة الخاصة بالرئيس باراك أوباما. القضية كانت واضحة من حيث: الانسحاب، والأمان، والمياه، والحدود، والثغرات التي يمكن سدها.

كان الجانبان قاب قوسين أو أدنى من التفاوض إبان إدارة كلينتون في عام ٢٠٠٠، ومرة أخرى تعثرت المحادثات غير المباشرة - التي كانت بوساطة تركية - بسبب غزو إسرائيل العسكري لغزة في عام ٢٠٠٨. وقد تُغيّر إعادة تجديد محادثات السلام ديناميكية المنطقة: فمعاهدة السلام قد تعيد تنظيم حلفاء المنطقة وتواجه حزب الله وحماس وإيران بالخيارات الصعبة وسط الصراعات المتشابكة في المنطقة. وقد كان تغيير ديناميكية المسار الإسرائيلي السوري خطوة باتجاه «الصفقة الكبرى» مع جيران العراق، حيث إن سياسة واشنطن الخارجية هي الطريقة الوحيدة لتأكيد الاستقرار بعد انسحاب الولايات المتحدة. وبالتأكيد، فإن الرئيس الأمريكي سيتوجب عليه الدفع بإسرائيل وسوريا إلى السير بشكل أبعد من رغبتيهما. ولكن إذا كان اهتمام الرئيس أوباما الرئيسي هو إيران، فسيكون من المنطقي أن يبدأ بالجلوس مع سوريا.

الفصل الثاني عشر

بعيد جداً

في يونيو/حزيران عام ٢٠٠٩م، كان مكتب مفوض الأمم المتحدة السامي لتسجيل اللاجئين بضاحية دمشق، بكفر سوسه المكان الذي فيه يتم مراقبة الفشل السياسي في بغداد واستيعابه من قبل الأمم المتحدة.

بالنسبة للعاملين بالأمم المتحدة كانت الإجراءات قد استقرت على روتين طويل لأزمة طالت كثيراً. كل ثلاثاء، كان العاملون بالأمم المتحدة يتعرضون لمواجهات مع حشود غير منظمة، غالبيتهم من النساء اللواتي يظهرن لامعات من كثرة العرق، كانت الأصوات تعلو بمطالبهم بشراسة كلما ظهر أحد مسؤولي الأمم المتحدة. والأيدي تمسك بعناية بوثائق بالية، ملوحين بها كدلالة على مصيبة العائلة. كانت أيام الثلاثاء هي الأيام الوحيدة في الأسبوع التي يتمكن فيه البعض من البقاء قريباً حيث يمكنهم التحدث لمسؤولي الأمم المتحدة وجهاً إلى وجه. بالنسبة للبعض، لم تتغير الظروف منذ آخر مرة خضتُ فيها هذا الحشد من النازحين منذ ستة أشهر.

لقد ظلت العراق أعلى دولة في طلبات اللجوء السياسي لأربع سنوات متتالية، وفي الوقت الذي أشارت فيه المفوضية العامة لشؤون اللاجئين لأكثر من ثمانين ألف عراقي حصلوا على إعادة التوطين، ظلت إجراءات قبول بلد إعادة التوطين بطيئة ولا يمكن التنبؤ بها ويمكن أن تأخذ سنوات.

وفي هذا الحشد الضخم دفع المتحدثون باللغة الإنجليزية أنفسهم إلى الأمام: «أنا هنا من أجل أخي وقد جئت لأساعده في موقفه» قالتها فجأة نجاح رشيد، كما لو أنني أعرف أدق التفاصيل عن عائلتها المنفصلة عنها. لقد تم إعادة توطينها في كندا. متى؟ لا أستطيع الجزم بذلك. وأعربت عن اعتقادها أن جاذبيتها الشخصية قد تُحسن من فرص أخيها في الانضمام

إليها: «لقد كان يعاني لمدة خمس سنوات، هل تتخيل ذلك،» قالتها بسخط، بلهجة متمرسة أعتيد على سماعها من قبل مسؤولي الأمم المتحدة الجالسين على الكراسي البلاستيكية في الخط الأمامي. فلقد تخلى الكثير هنا عن الشرق الأوسط وأرادوا اللحاق بأفراد عائلاتهم الذين تم إعادة توطينهم في السويد، أو أستراليا، أو الولايات المتحدة، وجاءوا ليدافعوا عن القضية. وكان لفاتن فرانسيس، وهي عراقية مسيحية نزحت لمنفى دائم في سوريا سؤال أكثر تواضعاً، لقد أرادت فاتن راتباً شهرياً بالإضافة إلى المعونات الغذائية التي منحتها الأمم المتحدة للحالات الأكثر احتياجاً: «أطفالي يعملون، وأنا أعمل في بعض الأحيان. إنهم يعطوننا الغذاء، ولكنه ليس جيداً. فهو غير صالح حتى للحيوانات، فنحن نرميه أو نبيعه».

وكان المجتمع العراقي المنفي قد انتهى به الحال على المدى البعيد إلى الاعتماد على الانتظار. وقد تساءلتُ عما إذا كان هناك وافدون جدد على الحدود، فأجابت فاتن بإصرار: «نعم بالتأكيد»، فهي تأتي إلى هناك كل أسبوع وترى الوافدين الجدد: «إن الأمور لاتزال صعبة في العراق، فهم لايزالون يقتلون الشعب». إنها قصة قتل، أو لنكون أكثر دقة فهي قطع للرؤوس، كانت سبباً في قدوم موتاه فتاه الصالح (Motah Fatah al - Saleh) ليقف أمام المكتب في كفر سوسه، وهو سني عربي من بغداد، كان وجهاً جديداً بالنسبة لنظام يوم الثلاثاء المعتاد، وكان لايزال يجد صعوبة في سرد التفاصيل التي أجبرته على ترك منزله. ادعى أنه تم قطع رأس أمه في مطبخها: «فلقد تم تحذيرها بالكف عن طرح أسئلة حول اختطاف أبنائها»، كما قال صالح الذي كانت طريقته في الحديث تشي بأن توقع هذه الميتة الشنيعة لأي إنسان صار أمراً يمكن التنبؤ به كما يمكن التنبؤ بأحوال الطقس. كانت أمه قد تقدمت بشكواها لمكتب حكومي ببغداد كما أخبرني صالح. وكان هذا بمثابة تطور جديد لنظام القتل والتهديد بالعراق. فلقد كان هناك مكتب حكومي للشكاوى، ولكن الوصول لهذا المكتب يجعلك قريباً جداً من هؤلاء المجرمين الذين لديهم السلطة لإيقاف التحقيقات.

فيليب لوكليرك، القائم بأعمال مدير مكتب المفوضية، قام بالتحقق من توجهات مجتمع المنفى على نطاق واسع. مؤكداً أنه «عندما تتحدث مع اللاجئين، تجد ٩٠٪ منهم لا ينوون العودة في المستقبل القريب»، وبالرغم

من أنه لايزال هناك أكثر من مائتي ألف عراقي مسجلين بالمفوضية إلا أن هناك عشرات الآلاف من العراقيين يعيشون في دمشق وليس لهم أي ارتباط بالمفوضية. وقد ادعى المسؤولون السوريون أن هناك ١,٢ مليون عراقي موجودون في سوريا، معتمدين في ذلك على عدد تصاريح الإقامة.

ولكن نهايات مجتمع المنفى بدأت تلوح عند البعض، حيث سيتم إعادة فرد واحد من كثيرٍ من العائلات ـ أب أو أخ ـ إلى بغداد للحصول على معاش أو أي مقابل، أو للعمل لبضعة أشهر للاعتناء بعائلته الكبيرة المنفية بسوريا. وصرح لوكليرك: «أن أعداد اللاجئين قد انخفضت منذ ستة أشهر مضت، بسبب وجود حركة تنقلات عند جزء منهم». «فهناك مجموعة كبيرة تسافر ذهاباً وإياباً إلى العراق. ولقد ساد تصور لدى معظم العراقيين، وهو: دعونا نبقي على جميع الخيارات متاحة، فلا يمكن أن نثق بخيار واحد».

كانت حركة المرور بين بغداد ودمشق تعمل مثل الرئة، دخول وخروج تبعاً لزيادة وانخفاض حالات العنف. في ربيع عام ٢٠٠٩م توقفت حركة المرور تماماً عندما أُصيب سياسي بارز، وهو زعيم أكبر كتلة تجمع سني عربي في البرلمان، برصاصة في الرأس من قبل مراهق في ضاحية اليرموك وسط بغداد. كان حارث العبيدي قائداً سُنِّيًا على قدر كبير من الوسطية والاعتدال، وأستاذاً جامعياً في الحقوق وناشطاً في مجال حقوق الإنسان، ولقد أُطلق عليه النار أثناء إلقائه خطبة الجمعة على المصلين في واحدة من أكثر ضواحي العاصمة حراسة. وبموته، حتى من كانوا بالمنفى بصفة مؤقتة قرروا أنه من الأفضل لهم البقاء في سوريا والانتظار.

لقد كان العبيدي يمثل أفضل أمل لتحقيق المصالحة بين السُّنَّة والقيادة الشيعية في العراق. فلقد كان يُشارك رئيس الوزراء نوري المالكي وجهة نظره في أن العراق سيصبح أفضل حالاً عندما يغادره الأمريكيون.

بالرغم من أنه كان أكثر مباشرة في توجيه اللوم لهم. وقد نُقل عنه كثيراً قوله: «إن الاستعمار هو المسؤول عن كل الجرائم وعن موت كل مواطن في العراق». وقد أثار انتقاد حاد أطلقه الشكوك حوله ـ في أن يكون متحالفاً مع حركة التمرد السُّنِّيَّة ـ وأدى إلى مداهمة بيته من قبل القوات الأمريكية في عام ٢٠٠٥م. ولكن «تمرد» العبيدي كان سياسياً بالكلية. فلقد شن حملة لنزع سلاح الميليشيات، السُّنِّيَّة والشيعية على حد سواء، ولإعادة تشكيل الجيش

على أسس وطنية بغض النظر عن المسميات الطائفية. وكانت أكثر حملاته صخباً ضد معاملة العراق للسجناء السُّنَّة، وانتقاداته الصريحة لوزراء حكومة المالكي، وقد وترت العلاقة بين الرجلين.

وفي يوم موته، احتج العبيدي بشدة على غياب المساءلة والعدالة في حكومة رئيس الوزراء المالكي أمام حشد من السُّنَّة في المسجد. لقد شن حرباً سياسية خاسرة للحصول على عفو عام عن السجناء السُّنَّة وعلى دور أكبر للسياسيين السُّنَّة في نظام ما بعد ٢٠٠٣م السياسي. بصفته نائب رئيس مجلس حقوق الإنسان بالبرلمان، وبصفته ممثلاً للعائلات السُّنِّيَّة العربية التي فقدت أبناءها داخل منظومة سجون الحكومة. وفي اليوم الذي سبق وفاته، تم استدعاؤه للتحقيق من قبل وزراء الدفاع والداخلية في حكومة المالكي، وقد وجه لهم اللوم على زيادة العنف الطائفي وأوضاع السجون المزرية.

في خطابه العام النهائي، ثار العبيدي ضد التغاضي عن السجناء السُّنَّة في سجون العراق: «لا أحد يعرف عنهم شيئاً سوى الله!» قالها قبل لحظة واحدة من تسلل مراهق انسل بطريقة ما من بين مجموعة الحراسة وأطلق النار عليه من مسافة قريبة.

كان موت حارث العبيدي بمثابة تراجيديا وطنية. فقد فقدت العراق صوتاً للمصالحة مؤثراً وموثوقاً فيه. وفي الحال قام المالكي ـ الذي كانت علاقته مع العبيدي متوترة دائماً ـ بإدانة الهجوم، مدعياً أنه أياً كان الشخص الذي أطلق النار على السياسي السني فقد كان يحاول أن ينشر العنف الطائفي، وأمر بجنازة يبثها تلفزيون الدولة، وقد كانت الجنازة الوحيدة من نوعها منذ الغزو الأمريكي في عام ٢٠٠٣م التي تحصل على هذه التغطية. وقد كان لموت العبيدي قوة كبرى في توحيد فصائل بغداد السياسية المتناحرة. جميع السياسيين العراقيين من شيعة، وسُنَّة، وأكراد تجمعوا داخل المنطقة الخضراء المحمية ليظهروا احترامهم. ولقد رافق حرس الشرف العسكري النعش إلى أن وصل إلى المقابر السُّنِّيَّة الرئيسية بجوار مسجد أبي حنيفة شمال بغداد. وفي القاهرة، لاحظت الجامعة العربية موت «صوت عالٍ لقائد عراقي يتميز بالاعتدال والوسطية»، مع الإقرار بأن إسكات صوت العقل كان له من قبل عواقب في شوارع بيروت، ودمشق، وعَمَّان.

* * *

كانت الحرب الطائفية العراقية قد هدأت بشكل كبير باغتيال حارث العبيدي، وكأنما قَبِلَ العرب السُنَّة والنصارى العراقيون الهزيمة في حرب الشوارع، ولكن ثمة نضال آخر كان في الطريق، تمثّل في قوة نضالية سياسية لا تقل خطورة أسهمت في خلق المزيد من المنفيين. كان الزعماء السُنَّة لا يزالون يحاولون اكتساب القوة في هذا الوطن الذي يتشكل من جديد. والأحزاب الشيعية كانت قد قررت عدم التخلي عنها. ولن يحدث أي استقرار في العراق والمنطقة حتى يتم التوصل إلى حل لهذه المعركة السياسية.

كمرشح للرئاسة، تطلع باراك أوباما لجعل نهاية التشرد والنفي مقياساً لاستقرار العراق على المدى الطويل. وقد أدرك الرئيس أوباما أزمة اللاجئين مرة أخرى عندما أوجز خطته للإسراع بانسحابه من العراق. في كامب لوجون في جاكسونفيل، بولاية نورث كارولينا، قال للمارينز: «إن هؤلاء الرجال، والنساء، والأطفال هم عبارة عن نتيجة حية لهذه الحرب وتحد لتحقيق الاستقرار بالمنطقة». وصرح أوباما بأن لأمريكا مسؤولية استراتيجية وأخلاقية تجاه حل هذه الأزمة: «لأنه هناك بضعة مؤشرات أكثر قوة على إمكانية إحلال سلام دائم، أكثر من مجرد إعادة مواطنين نازحين لوطنهم». وقد أثار الرئيس القضية مع رئيس الوزراء المالكي في ربيع عام ٢٠٠٩م، وفي أول رحلة له عبر البحار بعد انتخابه. وكانت أزمة النازحين في المنفى من الأعمال المعلقة التي أصبحت أكثر إلحاحاً مع الموعد النهائي للانسحاب الأمريكي الذي بدأ يلوح في الأفق.

شملت خطة أوباما للانسحاب «المسؤول» قراراً للاجئين والنازحين. ولكن الوقت ينفد ولم تكن هناك خطة حاسمة لتفعيل هذا القرار.

كان عدنان الشريفي يعرف كيف يوجه اللوم عندما وصلت إلى مكتبه في دمشق - الشريفي بيروقراطي عراقي، كان على رأس العمل ملحقاً تجارياً للسفارة العراقية بدمشق لمدة سنتين - وكان بالفعل يدرك أهمية الاعتراف بالذنب لتفادي النقد، والتي كانت على ما يبدو مهارة ضرورية للمسؤولين العرب الذين هم على شاكلة الشريفي. كان الشريفي المسؤول عن تنظيم السيارات، والحافلات، وتذاكر الطائرات لجذب العراقيين المنفيين للعودة إلى الوطن. لقد كان عليه أن يبيع الصفقة التي شملت وسائل مواصلات

مجانية لبغداد ومبلغ نقدي قدره ٨٥٠ دولار لكل عائلة. وكان هذا بمثابة تحديث لخطة عام ٢٠٠٧م الحكومية الكارثية التي انتهت بعد وصول قافلة حافلات واحدة لبغداد.

في النسخة المعدلة من الخطة، كان على المنفيين أن يقوموا بإلغاء كل تصاريح إقامتهم السورية بالإضافة إلى وضعهم كلاجئين مع المفوضية، متخلين عن حقهم في العودة لسوريا أو لتأهيلهم للاستيطان. ولكن هذا البرنامج الحكومي تعثر أيضاً. وكان لدى شريفي تفسيراً دقيقاً لسبب إصرار العراقيين على رفض العودة للوطن بأعداد مجزية.

لقد قابلت عدنان الشريفي قبل عام عندما أطلقت حكومة المالكي لأول مرة مبادرة إعادة المنفيين للوطن. لقد أكد لي حينها أن غالبية سكان المنفى سيتبنون هذا البرنامج الحكومي، بل في الحقيقة، لقد أخبرني أن كل العراقيين المنفيين سيكونون بالوطن خلال أشهر، تنبؤ لم يكن له مؤشر. وبعد سنة، كان لديه قائمة طويلة بالجناة الذين كانوا سبباً في فشل هذه المبادرة، القائمة بدأت بقيام المفوضية وحكومة الولايات المتحدة بإعادة توطين آلاف أخرى من العراقيين بأمريكا وأوروبا أكثر من العام الماضي «لقد قدمت المفوضية الكثير من الوعود بأن العراقيين سيُعاد توطينهم [بالخارج]. لذا فقد بقي الناس هنا. وحتى لو قامت الحكومة العراقية بحل المشاكل في العراق، فلا يزالون يتمنون العيش في أوروبا. لذا، فهذا خطأ المفوضية»، بذلك صرخ الشريفي.

وأكمل الشريفي خطبته الحادة، بينما كان محمد يحيى مترجمي لهذا اللقاء وأحد المنفيين، محاولاً متابعة قائمة الشريفي من الجناة: «وأيضاً بعض البعثيين الذين لا يزالون هنا، لقد كانوا ضد الحكومة العراقية وأخبروا الناس بعدم العودة. لقد روجوا هذه الشائعات عن طريق الأمم المتحدة، وقد شجعت الأمم المتحدة هذه الشائعات. ولهذا، أراد الكثير من العراقيين المكوث هنا!».

ترجم محمد يحيى هذه الكلمات باهتمام. وبالكاد لاحظ الشريفي يحيى، هذا العراقي الذي رفض عرض العودة، بينما كان آخذاً في إلقاء نظرياته عن سبب عدم اشتراك العراقيين في رحلات الحكومة المجانية:

«وهذا سيأخذ العقول بعيداً عن العراق، وهو ما جعلني أقول أن الأمم المتحدة هي المسؤولة عن ذلك!».

بنظرة عابرة من مكتب الشريفي، لاحظت فوضى من ورق العمل على كل سطح متاح. وكان هناك بضعة علامات احتراق في السجاد من أعواد السجائر المسحوقة من قبل رجال عصبيين. دخل مساعده بخطى متثاقلة إلى المكتب مع المزيد من الأوراق ليوقعها الشريفي، والذي وقع بدون أن يأخذ استراحة من تقديراته بتفاؤل بالغ للعراق قائلاً: «نحن في بلد حر، بلد ديمقراطي»، «لدينا ١٢٥ صحيفة و٧٥ قناة فضائية. إن الإرهابيين فقط هم المشكلة». ولقد نسي شريفي أن يذكر أن العراق بلغ مرحلة جديدة. وبحلول عام ٢٠٠٩م، تم تصنيفه على أنه البلد الأول فساداً في العالم العربي، والرابع على مستوى العالم، من قبل الشفافية الدولية، وهي مجموعة رقابة دولية. وقد تحولت بغداد إلى الفساد بأعلى مستوياته ما جعلها تنافس نيجيريا.

وأهمل الشريفي أيضاً أن يقول: إن العراق لا يزال بلد الميليشيات والبطالة، بجانب التفجيرات المتتابعة، والاختطافات، والاغتيالات. وأهمل أن الرعاية الطبية لا تزال بعيدة عن مستواها الذي كانت عليه قبل الحرب، وأن تمديدات المياه والكهرباء في أفضل الأحوال كانت غير موثوق فيها. وكانت العاصمة عبارة عن مدينة كانتونات يتم التحكم فيها من قبل رجال مسلحين في نقاط تفتيش. وكانت قوات الشرطة الطائفية على درجة كبيرة من الفساد. لم يعد هناك شيء اسمه «بغدادي» هناك فقط سني أو شيعي. وقد يظل عراقي ما مسلماً ضالاً بالنسبة لآخرين يعيش بينهم. لم يذكر الشريفي أياً من ذلك قط.

لو كان لدى الشريفي أي تعاطف تجاه العراقيين الذين يعيشون في منفى بائس لكان أظهره ولكنه لم يظهر أي تعاطف. فقد بدا موقفه وكأنه يعكس موقف رئيس وزرائه: فخلف الأبواب المغلقة، كان المالكي دائماً ما يصف المنفيين «بالجبناء» و«الخونة»، ولهذا فقد داوم العديد من مسؤولي الأمم المتحدة على تكرار هذا الاقتباس من كلام المالكي لي كلما تساءلت عما كان يبدو، وكأنه افتقار للتعاطف عند رئيس الوزراء تجاه السكان المنفيين.

وكانت النظريات المفسرة لاتهامات المالكي تنقسم إلى فريقين: إما أن المالكي لم يتفهم صدمة ما بعد الحرب الطائفية؛ لأن خبراته قام بتشكيلها وصقلها من مقعده المحمي في المنطقة الخضراء، أو أن وجهات نظره تم تشكيلها بواسطة خبراته الطويلة في المنفى. وهناك احتمال ثالث، أن العديد من كبار المسؤولين أدركوا أن غالبية المنفيين كانوا من السُّنَّة.

بالنسبة للمالكي، ظل النزوح الجماعي مشكلة مزعجة للعلاقات العامة. وقد منح برنامج الحكومة ذي الوعود الباهتة بالحوافز النقدية والنقل المجاني تغطية للمصروفات، لذا لم يرغب المالكي في عودة المنفيين. أعلنت الدول المجاورة والمجتمع الدولي أن نزوح العراقيين هو أزمة إنسانية، ولكن رسالة المالكي عبرت أكثر عن اهتمامه بالشأن الداخلي. والمنفيون، مع ذلك، لم يصدقوا كلمة واحدة من هذا الكلام، فوجودهم خارج البلاد ينفي وجود أي تطور في الشأن الداخلي.

الجميع كان يعرف أن الحكومة العراقية عرضت القليل من الدعم للمواطنين العراقيين الذين فروا من البلاد. وقد أظهر استطلاع هاتفي أجرته المفوضية على العراقيين الذي سجلوا أسماءهم في برنامج الحكومة للعودة للوطن أن ١٠٪ فقط من العائدين قد حصل على المبلغ الذي وُعد به. وبصرف النظر عن مبلغ الـ ٢٥ مليون دولار الذي تم تحويله للأردن وسوريا، لم تقم حكومة المالكي بأي جهود لتخفيف العبء الملقى على الدول المجاورة نظير استضافتها لمواطنين عراقيين، أو لتقليل حدة الظروف المعيشية الصعبة بتقديم مساعدات مالية للمنفيين أنفسهم.

وهذا أيضاً يُعد جزءاً من فشل العراق في تحقيق المصالحة الوطنية. فالبلد الديمقراطي ينبغي عليه أن يسعى لحماية جميع مواطنيه، وبدلاً من ذلك، تم التخلي عن المنفيين بالكامل من قبل حكومتهم لأن المجتمع لا يناسب السُّنَّة والمسيحيين.

«إنهم لم يثقوا في حكومتهم بعد» قالها صفا رسول حسين ـ وهو نائب مستشار الأمن القومي للحكومة العراقية ومسؤول نادر لديه إرادة لأن يكون ناقداً لسياسات بغداد ـ وهو يعرب عن يقينه بأن العراق لابد له أن يعمل بجد أكثر ليقنع العراقيين أنهم مُرحب بهم في وطنهم وأن حكومة المالكي لا بد

لها الآن العمل على سياسة العودة: «لا ينوي الكثيرون العودة من الخارج. وهذا بسبب الأمن والوضع بأكمله. فالأوضاع كلها لم تكن جيدة بالقدر الكافي، فإن لم نعمل على تسوية هذه الأمور، فلن يعودوا مطلقاً». وقد أعرب صفا رسول عن أمله أن ٢٠٪ من سكان المنفى سيعودون بنهاية عام ٢٠٠٨م، وهي نقطة التحول التي من شأنها أن تغري المزيد من المنفيين بالعودة بأعداد ضخمة. ولكن كان الدليل دامغاً: فبنهاية عام ٢٠٠٨م بالكاد عاد ١٪ من المنفيين. وفي عام ٢٠٠٩م كان العراقيون يرحلون بأعداد أكبر من الذين يعودون. وكان أكثر العراقيين المهتمين بالرحيل هم هؤلاء الذين كانوا يعملون لدى الولايات المتحدة. وفي سفارة الولايات المتحدة في بغداد، كان لدى برنامج إعادة توطين هؤلاء حالات ضخمة بأعداد كبيرة استغرقت عاماً كاملاً لوضع جدول زمني لأول مقابلة. وكان يتم تسجيل المزيد كل يوم.

فالعراق بلد مختلف الآن وتغير بسبب الحرب الأهلية الطائفية. لقد انتصر فيه الشيعة وخسر السُّنَّة، ولا مجال للالتفاف على هذه الحقيقة. وفي ظل المناخ السياسي الحالي، كان هناك أمل كبير في استعادة بغداد لطابعها التاريخي، المدينة التي كانت في يوم من الأيام غنية بمزيج من الطوائف العراقية يعيشون جنباً إلى جنب. عوضاً عن ذلك صارت لبغداد روح شيعية واضحة، وعلى الشاشة أثناء الأعياد الدينية بينما تعلو الرايات الشيعية فوق أغلب مساجد ومباني المدينة، تجد العديد من المساجد السُّنِّيَّة مغلقة أو في حالة خراب.

«إن العراق سيختلف بالنسبة للسنة إذا صار الأمن بحالة جيدة» هكذا قال صفا رسول. لقد كان واحداً من قلة من المسؤولين الحكوميين رفيعي المستوى الذين لم يكونوا جزءاً من فئة السياسيين المنفيين التي تحكم البلاد حالياً. وقد شكلت خلفية صفا رسول السياسية ـ كضابط في جيش صدام له ارتباطات سرية مع المنشقين السياسيين العراقيين ـ نظرته لمستقبل العراق، كما جعلته على خلاف مع القادة السياسيين الشيعة. علاوة على ذلك فقد كان من عائلة شيعية بارزة وكان متزوجاً من امرأة سنية. وقد اعترف أن حكومة المالكي أرادت التأكد من بقاء بغداد عاصمة ذات أغلبية شيعية.

واتفق مسؤولو الحكومة العراقية على رغبتهم في عكس هجرة العقول، ولكنهم لم يتفقوا على كيفية فعل ذلك.

لقد قللت قوات الولايات المتحدة من نسبة العنف في العاصمة، ولكن كان هيكل السلطة المسيطر عليه من قبل الشيعة له مطلق الحرية في متابعة مصالحه. فالسُنَّة العائدون سوف يجدون أنفسهم جزءاً من أقلية لا تملك أي ضمانات بأن أوضاعها ستُوفر لها الحماية.

وبالنسبة للذين يفكرون في العودة لمنازلهم القديمة ـ طبقاً لأرقام البنك الدولي ٦٠٪ من المنفيين كانوا من ملاك البيوت في بغداد ـ فقد حرمهم وجود أكثر من مليون حالة تنازع على الملكية من أي فرصة للعودة السريعة، حتى مع افتراض أن بيوتهم السابقة كانت في ضواحي تعتبر آمنة. وكان المنفيون العراقيون غالباً ما يكررون أن أعضاء الميليشيات سرقوا بيوتهم بقوة السلاح، أو أن واضعي اليد قد انتقلوا إليها، أو أن منازلهم قد تم الاستيلاء عليها في حملة التطهير العرقي. وآخرون أُجبروا على بيع منازلهم بأسعار أقل بكثير من سعر السوق في صفقات غير قانونية في ذروة الحرب الأهلية الطائفية. وتخلى المستأجرون عن عقود إيجارهم طويلة المدى في أثناء اندفاعهم للهروب من البلاد ثم قام الملاك بإعادة التفاوض على هذه العقود بأسعار أعلى مع المقيمين الجدد، والذين غالباً ما كانوا من مجموعة طائفية منافسة.

وقد حاول المكتب الدولي للهجرة تقييم حجم المشكلة مع استقصاء المساكن بين المشردين داخلياً. وكشفت النتائج أن ٧٠٪ تقريباً من النازحين قالوا: إن أملاكهم قد تم احتلالها من قبل آخرين بدون إذنهم أو أنهم ليس لديهم علم بحالة أملاكهم، ما يشير إلى أنهم يرون أنه من الخطورة الشديدة أن يعودوا لضواحيهم لاكتشاف الأمر. لقد كان يُشكل ذلك عقبة كبيرة. وقد اكتشف الكثيرون من الذين عادوا أن بيوتهم التي عاشت فيها عائلاتهم لأجيال لم تعد ملكاً لهم بكل بساطة.

قامت الحكومة العراقية بوضع إجراءات للتغلب على معضلة التسكين بإصدار قرارين جديدين: قرار مجلس الوزراء رقم ٢٦٢ وقرار رئيس مجلس الوزراء رقم ١٠١. ولكن قواعد وإجراءات استرداد الملكيات المفقودة تم

الاكتفاء بتطبيقها على المواطنين الذين غادروا البلاد في الفترة ما بين يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٦م ويناير/كانون الثاني ٢٠٠٨م. وهذا الإطار يمثل فترة رحلة غير مسبوقة، وقد استبعد البرنامج الحكومي دوائر معينة. واستمرت التهديدات التي تتعرض لها الأقلية المسيحية بعد يناير ٢٠٠٨م. وتم استبعاد السكان المنفيين الأكثر عدداً وهم الذين غادروا البلاد في الفترة ما بين عام ٢٠٠٣م وعام ٢٠٠٦م. وحسب تقدير المفوضية فإن هناك ١،٢ مليون عراقي من هذه الفئة، وأغلبيتهم من السُّنَّة.

* * *

كان قرار الحكومة الباهت والخاص بحقوق الملكية يُعد إثباتاً آخر لهؤلاء الذين يعتقدون أن العراق في وضع لا يمكن إصلاحه، وأن الزمن لا يعود للوراء. فالخريطة الطائفية الجديدة للبلاد التي تم وضعها من قبل الميليشيات والإرهابيين ستدوم. ولقد وصف عرفات جمال، نائب ممثل المفوضية في عمان بالأردن، السكان العراقيين في الأردن بأنهم أناس على درجة عالية من الاحتراف، بحيث إنهم لن يفكروا في العودة دون الحصول على بعض الحلول لمطالبهم بخصوص ملكياتهم واسترداد وظائفهم الحكومية المفقودة.

وقال جمال: «أن تكون لاجئاً أشرف لك من أن تكون عاطلاً بالعراق». وبالنسبة للأقلية المسيحية في عَمَّان، فقد كان جمال مقتنعاً تماماً بأنهم لن يعودوا. وبحلول عام ٢٠٠٩م، قام الاتحاد الأوروبي بزيادة حصص إعادة التوطين، واعداً بإتاحة أماكن لأعداد كبيرة تبلغ حوالي عشرة آلاف عراقي، غالبيتهم من النصارى المهددين، بالرغم من نداءات العراق أن ذلك من شانه أن يقلل من المجتمع المسيحي المتبقي بالبلاد ويثير التساؤلات حول مدى جدوى استمرار ذلك.

كان أمام اللاجئين ثلاث حلول محتملة: أحدها الاندماج الدائم في البلاد المستضيفة، ولكن هذا قُوبل بالرفض من قبل حكومات كل من سوريا والأردن حيث يوجد أكبر عدد من المنفيين. والحل الثاني هو إعادة التوطين في بلدان ثالثة (على سبيل المثال أمريكا، وأوروبا، وأستراليا). وبحلول عام ٢٠٠٩م قامت الولايات المتحدة بإعادة توطين أكثر من عشرين ألف عراقي،

وقام الاتحاد الأوروبي وكندا برفع حصص إعادة التوطين، ولكن حتى مع هذا المعدل السريع فإن الحالات المتراكمة ستحتاج لأكثر من عقد. وكان الحل العملي الوحيد لمعظم اللاجئين العراقيين هو العودة إلى العراق طواعيةً، والذي لازال متوقفاً على إعادة الاستقرار، وسيادة القانون، والإقناع بالمصالحة السياسية. وعلى المدى القريب، بدا هذا الأمر وكأنه ضربٌ من الخيال.

خـــاتمة
بغـــداد

عندما غادرت بغداد في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٥م، كنت منهكة بسبب أعمال العنف المروعة للحرب الطائفية. وكمثل العديد من العراقيين المنفيين، أردت الخروج أيضاً من المدينة التي عرفتها كما عرفت غيرها في العالم العربي. وبعد أربع سنوات، وحوالي ست سنوات من وصول القوات الأمريكية للأراضي العراقية، عدت مرة أخرى وكلي أمل في أن أجد فرقاً في الرواية القاتمة عن المنفى.

لقد لاحظت تغيرات حتى قبل أن أهبط بالطائرة. في رحلتي القصيرة السابقة من عَمَّان لبغداد، كان الركاب يشتملون على العديد من المتعاقدين من القطاع الخاص، ومجموعة رجال من الغرب، معظمهم من الأمريكان والبريطانيين، بشعر قصير ووشم دقيق. أما في هذه الرحلة فصارت الأغلبية عائلات عراقية: أطفال يحملون حقائب ظهر، نساء يلبسون الجينز، بعضهن بحجاب فضفاض على رؤوسهن، وبعضهن بدون حجاب في إشارة إلى عودة موضات أزياء علمانية للعاصمة. عصر الحروب وصل لمحطته الأخيرة، واعتصار الأمعاء المؤلم مع دوران الطائرة وسرعة اصطدامها بالأرض والذي كان يشبه الاصطدام قبل الهبوط، تم استبداله بانزلاق سلس محترف على مدرج ساخن. وصالة الأمتعة والتي حوت إشارات مطمئنة توحي بحياة طبيعية: ملصق جداري ضخم يعلن عن شركات بترول ومشروبات غازية أمريكية. وانتظار الركاب في هدوء سير الحقائب. وبشكل ملحوظ، لا تجد من يدخن، متماشياً مع لوائح صحية جديدة تُبقي المطار كمنطقة خالية من التدخين. وكانت الإشارة الوحيدة الملحوظة التي تعبر عن طبيعة العراق الغير

مستقرة هي وجود مائتي متعاقد أوغندي، يلبسون أزياء متطابقة، جالسين القرفصاء على الأرض في صالة المغادرة، ينتظرون أوراق خروجهم قبل طيرانهم إلى كمبالا. أحد وكالات الأمن الأوغندية الخاصة، وهي «واترتايت للخدمات الأمنية»، قد داومت على إرسال حراس أمن للعراق منذ عام ٢٠٠٧م بعقود سنوية مجزية لتوفير ١٠٠٠٠ حارس نقطة تفتيش.

كان التغيير الأكثر دراماتيكية في نظام إجراءات مغادرة المطار. ففي عام ٢٠٠٥م كان طريق المطار أخطر مسافة في العالم كله على الإطلاق. وبعد أربع سنوات، كان السائق يقود سيارتنا المدرعة بسرعة طبيعية في طريق مزدحم بسائقين عراقيين يقودون سيارات حديثة الطراز، وشاحنات نقل مملوءة بالركاب، وكثير من سيارات الأجرة المطلية بالأبيض والبرتقالي. كان هناك الكثير من إشارات المشاة في الشوارع، ومحلات ومطاعم كانت مفتوحة للعمل حين قمنا بعبور نهر دجلة للجادرية، الحي الراقي الذي كان مقراً للمجموعة الصغيرة من الصحافيين الغربيين بالمدينة.

الأثر الأكثر وضوحاً والذي خلفته الحرب كان ما تم بناؤه عبر المدينة بالخرسانة الرمادية، وديان ودهاليز خراسانية قبيحة الشكل أنقذت أرواحاً ولكنها فرقت الشعب. الحواجز التي بلغ وزنها طنان وارتفاعها حوالي المترين ونصف المتر والمحيطة بالحي بأكمله، عطلت تدفق حركة المرور، وحرمت الأسواق التقليدية من الزبائن العادية، وصارت هي من رسمت خريطة التقسيم الطائفي. في الأيام القليلة الأولى بعد وصولي، تعهد رئيس الوزراء نوري المالكي بإزالة متاهة بغداد الخراسانية خلال أربعين يوماً، في إشارة إلى اعتقاده بأن حكومته قد أحكمت سيطرتها على حالات العنف ورسالة للناخبين حيث كان في حاجة إليهم إذا أراد أن يبقى رئيساً للوزراء بعد الانتخابات الوطنية في غضون خمسة أشهر. ظلت الكهرباء، والمياه، والرعاية الصحية، والخدمات الحكومية الأخرى على المستوى الذي يمكنها من إغراق أي حملة سياسية في أي مكان آخر. أما في العراق، فكان الأمان هو الأمر الثمين للغاية حيث إن المستقبل الانتخابي للمالكي اعتمد على تصور أنه يمكنه منح حياة طبيعية لمدينة مصادمات. فتصويره كأنه الرجل الذي حافظ على بغداد آمنة خدمه بشكل جيد في الانتخابات الأخيرة. وكان ائتلاف دولة القانون الذي نظمه المالكي مؤخراً قد أسقط اللهجة الدينية

والطائفية من حملته وفاز بأصوات علمانية، عززت صورة العراق القومي.

قطعت ناقلة ماء ثقيلة شارع الصالحية بعد عودتي بتسعة عشر يوماً، وهو جزء من مرور الصباح الباكر في الصيف، كانت تسير ببطء وذلك لوجود العشرات من البراميل البلاستيكية الحمراء المربوطة على سطح الشاحنة والتي بالكاد تهتز في هذه الشمس الساطعة. وكانت الناقلات العملاقة تسير متوالية في أحد شرايين المدينة الرئيسية، والتي كانت سابقاً عبارة عن صفوف من شقق سكنية عالية الارتفاع، ونقاط تفتيش عراقية، فقد كان هناك أكثر من مائتي نقطة منتشرة بالمدينة.

وكانت اللحظات الأخيرة من رحلة ناقلة المياه يتم تسجيلها بكاميرا أمنية تم تركيبها من قبل بلدية بغداد عالياً فوق الشارع الذي يقطع وزارة الخارجية. لقد كان يوماً مضيئاً مشمساً وكان يتم تصوير هذه الصور العالية الوضوح من هذا المكان المرتفع. وبعد أن فاوض سائقو الشاحنات نقاط التفتيش أكملوا طريقهم عبر الشارع. هل أجرى محادثة مع الشرطة؟ ربما كان يمزح معهم، مذكراً أحدهم أنه كان أحد أقاربه من بعيد. هذه هي الألاعيب الجديدة التي استعملها العراقيون لتسريع النظام الأمني الآن حيث إن الأمريكيين لم يعودوا يحرسون بغداد. هل قدم سائق الشاحنة رشوة صغيرة لتسهيل مروره من خلال فحص سريع من قبل ضباط الشرطة الذين أتوا متوقعين حصة من الكسب غير المشروع والذي تم جمعه بكميات كبيرة غير مسبوقة بواسطة المسؤولين الحكوميين؟ أو هل قام الحراس العراقيون بتفحص ساعاتهم بفارغ الصبر متوقعين مرور سائق الشاحنة عبر نقطة تفتيش المدينة هذه بالتحديد، لم يعط فيديو المراقبة الأمنية أي أجوبة للأسئلة التي تم طرحها مراراً حيث كانت صورها تبث مرات ومرات على التلفزيون العراقي خلال الأيام المقبلة. بدون هذه الإجابات لم يكن هناك ما يشير إلى توقف الهجمات. بهدوء وعلى نطاق واسع تناثرت في الهواء عدسة الكاميرا المحطمة وتشكلت سحابة كثيفة من التراب البني، والوحل، والأنقاض على جانب الطريق، وشظايا من الزجاج، وأجزاء من جسم الكاميرا. أصبحت الصورة قاتمة للحظات بعد أن قام سائق الشاحنة بتفجير نفسه في المدينة. أكثر من طنين من المتفجرات المعبأة في براميل المياه الحمراء المحملة على الشاحنة قامت بشق واجهة المبنى، مخلفة حفرة بعمق ثلاثة أمتار في موقف

السيارات. كان هذا بعد العاشرة والنصف صباحاً بقليل، وكان هذا ثاني أضخم تفجير انتحاري خلال اليوم. وعلى بعد بضعة أميال هزت الارتجاجات جدران المكاتب وضربت النوافذ، وقد شعرت بدوي الانفجار قبل أن أسمع التفجيرات. ومن الطابق العلوي المطل على مشهد عريض للأسطح المنخفضة ببغداد، استطعت رؤية سحب الدخان القاتمة تتصاعد من الانفجارات الهائلة. سيستغرق الأمر ساعات قبل أن يتمكن أحد من استجماع تفاصيل ما يمكن أن يسميه العراقيون الأربعاء الدامي. لقد كان هذا قتلاً جماعياً في يوم عمل عادي، كما أصبح واضحاً تعداد الوفيات، والضحايا، والأهوال التي كانت داخل الوزارات الحكومية بعد أن تهاوى الزجاج والخرسانة في غرف الاجتماعات وحجرات المكاتب. فكرت في هذه القلة القليلة من العراقيين المنفيين الذين كانوا يفكرون في العودة: فيم يفكرون الآن؟

لقد توفي على الأقل مائة شخص في الأربعاء الدامي، وجُرح أكثر من خمسمائة، في هجمات استهدفت قلب الحكومة. وقد انتاب شعور بخيبة الأمل العراقيين الذين كانوا يتمنون أن تكون الأيام السيئة قد انتهت. وفي بغداد، وُصفت تدابير المالكي الأمنية بالحماقة، مصعدة من قلق العراقيين البالغ لأن الأمريكيين على وشك المغادرة. وقد وصف كاتب عمود بصحيفة الزمان اليومية الحالة العامة للمدينة بقوله: «إن هذه التفجيرات كشفت الحكومة عارية كما كشفت ضعف الأجهزة الأمنية التي لم تكن فقط عديمة الكفاءة ولكنها كانت أيضاً غارقة في الفساد والرشوة».

وعلى وجه السرعة أصدر رئيس الوزراء أوامره بالقبض على عشرات الضباط في جهاز الأمن العراقي. ثم اتهم تحالف جديد للمتطرفين الإسلاميين، وأعضاء حزب البعث السابقين، والموالين للنظام السابق. وانتقد سوريا متهماً إياها بالتواطؤ وقال بأنها توفر ملاذاً لإيواء المتآمرين. وكانت إدعاءاته يستحيل قبولها ولكن دوافعه كانت واضحة. كل فصيل عراقي يتهم أعداءه. فالكثير من السُّنَّة اتهموا إيران بأنها كانت وراء الهجوم. لقد كان تحذيراً جلياً، وجهوه لرئيس الوزراء المالكي الذي قام مؤخراً بالانفصال عن شركائه السابقين في التحالف السياسي الشيعي الذي كانت له علاقات ودية مع طهران. كثير من العراقيين اتهموا النظام السياسي نفسه،

فلا تزال الأحزاب السياسية الكبرى لها أجنحة عسكرية أو ميليشيات تحت تصرفها، والكثير من العراقيين كان يعتقد أن هذه المجموعات كانت تلعب بخشونة في شوارع بغداد. وبالتأكيد سيستفيد خصوم المالكي يوم الانتخابات إذا ما تم تقويض إدعاءاته بالإبقاء على العراق آمنة. وفي أكتوبر/تشرين الأول، عندما قام مرة أخرى مفجر انتحاري بضرب وزارتي العدل والمالية وتجاوز عدد الوفيات العدد الذي وقع في تفجيرات أغسطس/آب، قام عباس بياتي، أحد المؤيدين للمالكي في البرلمان، بتكرار مطالبه بتحقيق دولي قائلاً: «نحن لا نريد أن تصبح هذه الهجمات الإرهابية ذخيرة للنزاعات السياسية، فالسُّنَّة يتهمون إيران والشيعة يتهمون سوريا. وهذا ليس جيداً. يجب أن نتعامل مع الحقائق». والحقائق التي تعتبر أكثر أهمية هي ببساطة هذه التفجيرات الدامية قد فشلت في إعادة إشعال فتيل الانتقام الطائفي لأن المفجرين لم يميزوا بين الضحايا. فكان من بين الضحايا سنة وشيعة. وقامت الأحياء المعزولة بنعي الضحايا دون انتقام.

لكن برغم وجود مشاعر القومية في بغداد إلا أنها لم تكن قوية بالقدر الكافي لإغراء المنفيين بالعودة. فالعراق كان بمثابة دولة مجزأة سياسياً، فرئيس الوزراء لا يزال غير واثق من هؤلاء الذين غادروا. «لقد استفاد من تصويره على أنه قائد وطني، ولكن كان المالكي يرى بعثياً خلف كل شجيرة» كما فسرها رايان كروكر، الدبلوماسي الأمريكي الذي قضى سنوات في تفسير دوافع المالكي تجاه حكومة الولايات المتحدة «لقد كان خائفاً من أن الفكر البعثي كان كامناً في قلوب العديد من العرب السُّنَّة. وكان هذا يقيده. لقد كان يؤمن بأنه في جميع أنحاء الأردن وسوريا، يوجد من يخططون للإطاحة به. وهذا ليس صحيحاً. فهم ليسوا أعداءً له». وأضاف: «لسنا نحن في حاجة إليه [هم] أناس على قدر من المسؤولية، لديهم إيمان بأن هؤلاء الناس يجب أن يعودوا إلى وطنهم». وقد أخبرني أياد السامرائي، المتحدث باسم البرلمان، بأنه: «لو قالت الحكومة: إننا نريد من اللاجئين أن يعودوا ولكنهم لن يوفروا لهم الحماية، ولن يعوضوهم، وأنهم لن يُؤمنوا حياتهم، ولا ممتلكاتهم، ولن يعطوهم وظائفهم، كيف يعودون؟».

وعلى هذا النحو فإن الانتقال الكبير للسلطة في العراق ـ والذي تم فيه استبعاد السُّنَّة بشكل كبير من السلطة الوطنية وفيما بعد من السلطة الإقليمية ـ

بقي دون حل. ومع أفول شمسهم الذي لم ينته بعد، جاعلاً بقاء المصالحة الوطنية العراقية أمراً مستحيلاً، لا يزال السُّنَّة يشتكون بمرارة من النظام المعروف بالمحاصصة، وهي الحصص الطائفية التي تكفل ذهاب غالبية الوظائف الحكومية للشيعة والأكراد حتى صلوات المسلمين، التي كان يبثها تلفزيون الدولة الرسمي، كانت تُعرض حسب قواعد المحاصصة. فقط أذان صلاة الظهر هو الوحيد الذي كان على النمط السني.

«كان هناك الكثير من الأخطاء وهناك أناس سيغضون أبصارهم عن بعض التفاصيل الدقيقة. إنهم ليسوا واقعيين»، هكذا قالها لي بحدة أياد السامرائي. وعندها بدا رئيس مجلس النواب غير مستريح كما لو كان يعكس ما يبدو وكأنه جدال بسيط حول صلوات ينقلها التلفزيون.

ولأنه مهندس سابق، كان السامرائي قد صقل مهاراته اللغوية الإنجليزية في بريطانيا، عندما كان مقيماً في المنفى لعقود. وقد عاد لبغداد بعد الغزو الأمريكي، منضماً لحركة سنية سياسية. ففي المعادلة السياسية العراقية، كان منصب رئيس مجلس النواب يذهب للعرب السُّنَّة. وكان السامرائي قد فاز في الانتخابات البرلمانية بهذا المنصب بسبب سمعته كواحد من أشد المنتقدين لرئيس مجلس الوزراء. وكان أعداء المالكي ـ من السُّنَّة، والشيعة، والأكراد ـ قد احتشدوا خلف السامرائي عندما قاد حملة قوية في محاولة منه للحد من سلطات رئيس الوزراء.

«وفي النهاية، لم يستطع أحد أن يحصل على كل ما يريده: فالبعض كان له حقوق، والبعض الآخر كان لهم طلبات أيضاً». وكان السامرائي يعبر عن حقيقة منطقية ولكن بقيت هناك فجوة مصداقية: كيف تقوم بدمج أناس لا يشعرون بالثقة فيما بينهم؟

«حسناً، لا يمكنني القول إن هناك ثقة»، كما أصر السامرائي «ولكن دعنا نقول: إننا أكثر واقعية». وقد بدأ بها كلامه عندما طالبته أن يحدثني: كيف يمكن تحويل العراق من بلد ذي هوية طائفية إلى بلد ذي هوية قومية بشكل أكبر؟ «يجب علينا أن نتعايش سوياً سواء كنت أثق بالحزب الآخر أو لا أثق به. وبشكل مثالي، كان يجب علي أن أجد طريقة للتعايش [معهم] أو حتى أجد طريقة لزيادة نسبة الثقة بيننا» وبدا ذلك منطقياً.

كان المالكي نفسه يُعد واحداً من ضحايا أفول نجم السُّنَّة. قبيل الانتخابات الوطنية، قام السياسيون الشيعة ومن ضمنهم المالكي بمغازلة الشركاء من السُّنَّة، في نوع من التواصل السياسي السريع لإيجاد شركاء مقبولين ولديهم استعداد ليقدموا أوراق اعتمادهم الوطنية. كان قانون الانتخابات، والمصدق عليه من قبل البرلمان، يعكس الاتجاه العلماني للدولة وذلك من خلال حظر استخدام الصور الدينية في الحملات الانتخابية. وقد سُمح للمنفيين العراقيين بالإدلاء بأصواتهم في السفارات العراقية في الخارج. لقد احتاج المالكي للعلمانية لمخاطبة الطبقة المتوسطة من العراقيين لدعمه في الانتخابات، ولكنه فشل في استمالة البارزين من السُّنَّة للانضمام للائحة مرشحيه. لقد احتاج بالضبط إلى فئات من الناس التي بدأت مغادرة العراق في عام ٢٠٠٥م وانتشروا الآن في أنحاء الشرق الأوسط وحول العالم. وقد كان من غير المحتمل أن يجتمعوا من أجله.

❁ ❁ ❁

ومن بين المنفيين الذين أعرفهم جيداً، كان العديد قد أدلى بصوته بالفعل بواسطة جوازات سفرهم. وكان محمد يحيى، الطبيب البيطري الذي تحول لمترجم، يكتب إليّ كل بضعة أسابيع من دمشق ليخبرني أن قضيته لا جديد فيها. ثم في يوم من أيام شتاء عام ٢٠٠٩م، أعلن أنه حصل على تذكرة الطائرة الخاصة به هو وعائلته وسيتم إعادة توطينهم في ميريلاند. لقد كان لديه اعتقاد أن ضاحيته في العاصمة العراقية لا تزال مكاناً خطيراً عليه وعلى عائلته وذلك بسبب عمله مع وكالة أنباء غربية وبسبب عمله السابق مع الحكومة الأمريكية. لقد تراجعت قوة جيش المهدي في ضاحية الحرية التي كان يسكنها، ولكن التطهير العرقي الذي حدث في عام ٢٠٠٧م بالكاد تم عكسه. وعندما رأيته أخيراً هو وعائلته في شقته الجديدة في ضواحي ميريلاند، ابتسم أكثر مما أذكر عنه.

أكثر الرسائل بهجة كانت تأتيني بانتظام من نزار حسين، الذي عاد إلى بغداد محاولاً استكمال صناعة الأفلام هناك، محافظاً على الوعد الذي قطعه على نفسه. لقد رأى فرصة لتوثيق البحث عن هوية جديدة في موطنه. كان مُصراً على عمل الأفضل لبغداد «إن إيقاع الحياة هنا مجنون بالفعل». كما أرسل لي عبر البريد الإلكتروني مضيفاً: «الناس هنا متعطشة للحياة وسيفعلون

أي شيء يُشعرهم فقط أنهم أحياء مرة أخرى. أشعر وكأني وُلدت من جديد» وأخيراً نجح في الحصول على عقد من شركة في دبي لعمل سلسلة من الأفلام الوثائقية، كان الفن هو جواز سفره، وإذا أصبحت الحياة بالنسبة له لا تُطاق في العراق، فأرجو أن يتمكن من إيجاد مخرج لإنقاذ نفسه ثانيةً.

بحلول عام ٢٠٠٩م، كان اللاجئون العراقيون أكبر مجموعة تم إعادة توطينها في الولايات المتحدة. وقد أثمر التحالف الضاغط المكون من المنظمات غير الحكومية ووكالات اللاجئين في تنظيم حملة لزيادة حصص إعادة التوطين لديهم.

ولكن برنامج الأمم المتحدة الذي توتر بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية أفشل الوافدين الجدد. لقد اعتمد النظام على توافر فرص العمل السهل: فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا عملاً ويصبحوا من المكتفين ذاتياً خلال شهر. ولكن الانهيار المالي جلب النظام إلى حافة الانهيار، وأوقع العراقيين في الفقر والتشرد. وقد قامت لجنة الإنقاذ الدولية ـ وهي أكبر وكالة إعادة توطين في البلاد ـ بدق ناقوس الخطر في تقرير قالت فيه: «اللاجئون العراقيون في أمريكا في مأزق». كانت أمريكا تُعتبر بالكاد ملاذاً آمناً، وفقاً للجنة الإنقاذ الدولية. «عدد كبير من اللاجئين العراقيين المعاد توطينهم عبارة عن أرامل، ومعظمهم معهم أطفال صغار، يشعرون بالحزن والوحدة. هؤلاء الأرامل، يشتملن على عدد كبير من اللواتي ليس لديهن خبرة وظيفية، كُنَّ يتوقعن أن يجدن وظيفة ويعلنَّ أنفسهن وعائلاتهن بعد وصولهم بفترة قصيرة». كان من المستحيل أن نتنبأ كيف سيتمكن العراقيون من التكيف في الولايات المتحدة. في بعض الحالات، كان النجاح متوقفاً على التوظيف العشوائي. وكانت تكساس وأريزونا صعبة بشكل خاص على المعاد توطينهم وذلك بسبب أن سوق العمل كان الأشد تضرراً عند سقوط الاقتصاد.

وليد أرشد ـ وهو خريج معهد الفنون الجميلة ببغداد ـ قد عمل في قاعدة للجيش الأمريكي لمدة سنتين يكتب اللوحات التحذيرية بالعربية ـ «توقف، لا تقترب أكثر من ١٠٠ متر. سيتم استخدام القوة المميتة» ـ حتى أقنع الجنود برسم صور شخصية لهم. لقد رسم الآلاف من اللوحات

الزيتية، حتى أنه قد سُمح له بإقامة معرض صور صغير له في القاعدة. عندما بدأت التهديدات بالموت، نقل عائلته لدمشق، وسجل اسمه ليُعاد توطينه، وعاش من بيع اللوحات للدبلوماسيين. لقد كنت أراه دائماً في العاصمة السورية، بينما انتظر هو وعائلته الموافقات التي اعتقد أنها ستغير حياته للأفضل. في تكساس، أصبح الاقتصاد الأمريكي أكبر أعداء أرشد على الإطلاق. فوكالة تكساس للغوث المسؤولة عن إعادة توطينه قد قطعت إعانته بعد شهرين من الفقر، وجعلته تحت خطر التشرد، توصل إلى أصدقاء أمريكيين أمدوه بالمال لمساعدته على الخروج من ذلك لبضعة أشهر. وكانت لوحاته الجديدة، التي يكسوها الخسارة واليأس، تعكس حالة المجتمع ككل، فهي لم تبع. لقد حصل على وظيفة بدوام جزئي لينظف المنازل في دالاس ولكنه لم يكن كافياً أبداً لتغطية الإيجار والطعام لطفليه الصغيرين. إن هجرة العقول في العراق أهدرت الموهبة العراقية في بلد واحد، والآن ستضيع رأس المال البشري في بلد آخر. تحدث أرشد عن عودته لدمشق، حتى أنه فكر في العودة لبغداد، لكن أصدقاؤه نصحوه بالبقاء في تكساس.

كان العراقيون ذوو المشاكل الصحية الحادة، من مرض السكري إلى إصابات الحروب، غالباً ما يتم إعادة توطينهم في ماساتشوستس، ليكونوا مؤهلين للحصول على الرعاية الصحية بمجرد وصولهم. ولكن آخرين وصلوا إلى الولايات المتحدة بوثائق لا تشير إلى أي مشاكل صحية لديهم. البعض ذهب مباشرة من مطار المدينة التي فيها بيتهم الجديد إلى غرفة الطوارئ بالمستشفى المحلي. وكان عمال الإغاثة غالباً لا يدركون أن الوافدين الجدد، الذين يعانون من ارتفاع ضغط الدم بصورة خطيرة أو من آلام الصدر المنهكة، كانوا يُظهرون أعراض أمراض الحرب.

وكان هناك عامل آخر غير الخلافات حول إعادة توطين العراقيين في الولايات المتحدة وهو وجود الكفيل، فرد في عائلة، أو صديق وافق على دعم الوافدين الجدد، علي جابر، وهو مترجم عراقي لشركة الشرطة العسكرية الأمريكية في العراق، تواصل معي عن طريق الفيسبوك ليخبرني أنه قد فعلها وسيذهب لكاليفورنيا. وكان قبلها قد عاش وزوجته في غرفة رديئة في فندق في عمان بالأردن، حابسين أنفسهم في الإقامة الجبرية في هذه المساحة الضيقة لمدة سنتين تقريباً خوفاً من المخاطرة بالخروج الذي قد

ينتهي بترحيلهم من قبل الشرطة الأردنية. وكان الكفيل الأمريكي لعلي، خوان استرادا، وهو رقيب يعمل مع شركة الشرطة العسكرية ٨٧٠ في الحرس الوطني بكاليفورنيا، قد أخذ على نفسه التزاماً فوق العادي بشأنه.

عندما قابلت الزوجين لأول مرة في الأردن، أخبرني علي بأن استرادا كان «والده الأمريكي» لقد أطلعني على دفتر فيه مبالغ مكتوبة بعناية. كان استرادا يرسل لهم أموالاً كل شهر ليدفعوا فواتير الفندق أثناء فترة انتظارهم الطويلة لإعادة التوطين. وكان علي فخوراً بأن الجندي الأمريكي كان كفيله، هو شريان الحياة الوحيد له في الأردن. وعندما تم أخيراً إعادة توطين علي وزوجته في كاليفورنيا، عرض عليهم استرادا غرفة في بيته. وعاشوا معه لمدة ثلاث شهور. عندما أفكر في اللاجئين العراقيين الذين يصلون الولايات المتحدة، وفي الجهل الأمريكي الكبير بمحنتهم، تبدو قصة علي وكأنها تقدم أملاً في الخلاص من الجانبين. ولكن هذا ليس بالأمر الهين.

وبعد مرور سنة من إعادة توطين علي قمت بالاتصال باسترادا في كاليفورنيا. وقد أكد استرادا أنه «لم يكن هناك شيء صعب بالنسبة [لعلي]. كنا مع بعض لأغلب الوقت. كنت ممسكاً بيده أثناء إعادة التوطين. لقد أحضرت له هاتفاً جوالاً. اصطحبته في جولة بالسيارة. لذا، أنا كنت «والده»، كنت أرعاه طوال الوقت». لقد كون الرجلان رابطة قوية في العراق، الشاب العراقي الشيعي، والحاصل مؤخراً على درجة الليسانس في اللغة الإنجليزية من جامعة بغداد، مع الرقيب الخبير من كاليفورنيا في أول توزيع له للشرق الأوسط.

وقال استرادا: «لقد علمت كيف سيكون شعوره.. تائهاً تماماً». ولقد مر بنفس هذا الإحساس «أن يكون تائهاً تماماً» في العراق حتى قام علي بشرح الثقافة العراقية له وترجم له اللغة العربية. لقد عرض حياته للخطر من أجل خوان استرادا وشركة الشرطة العسكرية بكاليفورنيا. «لقد تعلم النمط الأمريكي وأنا تعلمت عن العرب والإسلام». كما أخبرني استرادا، كما لو أنه كان يصف صداقة تغيرت وكبرت. «لقد جعلني أكثر نباهة وأكثر ذكاءً، وجعلني أدرك جهلنا. لقد كان خطأً مأساوياً. هذا هو رأيي على كل حال» كما قال عن غزو العراق.

وبعد مرور سنتين من أول لقاء لي مع علي جابر وزوجته سورا، قدت سيارتي شرقاً خارجة من سان فرانسيسكو في ظهيرة ممطرة لرحلة تستغرق ساعتين لمنطقة الدلتا، لحضور نزهة سنوية للم شمل أفراد الشرطة العسكرية ٨٧٠ وعائلاتهم. وقد استطاع نجاح علي في التعمق في الثقافة الأمريكية أن يجلب له رخصة سائق، وسيارة، ووظيفة ثابتة. لقد عرف هؤلاء الرجال جيداً بشكل كافٍ ليقبل إغاظتهم اللطيفة له لارتباكه المحرج في هذه الأيام الأولى له، كانبهاره من الخيارات الهائلة من الجبن المعروضة في أسواق كاليفورنيا الكبيرة. لقد تقبلوا ملاحظاته حول بعض الأمور الغريبة في الثقافة الأمريكية وتعهد بتوفير التمويل اللازم لإكمال تعليمه خلال المعسكر.

كان علي وسورا جزءاً من عائلة الحرس الوطني هذه الآن. لقد شارك المترجم العراقي السابق في مباريات الكرة الطائرة وتعلم تقاليد حفلات الشواء الأمريكية. وسورا أيضاً لعبت بشكل جيد مع الرجال. لقد كان تحولها مميزاً جداً: من امرأة صغيرة خجولة محجبة قابلتها في الأردن، إلى متحدثة إنجليزية واثقة بنفسها.

كانت عائلة علي لا تزال في العراق، وقد تابع الأخبار بأقصى جهده على الإنترنت أثناء أوقات راحته التي يحصل عليها من عمله كمسؤول ركن السيارات في نادي يخت. واسترادا، الذي لا يزال في الخدمة الفعلية، تطوع لإعادة الانتشار في العراق. لقد شعر بالالتزام كما قال بأن يكون جزءاً من عملية الانسحاب. «غالبيتهم كانوا ضده» كما أخبرني، مشيراً إلى أصدقائه في الحرس «فرابطتنا قوية. إنهم لم يؤمنوا بالمهمة. فأنا لم أحصل على من يربت على ظهري». وعلقت إجابته في غسق كاليفورنيا. هؤلاء الرجال كانوا أكثر الناس قرباً إليه على وجه الأرض. لقد ذهبوا للحرب معاً وتم تحويلهم بالخبرة. معظمهم تغلب على صدمة الحرب. الكثير منهم ترك العسكرية بمجرد ما تمكنوا من ذلك، لذا فهم لن يعودوا للعراق. شعر استرادا بشدة أنه كان في حاجة هناك لأن يُنهي المهمة التي بدأوها كلهم. قد لا يهتم لذلك باقي البلد، لكن استرادا كان مهتماً.

«إن حرب العراق هي فصل في حياتي. العراق هي جزء من حياتي. هل يبدو هذا منطقياً؟ وهذا بسببهم» لقد قال ذلك للزوجين العراقيين

الذين اعتبرهما مسؤولية شخصية، فإحساسه بالواجب دفع عائلته لحافة الانهيار.

«لقد جاؤوا ليعيشوا معنا. لقد أسكنتهم في غرفة في المنزل، هذه الغرفة الصغيرة في هذا العالم المسالم بجوار عائلتي، ولكن عائلتي لم تتقبل ذلك. لقد قمت بالفعل بعمل اختيار في هذه النقطة» كما قال استرادا، واضعاً في حساباته الانفصال المؤلم عن زوجته وأبنائه الذين كانوا في سن الجامعة وابنته. إنهم لم يتفهموا مطلقاً سبب إحضاره العراقيين لبيته. كان الانفصال الطويل عن الحياة العسكرية عبئاً. لقد قاده الضيوف الجدد للاستراحة الأخيرة. اشترى استرادا منزلاً جديداً لنفسه ولعائلته العراقية الجديدة. وكانت زوجته الأمريكية وأطفاله مقتنعين أن هذا نوع من رد الفعل المتأخر للحرب.

قلت: «مهلاً، هذا هو الشيء الصائب فعله. أنا آسف إنكم غير مستريحين وإنكم لا تفهمون العرب. كانت هناك جوانب في عائلتي لم أرها من قبل، مثل الجهل وافتقارهم للتسامح. حتى في حفلات لم الشمل، كان علي هو الذي يذكرني، يذكرني جيداً، بشيء جيد فعلناه هناك».

وما أصبحت عليه الحياة بالنسبة لاسترادا كان واضحاً جداً عندما ذهبت إلى منزله بعدها بيوم. وكان هناك علي وسورا أيضاً، مسترخين أمام تلفزيون ذي شاشة عريضة، فقد حضروا للبقاء في العطلات الأسبوعية سعياً منهم لإعادة بناء الروابط الأسرية الوثيقة من البيت. عندما تقرر إعادة إرسال استرادا إلى العراق، كان علي وسورا يعيشون معه طوال الوقت. وأستطيع تخيلهم وهم قلقون عليه وعلى تواصل معه عن طريق المكالمات الهاتفية والبريد الإلكتروني باهتمامٍ ما كانت أسرة استرادا مستعدة لفعله.

«بالنسبة لمواطن جندي، لقد فعلت الشيء الصواب. عائلتي لم يدخلوا الحرب ولا يعرفون ما ندين به لهؤلاء الناس. إنه من الصعب تفسير ذلك لهم» هذا ما قاله استرادا. لقد كان هادئاً للحظة، وفي صمت قمت بالتفكير بالعراقيين المنفيين الذين قابلتهم خلال الأعوام القليلة الماضية. ثم تم مواجهة استرادا بالسؤال الجوهري والذي كنت أسعى للحصول على جواب

له: ما الذي ندين به «لهؤلاء الناس»؟ وجوابه، الذي قدمه بشجاعة وعن اقتناع كان بسيطاً: نحن ندين لهم ببيت؛ لأننا انتزعنا بيوتهم.